أني إرنو

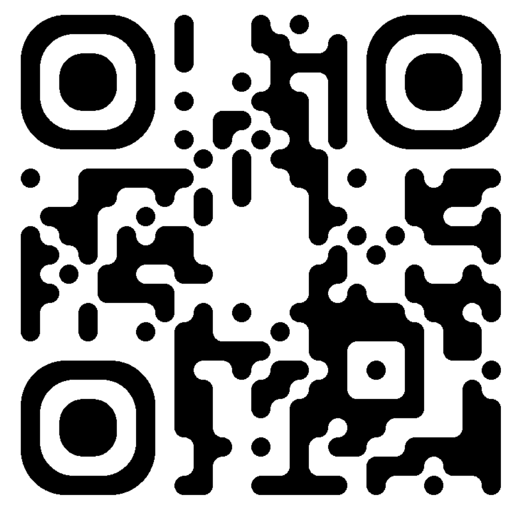
السنوات

ترجمة:
مبارك مرابط

جائزة نوبل للآداب
2022

منشورات الجمل

رواية



أني إرنو

السنوات

ترجمة:

مبارك مرابط

منشورات الجمل



أني إرنو: السنوات، ترجمة: **مبارك مرابط**
الطبعة الأولى ٢٠٢٣

منشورات الجمل ـ الشارقة ـ ص.ب: ٧٣١١١
الإمارات العربية المتحدة

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

«لا نملك سوى حكايتنا، وحتى هي ليست لنا»

خوصي أورتيغا إي غاسي (فيلسوف إسباني)

«أجل، سوف يلفنا النسيان. هذه هي الحياة. لا حيلة لنا معها. ما يبدو لنا اليوم مهما، جسيما، وخيم العواقب، سيأتي عليه حينٌ ويطويه النسيان.. ولن تصبح له أي أهمية البتة. ولا نستطيعُ اليوم، يا للمفارقة، أن نعرف ما سيغدو يومًا ما عظيمًا ومهمًّا أو وضيعًا وسخيفًا (...) ويمكن لهذه الحياة، التي نحيى الآن، أن تُعْتَبر في يوم ما غريبة، مرهقة، وتعوزها النباهة، وتنقصها الطهارة، بل وحتى آثمة، من يدري؟»

أنطون تشيكوف

الكتابة للقبض على الذاكرة الجماعية في الذاكرة الفردية

مبارك مرابط

في تقديري، «السنوات» لـ«أني إرنو»، الفائزة بنوبل الآداب ٢٠٢٢، من تلك النصوص النادرة التي تمتع المرء بسلاسة السرد، وتغنيه بثراء المعارف، وتربكه بما تثيره من أسئلة حول الذاكرة الجماعية والفردية والزمن الحميمي و«التاريخي»:

أولاً، لأن هذا النص يحكي، في الآن ذاته، وعلى امتداد ستة عقود، حياة فرنسيةٍ ـ بكل ما فيها من آلام وأفراح، من آمال وانكسارات، من مغامرات ونجاحات وإخفاقات، من تفاعل مع ما يجري في محيطها والعالم ـ وحياة فرنسا برمتها، بكل ما عرفته من تحولات قيمية وثقافية واقتصادية، وكل ما تعرضت له من هزات اجتماعية وحضارية، وتفاعلها كبلد ومجتمع وحضارة مع ما يحدث حولها.

ينطلق النص، زمنيًا، من نهاية أربعينيات القرن الماضي، ليتتبع خطوات فتاة (الكاتبة أني إرنو) من منطقة النورماندي بشمال غرب

فرنسا، منذ طفولتها الفقيرة ببلدة «إيفتو»، إلى أن تجاوزت سن التقاعد وتوغلت في الشيخوخة وهي ترفل في عيشة بورجوازية نوعًا ما في بلدة بضواحي باريس، مرورًا بتقلبات المراهقة وتحولات الشباب وتساؤلات الكهولة. ويتتبع في الآن ذاته حياة فرنسا الخارجة لتوّها من حرب ضروس دامت أكثر من خمس سنوات، ويرصد تحولاتها العميقة على مدى ٦ عقود.

ثانيًا، لأنه نص يقوم على الصورة، وما يسميه رولان بارث الـ«PUNCTUM» وهي كلمة لاتينية تفيد «الاختراق»، ويعني بها المفكر الفرنسي ذلك الاختراق الذي تحدثه الصورة في النفس. فقد شكلت الصور (١٢ صورة فتوغرافية وفيلمان) خيط أريان الذي اهتدت به الكاتبة في رحلتها السردية هذه، لترصد من خلالها تلك التحولات المتتالية التي طرأت على حياتها وحياة فرنسا على امتداد ستة عقود (من الصور الباهتة بالأبيض والأسود إلى الملونة وصولاً أخيرًا إلى الرقمية). ولعل اختيار الصورة (ثابتة أو متحركة) لضبط إيقاع السرد وتقدمه كان صائبًا إلى أبعد الحدود ومناسبًا لنص حول «الزمن والذاكرة» كما وصفته صاحبته في حوار مع صحيفة «le monde». فالصورة التي توحي بالحضور والغياب، بالموت والحياة في الآن ذاته، هي التي تقدح الأحاسيس وتوقد الذاكرة. فـ«الحس هو الذي يثبت الذكرى» كما تقول الكاتبة الفرنسية، ولا يمكن تذكر شيء إن لم نكن قد أحسسنا به. وهي التي تجسد أثر الزمن بالإفلات منه، لأنها قادرة على التقاط لحظات من الحياة.. ووضعها خارج مسار هذا الزمن.

ثالثًا، لأن هذا النص ـ الذي شغل الكاتبة لعقود ولم تشرع في الاشتغال عليه بجد سوي في ٢٠٠٢ بعد إصابتها بالسرطان ـ يتضمن

التأريخ والسوسيولوجيا والسيكولوجيا ويستحضر الكثير من الأحداث والأغاني والأفلام والإعلانات وغيرها، ولكنه ليس كتابًا في تاريخ ولا دراسة سوسيولوجية ولا بحثًا سيكولوجيًا، ولا يوميات. هو كل هذا دفعة واحدة لا شيء منه.. نص يحكي ويتأمل ويسرد الأحداث التاريخية ويورد معطيات سوسيولوجية ويوظف اليوميات في نسيج يسائل العلاقة المتوترة بين «تاريخ» الفرد وحميمته و«تاريخ» الأحداث والوقائع التي تؤثث حياة الجماعة وتضبط إيقاع حياتها.. بين الذاكرة الجماعية والذاكرة الفردية. إنه نص يحاول القبض على «ذاكرة الذاكرة الجماعية في ذاكرة فردية» كما تقول صاحبته.

رابعًا، لأن هذا النص اتسم بقدرة فريدة على الجمع بين ما هو شخصي وما هو جماعي.. بين الحياة الخاصة الحميمية والحياة العامة الجماعية، في تناغم يجعل القارئ يحس أنه فيما يشبه «السعي» بين مجالين شبكتهما يد ماهرة بحذق لا يخطئه حدس القراءة. إذ في هذا النص لا يطغى ما هو جماعي عام على ما هو خصوصي، فيحيله مجرد تفصيل ثانوي يِؤثث منعرجات صيرورة عامة جارفة. ولا يسود الشخصي على ما هو عام ويحوله إلى مجرد دعامات تؤطر، من حين لآخر، السرد الحميمي المتدفق.

وبهذا الجمع راهنت «أني إرنو» في نصها هذا ـ الذي يجمع النقاد بفرنسا وخارجها، على أنه أهم ما أنتجت ـ على التموقع في تلك المنطقة التي لا يجرؤ على الخوض فيها سوى الراسخون في الإبداع.. تلك المنطقة البرزخية حيث تتحقق الكتابة الحقة وتجد راحتها (ألم يقل ابن عربي: البرازخ مواطن الراحات)، حيث يتصل ما هو فردي وما هو جماعي وينفصلان في الآن ذاته. في هذا النص يسير ما هو شخصي

حميمي وما هو جماعي عام في خطين متوازيين ولكنها يتقاطعان في الوقت ذاته. وتقاطع المتوازيان من تلك المستحيلات التي لا يتحقق سوى في الرفيع من الأدب.

خامساً، لأن هذا النص ـ الذي يشمل بشكل أو بآخر كل أعمال الكاتبة، سواء السابقة أو اللاحقة لصدوره ـ يبتدئ بـ«التلاشي» (ستتلاشى كل الصور...) وينتهي بـ«الإنقاذ» (...إنقاذ شيء من براثين الزمن الذي سنختفي منه إلى الأبد). والتلاشي مرتبط بالزمن الذي يفلح، في نهاية المطاف، في «إذابة» كل الحيوات وكل الأشياء، بينما «الإنقاذ» و«الحفاظ» هنا مرتبطان ارتباطًا وثيقًا بالكتابة. إذ يُفْتَتَح النصُ باستهلال جنائزي رهيب متدفق حول كل مشاهد الحياة العديدة التي ستزول لا محالة، ويُختَتَم بسيل من الضوء المنهمر على كل الأشياء التي نعيشها والتي لن تتلاشى هذه المرة بعد أن قبضت عليها الكتابة وانتشلتها من الزوال.

* * *

في «السنوات» كما في نصوصها الأخرى، تتناول «أني إرنو» سياقًا فرنسيًا صرفًا ليس للقارئ العربي بالضرورة سابق معرفة به. فالنص يشير إلى أحداث تاريخية تهم فرنسا بالأساس.. ظواهر اجتماعية فرنسية.. موضة اللباس التي كانت سائدة بهذا البلد إلى غاية بداية سنوات الألفين.. أسماء سياسيين ونقابيين، فنانين وفنانات، ممثلين وممثلات، رياضيين، كتاب وكاتبات شهيرين بفرنسا وغير معروفين أو مألوفين لدى القارئ العربي، خاصة وأن عددًا منهم تلاشت أسماؤهم وصورهم حتى من ذهن الجيل الحالي للفرنسيين.. أسماء معاهد ومؤسسات علمية لها مكانة رفيعة، عناوين مجلات وصحف لها وزنها في فرنسا (أو كان لها)

وليست بالضرورة معروفة خارجها.. إلى آخره من الإحالات التي قد تجعل النص منغلقًا إن لم يتم توضيحها.

وهذا الوضع فرض عليّ أمرًا لا أستسيغه كثيرًا. ولكن أقنعت نفسي أن مصاحبة الترجمة بهوامش من شأنه مساعدة القارئ على البقاء في السياق العام للنص. وكنت حريصًا ما أمكن، واجتهدت قدر الإمكان حتى تكون الهوامش في الحد الأدنى الممكن، واقتصرت على إيراد تلك التي ارتأيت أنها ضرورية حتى يظل القارئ في مناخ النص.

ستتلاشى كل الصور.

تلك المرأة المُقَرْفِصَة وهي تتبول في وضح النهار خلف كوخ يقوم مقام المقهى، على طرف الأنقاض بـ«إيفتو»[1]، بعد الحرب.. ترتب ملابسها الداخلية وهي واقفة رافعة تنورتها، ثم تعود إلى المقهى.

الوجه المبلل بالدموع لـ«أليدا فالي» وهي ترقص مع «جورج ويلسون»[2] في فيلم «الغياب الطويل».

الرجل الذي صَادَفتْ على الرصيف في مدينة «بادوفا»، صيف ١٩٩٠، ويداه مغلولتَان إلى كَتِفَيْه، والذي قدح على الفور ذكرى دواء «THALIDOMIDE» الذي كان يوصف للحوامل ضد الغثيان قبل ثلاثين سنة، وفي الآن نفسه، ذكرى تلك القصة الهزلية التي كانت رائجة: كانت امرأة حامل تحيك ثوبا لرضيعها المنتظر وهي تأخذ هذا الدواء..

---

(١) «إيفتو» (YVETOT) مدينة فرنسية تبعد عن باريس بـ١٦٦ كلم إلى الشمال الغربي وهي البلدة التي ترعرعت فيها الكاتبة «أني إرنو».

(٢) «أليدا فالي» ممثلة إيطالية و«جورج ويلسون» ممثل ومخرج فرنسي.

حبة مع كل صف يحاك. قالت لها صديقة فزعة: ألا تدرين أن جنينك قد يولد بلا ذراعين؟ فأجابت: بلا، أدرك ذلك جيدا.. على أي لا أتقن حياكة الأكمام!

«كلود بيبلو»[1] على رأس فوج من عناصر الفيلق الأجنبي، وهو يحمل اللواء بيد، ويجر معزة بالأخرى، في أحد أفلام الفرقة الموسيقية «لي شارلو».

تلك السيدة المهيبة المصابة بالزهايمر - التي ترتدي بلوزة مزينة بالزهور، إسوة بالنزيلات الأخريات بدار العجزة، ووشاحًا أزرق على الكتفين - وهي تختال في الممرات، دون توقف، كأنها «دوقة غيرمونت»[2] في غابة «بولون»، وكانت هيئتها تذكر بـ«سيليست ألباري»[3] كما ظهرت ذات مساء في برنامج لـ«برنار بيفو».

على خشبة مسرح بالهواء الطلق، تخرج امرأة حيةً من صندوق اخترقه مجموعة من الرجال برماح فضية.. الأمر مجرد خدعة سحرية تسمى «استشهاد امرأة».

---

(١) «كلود بيبلو» (CLAUDE PIEPLU) ممثل فرنسي.

(٢) «دوقة غيرمونت» هي إحدى أهم شخصيات «البحث عن الزمن المفقود» لـ«مارسيل بروست».

(٣) «سيليست ألباري» (CELESTE ALBARET) هي الخادمة الشهيرة لـ«مارسيل بروست».

مومياءات ملفوفة في الدانتلا الممزقة وهي معلقة على جدران دير «دي كابووتشيني» في «بالرمو».

وجه «سيمون سينيوري» على ملصق فيلم «تيريز راكين»[١].

الحذاء الموضوع على قاعدة دوارة بمتجر «أندري»، بزقاق الساعة الكبيرة في مدينة «روان»، ومع هذه القاعدة تدور نفس الجملة باستمرار: «مع 'بابي بوط..' طفلك يخب وينمو سريعًا»

الشخص المجهول في محطة «تيرميني» بروما، الذي أسدل ستار النافذة، في مقصورته بالدرجة الأولى، إلى النصف، حتى لا يبدو منه سوى نصفه الأسفل، وأخذ يلوح بعضوه في اتجاه المسافرات الشابات المتكئات على الحاجز في الرصيف المقابل.

ذلك الشخص الذي ظهر في إعلان بالسينما لماركة «PAIC» الخاصة بغسيل الأواني، وهو يهشم بحيوية الأطباق بدل غسلها.. وصوت يقول له بصرامة «هذا ليس حلاً!». فينظر ذلك الشخص صوب الجمهور يائسا: «ولكن، ما هو الحل إذن؟».

في شاطئ «أَرِينِيسْ دِي مَارْ» بمحاذاة خط السكة الحديد.. ذلك النزيل بالفندق الذي يشبه «زابي ماكس»[٢].

---

(١) «سيمون سينيوري» (SIMONE SIGNORET) ممثلة فرنسية شهيرة.
«تريز ركين» فيلم فرنسي مستوحى من رواية بنفس الأسم لـ«إميل زولا».

(٢) «زابي ماكس» (ZAPPY MAX) منشط إذاعي فرنسي.

المولود المرفوع في الهواء مثل أرنبٍ عارٍ في صالة الولادة بمشفى «بَاسْتُورْ دُو كُودِيرُونْ»، والذي نجده بعد نصف ساعة مرتديا ملابسه ونائما على جنبه في مهده، وإحدى يديه خارج الغطاء الذي يغطيه حد الكتفين.

المظهر المفعم بالحيوية للممثل «فيليب لومير»، عند زواجه بـ«جولييت غريكو»[1].

في إعلانٍ تلفزيونيّ، أبٌ يحاول عبثا، وهو مختبئ خلف جريدته، رَمْيَ حبة من حلوى الـ«Picorette» في الهواء والتقاطها بفمه، كما تفعل ابنته الصغيرة.

بيت بعريشة عنب، كان في الستينيات فندقا، بالرقم ٩٠، على رصيف «زَتيري» بالبندقية.

المئات من الوجوه المشدوهة المصورة من طرف الإدارة قبل الرحيل صوب معسكرات الاعتقال، والمعلقة على جدران قاعة من قاعات قصر طوكيو، وسط الثمانينيات.

المراحيض الموضوعة عند النهر، بالباحة الخلفية للمنزل في بلدة «لِيلْبُونْ»، والماء المتدفق ببطء حاملا الأوراق الممزوجة بالخراء.

---

(١) «جولييت غريكو» (JULIETTE GRECO) مغنية فرنسية شهيرة وكان «فيليب لومير» (PHILIPPE LE MAIRE) زوجها الأول في بداية الخمسينيات.

كل تلك الصور الغسقية للسنوات الأولى التي تتخللها بقع مضيئة ليوم أحد مشمس.. صور الأحلام التي يُبْعَثُ فيها الوَالِدان أحياء.. الأحلام حيث نحث السير على طرقات مجهولة.

صورة «سكارليت أوهارا»[1] وهي تجر على الدُّرج جثة «اليانكي» الذي قَتَلَتْ للتو.. ثم وهي تجري في أزقة «أطلنطا» باحثة عن طبيب لـ«ميلاني» التي توشك على الوضع.

صورة «موللي بلوم»[2] المستلقية إلى جانب زوجها وهي تتذكر أول مرة قبلها أحد الفتيان وتقول: نعم، نعم، نعم.

صورة «إليزابيث دراموند» التي قُتِلَتْ رفقة والديها على إحدى طرقات منطقة «لُورْسْ» في ١٩٥٢

الصور الحقيقية أو المتخيلة.. تلك التي تلاحقنا حتى في المنام.

صور لحظة من اللحظات.. تلك الصور التي تسبح في ضياء ليس لسواها.

ستتلاشى كلها دفعة واحدة كما تلاشت ملايين الصور التي كانت

---

(١) «سكارليت أوهارا» (SCARLETT O'HARA)، الشخصية الرئيسية في رواية «ذهب مع الريح» لـ«مارغريت ميتشل».

(٢) «موللي بلوم» (MOLLY BLOOM) هي زوجة «ليوبولد بلوم» الشخصية الرئيسية في رواية «عوليس» للكاتب الإيرلندي «جيمس جويس».

متراكمة خلف جباه الأجداد الذين رحلوا منذ خمسين سنة، والآباء الذين ماتوا هم أيضًا. صور نظهر فيها أطفالاً بين صور أناس آخرين رحلوا حتى قبل أن نولد، تمامًا مثلما يحضر في ذاكرتنا أطفالُنا وهم صغار إلى جانب والِدَيْنا ورفاقِنا في المدرسة. ولعلنا سنكون ذات يوم في ذكريات أطفالنا بين صور حفدتنا وأشخاص آخرين لم يولدوا بعد. إن الذاكرة مثل الرغبة الجنسية، لا تنضب أبدًا. تجمع بين الأموات والأحياء، بين الكائنات الحقيقية والمتخيلة، وبين الحلم والتاريخ.

ستنمحي بغتة آلافُ الكلمات التي أسعفت في تسمية الأشياء، وجوهُ الأشخاص، التصرفاتُ والمشاعر.. التي أسعفت في ترتيب العالم.. وجعلت القلب يخفق، وبللت العضو التناسلي.

الشعارات.. الكتابات على جدران الأزقة والمراحيض.. الأشعار، والحكايات الفاحشة.. العناوين..

ANAMNESE.. EPIGONE..NOEME.. THEORETIQUE.. هذه المفاهيم المدونة في دفتر مع تعريفاتها لتجنب الرجوع في كل مرة إلى المعجم.

تلك التعابير الرفيعة التي يوظفها الأخرون بتلقائية، والتي نشك في قدرتنا على استعمالها في يوم من الأيام: لا يمكن إنكار أن... لا يسعنا إلا أن...

تلك الجمل الرهيبةُ التي كان يجب نسيانها.. والعنيدةُ أكثر من

غيرها، بسبب هذا المجهود المبذول لطمرها في الذاكرة: تشبهين قحبةً ذابلة!

كلام الرجال في السرير ليلا.. افعلي بما ما تشائين، فأنا ملك لكِ

الحياة هي أن نرتوي من ذواتنا دون ظمأ

ماذا كنتِ تفعلين يوم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠١١؟

آيات «جئت لألقي نارا...» يوم الأحد في القداس

كل تلك التعابير التي عفا عنها الزمن، والتي نسمعها من جديد صدفة فتصير، فجأة، ثمينةً مثل أشياء ضاعت منا وعثرنا عليها.. ونتساءل كيف حَافَظتْ على وجودها.

تلك الكلمات التي ارتبطت إلى الأبد بأشخاص معينين مثل شعار: لا يمكن أن نمر من نقطة محددة على الطريق الوطنية ١٤، دون أن تقفز إلى الذهن تلك الكلمات التي تفوه بها مسافر في الماضي عند عبورنا، على متن السيارة، لهذه النقطة بالذات، تمامًا مثل الماء الذي ينبثق كلما وضعنا القدم على عيون النافورة المدفونة بالقصر الصيفي لـ«بطرس الأكبر».

أمثلة قواعد اللغة، الاستشهادات، الشتائم، الأغاني، الجمل المدونة في الدفاتر إبان المراهقة:

«كان القس «تروبلي» يراكم.. يراكم.. يراكم»[1]

«بلوغ المجد يعني، بالنسبة إلى المرأة، الحداد على السعادة»

«ذاكرتنا توجد خارجَنا.. في نسمة ممطرة من نسمات الزمن»[2]

«أقصى أماني الراهبة أن تعيش عذراءَ وتموت قديسةً»

«المستكشف يجمع لَقَاياه في الصناديق»

«كانت تعويذةً لجلب الحظ.. خنزيرٌ صغير له قلب
بمائة من القروش في السوق اشترتْها
زهيدًا كان، في الحقيقة، ثمنها»
«قصتي، قصة حب»

(كل ذلك اللعب بالكلمات ـ سمعناها آلاف المرات، وفقدت كل إثارتها أو سخريتها منذ زمن طويل، وتغيظ من فرط ابتذالها ـ التي لم

---

(١) هذا بيت للكاتب الفرنسي «فولتير» يهجو فيه القس «تروبلي».. ويقول إنه يكتفي بمراكمة ما يقوله الآخرون.

(٢) مقولة مقتبسة من «البحث عن الزمان المفقود» لـ«مارسيل بروست».

تعد تصلح سوى لتأكيد ذلك التواطؤ الذي كان بين الزوجين قبل انفراط عقد الزواج؛ ولكنها تعود أحيانًا لتطفو على الشفاه غريبةً، في غير محلها.. هي كل ما تَبَقَّى من ذلك الزواج بعد سنوات من الانفصال).

الكلمات التي نستغرب أنها كانت موجودة في الماضي: mastoc (في رسالة فلوبير إلى لويز كولي)، pioncer (جورج ساند إلى فلوبير نفسه)[1]

اللاتينية، الإنجليزية، الروسية التي تعلَّمَتْها في ظرف ستة أشهر من أجل رجل سوفياتي، ولم يتبق لها منها سوى: «دا سْفِيدانْيا».. «يَا تِيبْيا لْيُوبْليو خاراشو»[2]

الاستعارات البالية جدًا حتى أن المرء يستغرب أن الآخرين ما زالوا يستعملونها: «الكرزة على الكعكة»

«أه يا أمي.. يا من وُرِيت الثرى خارج الحديقة البكر»[3]

كلمات الرجال التي لا نحب: الرعشة.. الاستمناء

تلك الكلمات التي تعلمنا في أيام الدراسة والتي كانت تعطينا

---

(١) «MASTOC»: ضخم ـ «PIONCER»: فعل يعني «نام».

(٢) «داسفيدانيا»: إلى اللقاء ـ «يا تيبيا ليوبليو»: أحبك.

(٣) البيت الأول من قصيدة «حواء» الشهيرة للشاعر الفرنسي «شارل بيغي» (CHARLES PEGUY).

الإحساس بالانتصار على تعقيدات العالم. ولكنها، فور انتهاء الامتحان، تتبخر من الذهن بأسرع مما نفذت إليه.

تلك الجمل المتكررة، المزعجة، للأجداد والآباء، والتي تصير أكثر حياة من وجوههم بعد الوفاة: «لا تَهْتَمِّي بقُبَّعَةِ الصغيرة!»

تلك المنتوجات القديمة، القصيرة العمر، التي كانت ذكراها تبهج أكثر من الماركات المعروفة ـ شامبو DULSOL، شكلاطة CARDON، قهوة NADI ـ تمامًا مثل ذكرى حميمية يستحيل تقاسمها مع الآخرين.

«عبور اللقالق»

«ماريان»[1]

«مدام صولاي ما زالت بيننا»[2]

«العالم ينقصه الإيمان بحقيقة سامية»

كل شيء سينمحي في ثانية. ذلك المعجم الذي تم جمعه، من المهد إلى آخر سرير، سوف يندثر. سيحل الصمت ولن تكون هناك ولو كلمة للتعبير عنه. لن يخرج أي شيء من هذا الفم الفاغر. لا ضمير «أنا» ولا

---

(١) «عبور اللقالق» فيلم سوفياتي من إخراج «ميخايل كلاتوزوف» عام ١٩٥٧.
«ماريان» فيلم فرنسي من إخراج «جوليان دوفيفيه» عام ١٩٥٥.

(٢) «مدام صولاي».. عرافة فرنسية كانت مشهورة في القرن العشرين.

«الأنا». ستواصل اللغة سبك العالم في الكلمات. ولن نصير سوى اسمٍ شخصيٍ في المحادثات الجارية حول موائد الحفلات.. اسم تتبدد ملامحَ صاحبه أكثر فأكثر إلى حد التلاشي كليا في الكتلة المبهمة لَجيل بعيد.

إنها صورة داكنة، بيضوية الشكل، مثبتةٌ داخل كتيب مزين بإطار مذهب، محميةٌ بورقة مزخرفة وشفافة. في أسفلها:

Photo Moderne, Ridel, Lillebonne (S.Inf.re). Tel. 80.

تظهر عليها رضيعة بدينة، عبوس، بشعر داكن ملفوف فوق الرأس، تجلس نصف عارية على وسادة وسط طاولة مزخرفة. الغمام في عمق الصورة، وزخارف المائدة، والرداء المطرز المرفوع قليلاً عن البطن ـ كانت يد الرضيعة تغطي عضوها ـ وطرف الثوب المنزلق على الذراع الممتلئة.. كل هذا يروم إلى محاكاة ملاك اللوحات التشكيلية. لعل كل فرد من العائلة توصل بنسخة من هذه الصورة، وحاول فورًا تخمين من تشبه الرضيعةُ أكثر. لا يمكن للمرء أن يقرأ في هذه القطعة من الأرشيف العائلي ـ لعلها تعود إلى ١٩٤١ ـ شيئًا أخر غير استعراض طقس الدخول إلى العالم، وفقا لنمط البرجوازية الصغيرة.

في صورة أخرى، تحملُ توقيع المصور ذاته ـ لكن هذه المرة ورق الكتيب كان عاديا غير مزخرف، واختفى الإطار المذهب ـ وعرفت بلا شك التوزيع ذاته على كل أفراد العائلة، تَظْهَرُ طفلةٌ في الرابعة من عمرها، جادة، مع مسحة من الحزن، رغم نضارة المحيا تحت الشعر المفروق في الوسط، والمشدود إلى الخلف بمشدات لها أشرطة مربوطة

على شكل فرشات. اليد اليسرى على المائدة المزخرفة ذاتها من طراز «لويس ١٦» والتي تظهر كاملة. تبدو على الصورة ملفوفةً في لباس ضيق، ترتدي معه تنورة تعلو بطنا بارزة بشكل لافت.. لعلها علامة على الإصابة بداء الكساح (حوالي ١٩٤٤).

صورتان صغيرتان أخريان بحواف مسننة، تعود على الأرجح إلى العام ذاته، تظهر فيها الطفلة نفسها، أقل بدانة، في فستان مكشكش بأكمام منتفخة. في الأولى تحتضن بشكل مرح سيدة بجسد ضخم في فستان بخطوط عريضة، وشعرها مجموع في لفافات كبيرة. في الصورة الثانية، ترفع قبضتها اليسرى، أما اليمنى ففي يد رجل، طويل، يرتدي سترةً بلون فاتح وسروالا بطيات، وتبدو غير مبالية. التُقِطَتِ الصورتان في اليوم ذاته أمام جدار قصير تعلوه الأزهار في باحة مرصوفة. فوق الرؤوس يتدلى حبلٌ للغسيل تُرك عليه مشبك.

في أيام الأعياد بعد الحرب، وفي وقت المآدب البطيء اللانهائي، ينبثق من العدم زمن ولى.. زمن يبدو أن الآباء يحدقون فيه عميقا حين يسهون عن الرد علينا، وعيونهم هائمة في الفراغ.. الزمن الذي لم نكن فيه.. الذي لن نكون فيه أبدًا.. الزمن السابق. كانت الأصوات المتداخلة للضيوف تنسج الحكايةَ العظيمة للأحداث الجماعية التي قد نعتقد أننا حضرناها من فرط ما سمعناها.

لم يكونوا يملون من الحديث عن شتاء ٤٢ القاسي.. الجوع واللفت الأصفر.. التموين وقسائم التبغ.. القصف الكثيف.. الشفق القطبي الذي أنذر بِدُنُو الحرب.. الدراجات الهوائية والعربات على الطرقات إثر الهزيمة.. المحلات المنهوبة.. المنكوبون وهم يتفقدون الأنقاض بحثًا عن

صورهم وأموالهم.. وصول الألمان (كل واحد يحدد بدقة أين، في أي مدينة).. الإنجليز النزهاء دائمًا.. الأمريكان الذين لا يشعرون أبدًا بالحرج.. الخونة.. الجار المنخرط في خلايا المقاومة.. الفتاة المجهولة التي تم حلق رأسها عند التحرير..

مدينة «لوهافر» التي تم دكها، ولم يعد فيها شيء.. السوق السوداء..

البروباغندا..

الألمان الفارون وهم يعبرون نهر «السين» في بلدة «كودبيك» على ظهور جياد منهكة..

القروية التي أطلقت ضراطًا قويًا في مقصورة القطار حيث كان الألمان، وقالت بعلو الصوت «إذ لم نستطع أن نقولها لهم، فسنجعلهم يشمونها!».

على خلفية مشتركة من الجوع والخوف، كان كل شيء يُحْكى بضمير «نحن» و«هم».

كانوا يتحدثون عن «بيتان»[1] وهم يهزون الأكتاف.. كان طاعنا في السن، وأدركه الخرف لما قاموا باستدعائه في ظل غياب خيار أفضل. كانوا يحاكون طيران وهدير صواريخ «V2» وهي في السماء.. يحاكون الهلع الذي اعتراهم.. ونقاشات اللحظات الأكثر مأساوية.. «ما العمل؟».. للحفاظ على التشويق.

كانت حكايةً حبلى بالموتى والعنف.. بالدمار.. ولكنها مروية ببهجة

---

(١) «المريشال فيليب بيتان» (PHILIPPE PETAIN)، عسكري فرنسي من أبطال الحرب العالمية الأولى، وتم استقدامه في أيار/ ماي ١٩٤٠ لقيادة البلاد وهو شيخ طاعن في السن، ووقع وثيقة استسلام فرنسا للألمان في حزيران/ يونيو ١٩٤٠.

يحاولون بين الفينة والأخرى دَحْضَها بـ«لا يجب تكرار هذا» مدوية ومهيبة.. يليها الصمت.. كأنه تحذير لجهة غامضة.. كأنه تعبير عن الندم على نشوة الحكي.

لم يكونوا يتحدثون سوى عما عاشوه.. عما يمكن استحضاره وعيشه مجددًا وهم يأكلون ويشربون. لم يكن لديهم ما يكفي من الموهبة أو الاقتناع للحديث عما يعرفون ولكنهم لم يعيشوه عن قرب. بالتالي، لا حديث عن الأطفال اليهود الذين يصعدون القطارات المتوجهة إلى «أوشفيتز»، ولا عن الموتى الذين يتم جمعهم صباحًا في غيتو «وارسو»، ولا عن حرارة الـ١٠ آلاف درجة في «هيروشيما». ومن هنا ينبع هذا الانطباع الذي تشكل لديها والذي لن تبدده، فيما بعد، دروس التاريخ ولا الوثائقيات والأفلام: لا أفران الحرق، ولا القنبلة الذرية كانت في الحقبة نفسها التي شهدت تداول الزبدة في السوق السوداء، والإنذارات، واللجوء إلى القبو.

كانوا يُعَرِّجون، من باب المقارنة، على الحرب السابقة، الحرب الكبيرة، حرب ١٤، التي تحقق فيها النصر في خضم المجد والدم.. كانت حرب الرجال التي تنصت إليها نساء المائدة برهبة. كانوا يتحدثون عن معركة «شُومُانْ دِي دَامْ» ومعركة «فِيرْدَانْ».. عن الذين قُصِفوا بالغازات.. عن أجراس ١١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٨. يعددون تلك القرى التي لم يعد أي من أبنائها من الجبهة. يقارنون بين الجنود العالقين في وحل الخنادق بأسرى عام ١٩٤٠ الذين كانوا في مأوى دافئ طيلة خمس سنوات، الذين لم تمطر القنابل فوق رؤوسهم. كانوا يتنازعون البطولة والمأساة.

يتوغلون في أزمنة لم يكونوا هم أنفسهم قد جاؤوا فيها إلى الحياة.. حرب القرم.. حرب ١٨٧٠.. الباريسيون الذين اضطروا لأكل الجرذان.

لم تكن في الزمن الماضي الذي يحكون عنه سوى الحروب والجوع.

على سبيل الخاتمة، يغنون «يا للنبيذ الأبيض» و«زهرة باريس» مع الصراخ عند ترديد اللازمة: «الأزرق والأبيض والأحمر هي ألوان الوطن».. يرددونها في كورال يصم الآذان. كانوا يمدون الأذرع ويضحكون.. هذا واحد آخر لن ينال منه الألمان أبدًا.

لم يكن الأطفال يصغون، وكانوا يسرعون إلى مغادرة المائدة فور الإذن لهم بذلك، ويستغلون التساهل العام الذي يسود في الأعياد لممارسة الألعاب المحظورة. التقافز على الأَسِرَّة، ولعب الأرجوحة رأسًا على عقب. ولكنهم كانوا يلتقطون كل ما يقال. أمام ذاك الزمن الرائع ـ الذي لن يتمكنوا من ترتيب حلقاته سوى بعد وقت طويل: الهزيمة، النزوح، الاحتلال، الإنزال، النصر ـ كانوا يجدون هذا الذي يكبرون فيه والذي لا اسم له، باهتا. كانوا يتحسرون على أنهم لم يكونوا قد وُلِدُوا (أو بالكاد وُلِدُوا) إبان النزوح في أفواج كبيرة على الطرقات والنوم على التبن مثل البوهيميين. سيصاحبهم ندمٌ عنيدٌ على ذلك الزمن الذي لم يعيشوا فيه. كانت ذاكرةُ الآخرين تمدُّهم بحنينٍ سري إلى تلك الحقبة التي فاتتهم، وبأملِ عيشها يومًا ما.

لم يتبقَّ من تلك الملحمة الوهاجة سوى بعض الآثار الرمادية الكئيبة والصامتة.. سوى بعض الحصون على حافة المنحدرات.. سوى ركام

الأحجار على مرمى البصر بالمدن. كانت الأشياءُ التي يعلوها الصدأ وهياكلُ الأسرة المعوجة تنبثق من بين الأكوام.. والتجار المَنْكُبُون ينصبون أكواخا مؤقتة على حافة الأنقاض. كانت القذائف التي نسيتها عملية إزالة الألغام تنفجر في بطون الأولاد الصغار الذين يلعبون بها. كانت الجرائد تحذر: لا تقربوا الذخيرة! كان الأطباء يزيلون اللوزين من حناجر الأطفال الهَشِّين الذين يستيقظون من التخدير بسائل الـ«أثير» وهم يصرخون، ويُرْغَمُون على شرب الحليب المَغْلِي. على ملصقات شاحبة يظهر الجنرال ديغول، وهو ينظر إلى البعيد من تحت قبعته العسكرية ـ الـ«كيبي» ـ المميزة. بعد ظهر يوم الأحد كان الناس يلعبون لعبة «الخيول الصغيرة» ولعبة الورق «مستغري».

أخذ الغليان الذي تلا التحرير في التلاشي. ولم يعد الناس يفكرون سوى في الخروج. كان العالم يعج بالرغبات التي تصر على إشباعها فورًا وفي الحال. كان كل ما يظهر لأول مرة منذ الحرب يثير تهافت الناس: الموز، أوراق اليانصيب الوطني، مشاهدة الشهب الاصطناعية. كان سكان أحياء بكاملها ـ من الجدة التي تسندُها بناتُها، إلى الرضيع في عربته ـ يحجون إلى المعرض التسوقي.. إلى موكب المشاعل.. إلى سيرك «بوغليون» حيث ينجون بالكاد من التعرض للدهس. كانوا يتحولون إلى حشود متضرعة ومنشدة على الطريق لاستقبال تمثال القديسة «نُوتْرْ دَام دُو بُولُونْ»، ومُرَافَقَتِه في اليوم الموالي لعدة كيلومترات. دنيويةً كانت، أو دينية، صارت كل المناسبات سانحة للخروج سويا، كأنهم يسعون إلى مواصلة العيش معا. مساء الأحد، كانت الحافلات تعود من الشاطئ محملة بشباب طوال يرتدون السراويل القصيرة، ويغنون بصوت عال، وهم على السطح المخصص للأمتعة. كانت الكلاب تتجول بكل حرية، وتتزاوج وسط الشارع.

هذا الزمن نفسه أخذ يتحول إلى ذكرى أيام ذهبية يفتقدها الناس عند

سماعهم في الراديو لأغنية: «أتذكر تلك الآحاد الجميلة جيدًا... ولكن كل هذا صار الآن بعيدًا جدًا..». وحتى الأطفال يساورهم الندم هذه المرة لأنهم عبروا وهم صغار جدًا حقبة التحرير دون عيشها حقا.

رغم كل شيء، كنا نكبر بهدوء، «سعداء لوجودنا في هذا العالم، ولوضوح الرؤية»، في خضم التعليمات بعدم الاقتراب من الأشياء المريبة، والاستياء الدائم من تقنين الحصول على المواد الغذائية.. من قسائم الزيت والسكر.. من خبز الذرة العسير الهضم.. من فحم «الكوك» الذي لا يسعف كثيرًا في التدفئة.. هل ستكون الشكولاتة والمربى متوفرة في أعياد الميلاد؟

كنا قد شرعنا في الذهاب إلى المدرسة حاملين لوحة وقلم، ونسلك تلك الفضاءات التي تم تنظيفها من الأنقاض وتسويتها في انتظار إعادة البناء. كنا نلعب لعبة المنديل أو لعبة «الخاتم الذهبي»، أو لعبة الدائرة ونحن نغني «غيُومْ.. هل أفطرتَ جيدًا؟».. أو لعبة كرة الجدار على إيقاعات «أيتها الغجرية الصغيرة التي تسافر إلى كل مكان».. كنا نعبر ساحة الاستراحة وأذرعنا متشابكة ونحن نصرخ: من يلعب لعبة الغميضة. كنا نصاب بالجرب، ويغزونا القمل فنخنقه بفوطة مبللة بشامبو «MARIE ROSE». كنا نصعد إلى شاحنة جهاز الراديو لإجراء فحص داء السل، محتفظات بمعاطفنا ووشاح على الأنف. كنا نخضع للفحص الطبي الأول وضحكات الخجل تغلبنا لأننا لا نرتدي سوى لباسنا الداخلي في صالة لا تدفئها تلك الشعلة الزرقاء التي تتراقص في صحنٍ به كحول الحريق، موضوع على طاولة قرب الممرضة. بعد فترة قصيرة سنقوم، ونحن في لباس أبيض ناصع، باستعراض في شوارع المدينة تحت التصفيقات بمناسبة أول عيد للشباب، وسنذهب إلى غاية «حلبة

السباق» حيث سنؤدي، ونحن بين السماء والعشب المبلل، الحركات الجماعية على إيقاع الموسيقى الصاخبة المنبعثة من مكبرات الصوت، في خضم إحساس بالعظمة والعزلة.

كانت الخطب تقول إننا نجسد المستقبل.

في خضم ضوضاء مآدب الأعياد، وقبل أن تنفجر الشجارات والخصومات العميقة، كانت تصلنا، بشكل متقطع في ثنايا سردية الحرب، نتف من السردية الكبيرة الأخرى.. سردية الأصول.

فجأة ينبثق رجال ونساء، أحيانًا بدون أي صفة أخرى عدا صفة القرابة ـ والد، جد، جدة كبرى ـ يجري اختزالهم في سمة من سماتهم.. في حكاية هزلية أو مأساوية.. في الإنفلونزا الإسبانية.. الانسداد الرئوي.. أو ركلة الحصان التي أودت بحياتهم.. ينبثق أطفال رحلوا قبل أن يبلغوا عمرنا.. حشد من الوجوه التي لن نخالطها أبدًا.

وتتشكل خيوط قرابة كان يصعب تحديدها لسنوات، إلى أن يتحقق النجاح أخيرًا في تحديد «الجانبين»، بشكل سليم، والتميز بين أولئك الذين لنا معهم قرابة دم والآخرين الذين لا صلة لنا بهم.

إنها سردية عائلية واجتماعية في الآن ذاته. كانت أصوات الضيوف تحدد فضاءات الشباب: البادية والضيعات حيث كان الرجال، منذ الأبد، عمالا والنساء خادمات.. المصنع حيث التقوا جميعا واختلطوا وتزوجوا.. المتاجر الصغيرة التي يبلغها الأكثر طموحا.

كانت تلك الأصوات تنسج حكايات بلا أحداث شخصية عدا الولادات والزيجات وفترات الحداد، بلا أسفار عدا الالتحاق بفوج التجنيد في الثكنة بمدينة بعيدة.. تنسج حيوات منشغلة بالعمل، قسوته وإنهاكه، بمخاطر الشرب. أما المدرسة فكانت تجسد تلك الخلفية

الأسطورية.. مجرد عصر ذهبي قصير جدًا كان فيه المعلم هو الإله الفظ بمسطرته الحديد التي ينزل بها على الأصابع.

كانت تلك الأصوات تنقل إلينا إرثًا من الفقر والحرمان سابقٍ للحرب وقيودها، وتغوص عميقا في ليل سحيق.. «في ذلك الزمن».. وتسرد مباهجَه وآلامه.. عاداتِه ومعارفَه:

العيش في منزل من الطين

ارتداء حذا «الغالوش»

اللعب بدمية مصنوعة من الخرق

تنظيف الغسيل برماد الخشب

تعليق كيس صغير من الثوب به فصوص الثوم بأقمصة الأطفال قرب الصرة، لطرد الديدان

طاعة الوالدين، تلقي الصفعات.. «لو تجرأ على الرد لنال ما يستحق».

كانت تلك الأصوات تحصي كل ما كان مجهولا وغير معروف في الماضي:

أكل اللحوم الحمراء والبرتقال

التوفر على الضمان الاجتماعي، والإعانات العائلية والتقاعد في الخامسة والستين

قضاء العطلة

كانت تذكر بمصادر الفخر والاعتزاز:

إضرابات ١٩٣٦، «الجبهة الشعبية»[١].. «قبلها، لم يكن للعامل أي قيمة».

أما نحن، الصغار، بعد أن عدنا إلى الجلوس من أجل تناول التحلية، كنا نبقى في أماكننا لنستمع إلى القصص الساخنة التي لم يعد يخفيها الجَمْعُ في خضم التراخي الذي يميز نهايات المآدب، ناسين وجود الآذان الصغيرة.. إلى أغاني شباب الآباء التي تتحدث عن باريس، عن الفتيات اللواتي سقطن في الجدول، عن الفتيات الرخيصات الخفيفات، عن متسكعي الضواحي: «صاحب الشعر الأحمر»، «سنونو الضاحية».. إلى الأغاني الرومانسية المفعمة بالعواطف التي كانت المغنية تؤديها، مغمضة العينين، بكل خلايا جسدها، ما يجعل الدموع تتسلل إلى طرف العين فيتم مسحها بطرف المنديل. بدورنا، كان لدينا الحق في تلطيف أجواء الحاضرين بأغنية «نجمة الثلوج».

من يد إلى يد، كانت تنتقل صور بنية اللون، ظهرها ملطخ بآثار كل الأصابع التي تناولتها في مآدب سابقة.. خليط مبهم اللون من آثار القهوة والدهون. من بين العروسين الجامدين الجادين والمدعوين إلى حفل الزفاف المصطفِّين في عدة صفوف بمحاذاة أحد الجدران، لا يمكن التعرف على الوالدين ولا على أي أحد البتة. ولم نكن نتعرف على أنفسنا في ذلك الرضيع المبهم الجنس، والعاري تقريبا الموضوع على وسادة، بل نرى فيه شخصًا آخر.. مخلوقًا آخر ينتمي إلى زمن صامت وبعيد المنال.

---

(١) «الجبهة الشعبية» تحالف يساري فرنسي فاز في انتخابات أيلول/ ماي ١٩٣٦ وقاد الحكومة إلى غاية ١٩٣٨، واشتهرت «الجبهة الشعبية» بإرسائها لإصلاحات اجتماعية تاريخية منها «العطلة السنوية» وتحديد ساعات العمل الأسبوعية في ٤٠ ساعة...

غداة نهاية الحرب، وفي خضم مآدب الأعياد التي لا تنتهي وسط القهقهات والهتافات ـ «أمامنا ما يكفي من الوقت للموت، تبا» ـ كانت ذاكرة الآخرين تضعنا في سياق العالم.

بعيدا عن الحكايات، كانت طريقة المشي، والجلوس، والحديث والضحك، والمناداة على الناس في الشارع، والحركات المرتبطة بالأكل، والإمساك بالأشياء، تنقل ذاكرة الماضي، التي عبرت من جسد إلى جسد، انطلاقا من عمق أعماق البادية الفرنسية والأوروبية. إنه إرث غير ملموس في الصور.. إرث يوحد ـ بغض النظر عن الاختلافات الفردية، وصلاح البعض وسوء البعض الآخر ـ أفرادَ العائلة، وسكانَ الحي، وكلَّ الذين يقال عنهم إنهم من طينتنا. إنه ريبرتوارٌ للعادات، مجموعةٌ من التصرفات التي شحذتها طفولةٌ نشأت في الحقول، ومراهقةٌ خَبِرَتْ الورشات، سبقتها طفولاتٌ أخرى، وهلم جرّا إلى حد النسيان:

ـ الأكل بصخب مع السماح بمشاهدة التحول التدريجي للأطعمة داخل الفم المفتوح.. مسح الشفتين بقطعة الخبز.. مسح الطبق بعناية ولدرجة يمكن معها حفظه دون الحاجة إلى غسله.. ضرب قاع الصحن بالملعقة.. التمطط عند نهاية العشاء.. الاكتفاء بغسل الوجه يوميا، أما باقي الجسد فحسب درجة اتساخه: اليدان والذراعان بعد الانتهاء من العمل، أقدام ورُكب الأطفال في ليالي الصيف. أما الاغتسال الكبير فأمره مَتْرُوك للحفلات والأعياد.

ـ مَسْكُ الأشياء بقوة.. صفق الأبواب..

ـ إنجازُ كل شيءٍ بفظاظة، سواء تعلق الأمر بالإمساك بالأرنب من أذنيه، أو إعطاء قبلة حنونة، أو أخذ طفل في الحضن.. وفي الأيام التي يشتد فيها الخلاف، الإفراط في الدخول والخروج، وتحريك الكراسي..

ـ المشي بخطوات واسعة مع تحريك الذراعين.. الارتماء على المقاعد عند الجلوس، مع وضع قبضة اليد في المِرْيَلَة بالنسبة للعجائز.. الوقوف مع السحب السريع للتنورة من بين الردفين.

ـ بالنسبة للرجال، الاستعمال الدائم للأكتاف، من أجل حمل المعزق، والألواح وأكياس البطاطس، والأطفالِ المتعبين عند العودة من المعرض.

ـ بالنسبة إلى النساء، استعمال الركب والأفخاذ لتثبيت طحانة القهوة، والقارورةِ لفتحها، والدجاجةِ التي ستُذْبَحُ ويسيل دمُها في الوعاء..

ـ الحديث بصوت مرتفع وبنبرة غاضبة في كل الحالات، كأنه من اللازم الاحتجاج على هذا العالم منذ الأزل.

كانت اللغةُ الفرنسيةُ المُعْوَجَّةُ، المختلطةُ باللهجةِ المحليةِ، مرتبطةً ارتباطًا وثيقًا بالأصوات المرتفعة والفظة.. بالأجساد المحشورة في البلوزات وفي وِزْرَات العمل الزرقاء.. بالبيوت الواطئة ذات الحدائق الصغيرة.. بنباح الكلاب بعد الزوال.. وبالصمت الذي يسبق الخصومات، تمامًا كما كانت قواعد اللغة الفرنسية السليمة مرتبطة بالنبرات المحايدة واليدين البيضاوين للمعلمة بالمدرسة.

إنها لغةٌ لا إطراء فيها ولا مجاملات، تتسع للمطر الحاد، وشواطئ الحصى الرمادية أسفل الأجراف الشديدة الانحدار.. لسطل قضاء الحاجة الذي يتم تفريغه على الروث.. لنبيذ الأعمال الشاقة..

كما كانت تنقل إلى إلينا المعتقدات والتعاليم:

ـ الانتباه إلى مسار القمر الذي ينظم ويحدد فترة الولادة.. فترة ظهور براعم الكُرَّاث.. وفترة القيام بمهمة التخلص من ديدان الأطفال.

ـ تجنب خرق دورة الفصول عند التخلي عن المعطف أو الجوارب.. عند إحضار أنثى الأرنب إلى الذكر.. عند زراعة السَّلَطَة، انطلاقا من مبدأ

أن لكل شيء زمنه الخاص.. فاصل زمني ثمين وصعب التحديد ـ بين «المبكر جدًا» و«المتأخر جدًا» ـ تتجلى فيه إرادة الطبيعة.. «القطط والأطفال المولودون في الشتاء يكبرون بوتيرة أقل من الآخرين»، و«شمس آذار/مارس تسبب الجنون».

ـ وضع قطع البطاطس النيئة على الحروق، أو الاستعانة بجارة تتقن جيدا التعويذة السحرية لـ«وقف ألم الحريق».. علاج الجروح بالبول..

ـ التعامل بإجلال مع الخبز.. على حبة القمح ثمة وجه الرب.

وكأي لغة، كانت تصنف.. تصم الكسلى، والنساء المستهترات، و«الفُجَّار»، والأشرار.. تُثْنِي على «المتحملين لمسؤوليتهم»، والفتيات الجادات.. تحفظ مكانة الشخصيات المهمة.. تلك «الخُضَار الكبيرة».. تؤنب: «سوف تعلمك الحياة»!

كانت تفصح عن الرغبات والآمال المعقولة: الحصول على عمل لائق، بعيد عن تقلبات أجواء الحياة، والأكل حد الشبع، والموت في سرير البيت.

كانت ترسم الحدود: لا يجب على المرء طلب القمر، وكل ما يتجاوز حدود المعقول.. السعادة بما لدينا.. التوجس من الرحلات والمجهول، فَحين لا يغادر المرءُ دياره أبدًا، تصير أيُّ مدينة أخرى هي أقصى نقطة في العالم.

كانت تبوح بالكبرياء والألم: «كوننا من البادية لا يعني أننا أكثر غباء من الآخرين».

ولكن، وعلى عكس آبائنا، لم نكن نغيب عن المدرسة لزرع بذور الكولزا، وجني حبوب الصنوبر، وجمع الحطب. فقد عوض الزمن المدرسي دورة الفصول، وكانت السنوات التي أمامنا عبارةً عن أقسام، واحدٍ بعد الآخر.. عبارةً عن فترات زمنية تُفتتح في تشرين أول/أكتوبر وتُختتم في تموز/يوليو. في الدخول المدرسي كنا نغلف بالورق الأزرق الكتبَ المدرسيةَ القديمةَ التي تركها لنا تلاميذ العام السابق.

ونحن ننظر إلى أسمائهم التي لم تَمَّحِ جيدا من صفحة الغلاف، والكلمات التي وضعوا تحتها خطا، كان يغمرنا إحساس بأننا نتسلم منهم المهمة، ونتلقى التشجيع من طرفهم، هم الذين أفلحوا في تعلم كل هذه الأشياء في ظرف عام واحد. كنا نحفظ أشعار «موريس رولينا»، و«جون رشيبان»، و«إيميل فيرهارين»، و«ريزموند جيرار»، ونردد أناشيد: «شجرة عيد الميلاد ملكة الغابة».. «صباح الأحد»..

كنا نجتهد لكي لا نرتكب الأخطاء في حصص الإملاء الخاصة بنصوص «موريس جنيفوا» و«لا فاروند»، و«إيميل موزلي»، و«إيرنست بيروشون». وكنا نستظهر قواعد الفرنسية السليمة.

وفور عدوتنا إلى البيت، نستعيد بتلقائية لغتَنَا الأصلية التي لم تكن ترغمنا على التفكير في الكلمات.. في الأشياء التي يمكن قولها والتي لا يكمن الجهر بها.. تلك اللغة الملتصقة بالجسد، بالصفعات، برائحة جافيل في الوِزْرَات، بالبطاطس المطهوة طيلة الشتاء، بصوت البول في السطل، وبشخير الوالدين.

لم يكن موت الناس يُؤَثِّرُ فينا البتة.

صورة بالأبيض والأسود لفتاة صغيرة بلباس البحر غامق اللون، على شاطئ من الحصى. في عمق الصورة تظهر الأجراف. تجلس على صخرة مسطحة، وساقاها المتينتان ممدودتان أمامها. تتكئ على ذراعيها، مغمضة العينين ورأسها مائل قليلاً مع ابتسامة. ضفيرة سوداء كثيفة على الصدر بينما تركتِ الأخرى على ظهرها. كل شيء يكشف الرغبةَ في الظهور مثل نجمات مجلة «CINEMONDE»، أو إعلان الكْريم الواقي «AMBRE SOLAIRE».. الرغبةَ في الانعتاق من جسد الفتاة الصغيرة المُخجل وعديم الأهمية. تظهر على الفخذين ـ وكانا أكثر بيضا إسوة بأعلى الذراعين ـ حدود طول الفستان، ما يوحي بالطابع الاستثنائي الذي تكتسيه رحلةٌ أو خرجةٌ إلى البحر بالنسبة لهذه الطفلة. كان الشاطئ خاليا. على ظهر الصورة: آب/أغسطس ١٩٤٩، «سُوطْفِيلْ ـ سُورْ ـ مِيرْ».

كانت على مشارف التاسعة من عمرها. وكانت في عطلة رفقة أبيها عند قريبين من العائلة، وهما حرفيان متخصصان في صناعة الحبال. أمها ظلت في «إيفتو» للإشراف على المقهى ـ البقالة المفتوحة على الدوام. وهي التي تضفر لها، عادة، شعرها في ضفيرتين مشدودتين، وتُثَبِّتُهما على شكل تاج فوق رأسها، بمشابيك وأشرطة. فإما أن والدَها وقريبتَها لا يتقنان ربط ضفيرتيها بهذا الشكل، وإما أنها اغتنمت فرصةَ غياب أمها وتركتهما تتماوجان في الهواء.

من الصعب الجزم بما تفكر فيه أو تحلم به، ولا كيف تنظر إلى السنوات التي تفصلها عن زمن التحرير، ولا ماذا تتذكر بدون جهد.

ربما لم يتبق لها، ومنذ تلك الفترة، غير هذه الصور التي ستقاوم تلاشي الذكريات:

- الوصول إلى مدينة من الأنقاض، والكلبة المتأهبة للتزاوج التي تبتعد هاربة

- أول يوم بالمدرسة عند استئناف الدراسة بعد عطلة الفصح، ولم تكن تعرف أي أحد

- الرحلة الكبيرة لعائلة الأم إلى بلدة «فيكامب»، على متن قطار له مقاعد من الخشب، مع ذكرى الجدة وهي تضع قبعة من قش الأرز الأسود، وأبناء الأخوال يخلعون ملابسهم على الحصى، بمؤخراتهم العارية.

- حاملُ الإبر الذي له شكل قبقاب، والمصنوع من قطعة قماش، كهدية أعياد الميلاد

- فيلم «يا له من ذكاء» لـ«بورفيل»

- الألعاب السرية.. قَرْصُ شحمة الأذن بحلقات الستائر المسننة.

لعلها كانت تعتبر الزمن الذي قضته في المدرسة امتدادا شاسعا: تلك الفصول الثلاثة التي مرت منها.. طريقة تصفيف الطاولات ومكتب المعلمة.. مكان السبورة، وقرينات المدرسة:

- فرانسواز. س التي تغبطها على قدرتها على تقمص دور المهرجة بقبعتها ذات شكل رأس القط.. التي طلبتْ منها في فترة الاستراحة منديلَها، فتمخَّطت فيه وجمعته وأعادته لها قبل أن تبتعد راكضة..

شعورُها بالقذارة والعار وهي تحمل في جيب معطفها ذلك المنديل القذر طيلة فترة الاستراحة.

- إيفلين. ج التي دَسَّت يدها في تُبانها تحت القِمَطر ولمست تلك الكويرة اللزجة.

- ف. التي لم يكن أحد يكلمها، لأنها كانت في المركز الصحي لمرضى السل، والتي كانت ترتدي في حصة الفحص الطبي تبانا للذكور أزرق اللون، ملطخا بالخراء، وكانت كل الفتيات يتابعنها ضاحكات.

- الأصياف الماضية، التي صارت بعيدة.. ذاك الصيف القائظ، وخزانات الماء والآبار الجافة.. طابور أهل الحي أمام الساقية العمومية وهم يحملون أباريق.. «روبيتش» يفوز بطواف فرنسا.. صيف آخر، ماطر هذه المرة، وهي تجمع بلح البحر رفقة أمها وخالتها على شاطئ «فُولْ- لِي- رُوزْ».. تطل معهما من الجرف على حفرة هناك في الأسفل لرؤية جندي ميت تم نبش قبره رفقة أموات آخرين، لنقل رفاتهم جميعا إلى مكان آخر.

هذا إِلَمْ تُفضل، كما هي عادتها، التراكيبَ الخياليةَ العديدة التي تنسجها من كتب المكتبة الخضراء أو قصص مجلة «LA SEMAINE DE SUZETTE»، والحُلُمَ بمستقبلها كما تستشعره وهي تنصت إلى الأغاني العاطفية على الراديو.

لا شك، لم يكن في بالها كل تلك الأحداث السياسية والحوادث.. كل ما سيعتبر فيما بعد جزء من مشهد الطفولة.. مجموعة من الأشياء التي عَرَفَتْها فيما بعد والتي ظلت عائمة في الذهن: «فانسون

أوريول»[1]، حرب الهند الصينية، «مارسيل سيردون» بطلا للعالم في الملاكمة، فيلم «بييرو الأحمق»[2]، و«ماري بينار» القاتلة بسُمٍّ بالزرنيخ.

الأمر المؤكد هو رغبتُها في أن تكبر.. وغيابُ هذه الذكرى:

ذكرى أول مرة قيل لها ـ أمام صورة رضيعة بقميص تجلس على وسادة، بين صور أخرى متشابهة بيضاوية الشكل بلون مصفر يميل إلى البني ـ «هذه أنت»، وهي مجبرة على أن ترى نفسها في كتلة اللحم البدينة هذه، التي عاشتْ في زمن غابرٍ حياةً غامضةً.

كانت فرنسا مترامية الأطراف، وتتكون من مجموعات سكانية مختلفة في نوعية أكلها وطرق حديثها.. يجوبها في كل تموز/ يوليو دراجو طواف فرنسا الذي كنا نتابع مراحلَه على خريطة «ميشلان» مُعَلَّقَةٍ على جدار المطبخ.

كانت معظم الحيوات تنساب في المحيط الترابي ذاته الذي لا يتعدى خمسين كيلومترا. ولما يَصدحُ في الكنيسة بنبرة النصر نشيدُ «كوني ملكة.. في ديارنا»، كنا ندرك إن «ديارنا» تشير إلى حيث نقطن، إلى المدينة، وفي أقصى الحالات إلى المحافظة. كان الإحساس بالغرابة يبدأ عند أقرب مدينة كبيرة. أما باقي العالم فلم يكن له وجود حقيقي. كان

---

(١) «فانسان أوريول» (VINCENT AURIOL) رئيس الجمهورية الفرنسية بين ١٩٤٧ و١٩٥٤.

(٢) «بييرو الأحمق» (PIEROT LE FOU) أحد أشهر أفلام المخرج الفرنسي «جون لوك غودار».

الأكثر تعليما، أو الذين يطمحون ليكونوا كذلك، يلتحقون بحصص منظمة «معرفة العالم»، أما الآخرون فيتابعون مختارات «READER'S DIGEST» أو مجلة «CONSTELLATION» بشعارها «العالم بعيون فرنسية». أما البطاقةُ البريدية التي بَعَثَهَا من مدينة «بيزرت» أحدُ الأقارب، الذي كان يؤدي فيها الخدمة العسكرية، فغاصت بنا في دهشة حالمة.

كانت باريس تجسد الجمال والقوة.. كانت كُلا غامضا، مخيفا، أي شارع منها يظهر في جريدةٍ ما أو إعلانٍ ـ شارع باربيس.. شارع غزان.. جون مينور، ١١٦ جادة الشانزليزي ـ يثير الخيال. كان كل من عاشوا فيها، أو زاروها في إطار رحلة، وشاهدوا برج إيفيل يكتسبون هالة من الزهو. في آماسي الصيف، عند نهاية نهارات العطلة المغبرة، كنا نذهب إلى المحطة لمتابعة وصول القطار السريع ومشاهدة كل الذين سافروا إلى مكان آخر وهم ينزلون حاملين الحقائب وأكياس التسوق من متاجر «PRINTEMPS»، والحجاجِ العائدين من «لورد»[١]. كانت الأغاني التي تتحدث عن تلك الأماكن المجهولة ـ الجنوب، جبال البرانس، رقصة «الفاندانغو» ببلاد الباسك، جبال إيطاليا، ميكسيكو ـ تؤجج الرغبة في الرحيل. في غيوم الغروب المتوجة باللون الوردي كنا نرى «مهاراجات» وقصور هندية. كنا نشتكي إلى الآباء: «لا نذهب أبدًا إلى أي مكان!» فيردون باستغراب «إلى أين تريدين الذهاب؟ ألستِ بخير هنا؟».

كل ما يوجد في المنازل تم اقتناؤه قبل الحرب. فالأواني اسْوَدَّتْ

---

(١) «لورد» (LOURDES)، مدينة في أقصى جنوب فرنسا، وهي مزار ديني للمسيحيين.

وفقدت أذرعها، والطاسات ذهب عنها طلاؤها، والأباريق بها ثقوب تم سدها بصفائح صغيرة، والمعاطف تم ترقيعها، وتم قلب ياقات القمصان، وتحولت كسوة الأحد إلى ملابس كل يوم. كان ازدياد طولنا باستمرار يزعج الأمهات المرغمات على إطالةِ الفساتين بقطع إضافية من الثوب، وشراءِ أحذية أكبر مقاسًا تصير ضيقة بعد عام فقط. كان يجب استعمال كل شيء: المقلمة، علبة صباغة «LEFRANC» وعلبة الزبدة «LU». لا شيء يضيع. مخلفات سطل قضاء الحاجة بالليل تصير أسمدة للحديقة، فضلات الجياد التي يتم جمعها بعد مرور حصان بالشارع توجه للعناية بأُصص الزهور، الجرائد تستعمل للف الخُضَار، وتجفيف الأحذية المبللة من الداخل، ومسح المؤخرة في المرحاض.

كنا نعيش الندرة.. في الأشياء، والصور، والترفيه، وفي تفسير الذات والعالم.. هذا التفسير الذي يقتصر على ما في كراس التعاليم الدينية، وعظات الأب «ريكي».. على حكايات برنامج «آخر أخبار الغد»، بصوت «جنفييف تابوي».. على حكايات النساء عن الحياة والجيران وهن متحلقات حول فنجان قهوة بعد الظهر. وكان الأطفال يعتقدون جازمين، ولمدة طويلة، بوجود الـ«بابا نويل»، وبأن الرُّضَّع يُعثَرُ عليهم وسط وردةٍ وفي تلافيف قطعة الكرنب.

كان الناس يتنقلون مشيا أو على الدراجات الهوائية بحركة منتظمة: الرجال بركب منفرجة، مع شد أسفل البنطلون بالمقابط.. النساء بأرداف ملفوفة في التنورة المشدودة التي تتبع شكل الجسد الرشيق وسط هدوء الشوارع. كان الصمت يخيم على كل شيء، والدراجة الهوائية تضبط إيقاع سير الحياة وسرعتها.

كنا نعيش بجوار الخراء. كان يثير ضحكنا.

لدى كل الأسر أطفال موتى.. بسبب أمراض مفاجئة لا علاج لها.. الإسهال.. نوبات الصرع.. الديفتريا. وكان أثر مرورهم العابر على هذه الأرض عبارة عن قبرٍ على شكل مهد بقضبان حديدية عليه عبارة «ملاك في الجنة».. صورٍ يعرضها الأهل وهم يمسحون خفيةً دمعَهم.. أحاديث هامسةٍ، تبث الخوف في نفوس الأطفال الأحياء وهم يظنون أنهم موتى مع وقف التنفيذ. ولن يَنْجُو هؤلاء تمامًا سوى ببلوغ الثانية عشرة أو الخامسة عشرة من العمر، وبعد تجاوز السعال الديكي، والحصبة، وجدري الماء، والحمى النكفية، والتهاب الأذن، والتهاب الشعب الهوائية في كل شتاء، وبعد الإفلات من السل والتهاب السحايا، وبعد أن يقال «لقد اشتد عودهم». أما الآن، وبما أنهم «أطفال الحرب» الشاحبون، المصابون بفقر الدم، وابيضاض الأظافر، فيجب عليهم تجرُّع زيت كبد الحوت، وطارد الديدان «LUNE»، وأخذ حبوب «JESSEL»، والوقوف على ميزان الصيدلية والتدثر بوشاح لتجنب الإصابة بأي نوبة برد مهما كانت خفيفة، واحتساء الشربة والوقوف بظهر مستقيم خوفًا من ارتداء المشد الحديدي. أما الرضع الذين أخذوا يولدون في كل مكان، فكانوا يحصلون على التطعيم، ويخضعون للعناية ومراقبة الوزن كل شهر في إحدى صالات العمادة. كانت الصحف تقول في عناوينها إن خمسين ألفًا منهم مازالوا يفقدون الحياة سنويا.

لم يكن التأخر العقلي المرتبط بالولادة مخيفا. بالمقابل كان الجنون مثيرًا للرعب لأنه يصيب الناس العاديين على حين غرة، وبشكل غامض.

صورة مضببة ومهترئة لفتاة صغيرة واقفة أمام حاجز فوق أحد الجسور. شعرها قصير، فخذاها نحيلان والركبتان بارزتان. بسبب الشمس، وضعت يدها كواق فوق عينيها. كانت تضحك. على ظهر الصورة: «جينيت» ١٩٣٧. على قبرها كتب: توفيت في سن السادسة يوم الخميس المقدس ١٩٣٨. إنها الأخت الكبرى للفتاة الصغيرة التي كانت على شاطئ «سُوتْفيل ـ سُورْ ـ مِيرْ».

كان الفصل بين الذكور والإناث إجراء متبعا في كل مكان.

الذكور كائنات صاخبة، بلا دموع، على استعداد دائم للرشق بشيء ما، حجارة، بذور الكستناء، مفرقعات، كرات الثلج الصلبة. يقرؤون مجلة «TARZAN» و«BIBI FRICOTIN».

الإناث، اللواتي كن يهبنهم، يطلب منهن عدم تقليدهم وتفضيل الألعاب الهادئة: لعبة الدائرة، الحجلة، الخاتم الذهبي. في أيام الخميس شتاء، يلقين الدروس على بعض الأزرار القديمة وعلى صور يتم قصها من صفحات «L'ECHO DE LA MODE»، ووضعها على مائدة المطبخ. كن ـ بتشجيع من الأمهات والمدرسة على حد سواء ـ واشيات، وكانت عبارة «سوف أقولها!» تهديدهن المفضل. ينادين بعضهن بعضا بـ«يا أنتِ!»، ويستمعن إلى الحكايات البذيئة ويرددنها هامسات، واليد على الفم.. يسخرن خلسة من حكاية «ماريا غوريتي» التي فضلت الموت على أن تفعل مع فتى ما يَتُقْنَ لفعله.. يندهشن من تلك الشراسة الكامنة فيهن والتي لا ينتبه إليها الكبار. يحلمن أن تبرز نهودهن وينبت لهن الزغب في المناطق الحساسة، وأن تكون لديهن فوطة صحية ملطخة بالدم في التبان. في انتظار كل هذا، يطالعن أعداد المجلة المصورة

«BECASSINE»، ورواية «زلاجات من الفضة» لـ«ب.ج. ستال»، و «مع العائلة» لـ«هكتور مالو». يذهبن إلى السينما بمعية تلميذات المدرسة لمشاهدة «السيد فانسون»، و«السيرك الكبير»، و «معركة السكة الحديد»، وهي أفلام تذكي الحماس في النفس وتُعلي من شأن الشجاعة، وتبعد الأفكار السيئة والمشينة. ولكنهن كن يدركن جيدا أن الواقع والمستقبل يوجدان في أفلام «مارتين كارول»(١) وفي المجلات التي كانت توحي عناوينها بالخلاعة المرغوبة والمحظورة: «NOUS DEUX»، «CONFIDENCES»، «INTIMITE».

كانت عماراتُ مرحلة إعادة البناء تنبت من الأرض وسط الصرير المتقطع للرافعات. ورُفِعت القيود التي كانت مفروضة إبان الحرب وأخذت المستجدات تصل على فترات متباعدة بما يكفي لاستقبالها بدهشة بهيجة، ومناقشة درجة نفعها وتقييمها أثناء المحادثات. كانت تظهر كما يحدث في الحكايات، مدهشة، غير متوقعة.. متنوعة تهم الجميع: قلم الحبر «BIC»، الشامبو في أكياس صغيرة، أرضيات «GERFLEX»، الفوطة الصحية «TAMPAX»، الكريمات الخاصة بالتخلص من الإفرازات الزائدة، بلاستيك «GILAC»، قماش «TERGAL»، أنابيب النيون، شوكولاتة الحليب بالبندق، دراجة «VELOSOLEX»، ومعجون الأسنان بالكلوروفيل. كان الناس مندهشين لكل الوقت الذي يتم توفيره بفضل أكياس الحساء المعلب، وطنجرة الضغط، وأنبوب صلصة المايونيز. صاروا يفضلون المعلبات على

---

(١) «مارتين كارول» (MARTINE CAROL) ممثلة فرنسية كانت نجمة السينما الأولى بفرنسا في الخمسينيات.

المنتوجات الطازجة، معتبرين أن تقديم إجاصات بالشراب الحلو بدل أخرى طازجة، والبازلاء المعلبة بدل تلك المزروعة بالحديقة، أكثر أناقة ورُقِيًا. وصارت الأطعمة «سريعة الهضم» والفيتامينات والحفاظ على الرشاقة أمورًا تكتسي أهمية متزايدة. كانوا ينبهرون أمام كل تلك الاختراعات التي تمحي قرونا من الحركات والجهد العضلي، وتدشن عهدا لن نحتاج فيه لبذل أي مجهود، كما يقولون. كانوا ينتقصون من شأنها أيضًا: الغسالة متهمة بإنهاك الغسيل، التلفزيون متهم بالإضرار بالعيون، وجعل الناس ينامون في ساعات غير معقولة. كانوا يراقبون الجيران ويغبطونهم على امتلاكهم لعلامات التقدم هذه، التي تشير إلى نوع من التفوق الاجتماعي. في المدينة، كان الفتيان يستعرضون دراجاتهم الـ«VESPA»، ويرفرفون حول الفتيات.. ينتصبون بفخر على مقاعدهم، ويأخذ الواحد منهم معه فتاة بوشاحها المربوط تحت الذقن، فتحضنه من الخلف خوفًا من السقوط. كنا نود لو كبرنا ثلاث سنوات دفعة واحدة حين نراهم وهم يبتعدون، عند ناصية الشارع، وسط فرقعات محركات دراجاتهم.

كانت الإعلانات تمطرنا بالحديث عن مزايا السلع بحماس لا يقاوم:

أثاث «LEVITAN»، الضمان والدوام!.. «CHANTELLE»، المشد الذي لا يقهر!.. «LESIEUR»، زيت الزيوت!

كان يحلو لها أن تردد هذه الإعلانات بمرح: «دوب.. دوب.. دوب.. استخدموا الشامبو DOP».. «COLGATE.. COLGATE.. هو صحة أسنانهم».. ثم، وهي تحلم، «السعادة تغمر البيت لما تكون 'ELLE' هنا».. كانت تدندن بها مقلدة صوت «لويس مارينو»: «ذات الذوق الرفيع.. حمال 'LOU' لصدرها رافع».

بينما ننجز التمارين المدرسية على مائدة المطبخ، كانت إعلانات راديو «لوكسمبورغ»، تحمل إلينا، إسوة بالأغاني، اليقين في المستقبل السعيد. وكنا نشعر بأننا محاطون بتلك الأشياء الغائبة التي سيكون لدينا الحق في اقتنائها فيما بعد. في انتظار أن نكبر بما يكفي لنضع أحمر الشفاه «BAISER» وعطر «BOURJOIS» («المكتوب بحروف الفرح»)، كنا نجمع الحيوانات البلاستيكية المحشوة في علب القهوة، وصور حكايات «لافونتين» المخبأة في ورق تعليب شوكولاتة «MENIER»، والتي كنا نتبادلها بيننا في الاستراحة.

كان لدى الناس متسع من الوقت لاشتهاء الأشياء: الحقيبة البلاستيكية، الأحذية ذات النعال المطاطية، الساعة الذهبية. لم يكن امتلاكها مبعث ندم أبدًا. كانوا يتباهون بها أمام إعجاب الآخرين. كان لهذه الأشياء غموض وسحر لا ينضبان وهم يتأملونها ويتناولونها بين أيديهم.. يقلبونها ويعيدون تقليبها.. فهم يتوقعون منها شيئًا ما حتى بعد اقتنائها.

كان التقدم هو الأفق الذي يتطلع إليه الناس. ويعني العيش الرغيد، وصحة الأطفال، والمنازل المتوهجة والشوارع المضاءة، والعلم.. أي كل ما يدير الظهر لأشياء البادية الكئيبة وللحرب. كان هذا التقدم يتجلى في البلاستيك و«الفورميكا».. في المضادات الحيوية وتعويضات الضمان الاجتماعي.. في الماء الجاري بالحوض وشبكة الصرف الصحي.. في المخيمات الصيفية.. في مواصلة الدراسة.. وفي الذَّرَّة. كان الناس يتنافسون في قول «يجب على المرء أن يكون ابن عصره»، كعلامة على الذكاء والانفتاح. في الثالثة إعدادي كانت المواضيع المقررة في مادة الكتابة تحث على تناول «مزايا الكهرباء» أو الرد على «شخص يقلل

أمامك من شأن العالم العصري». وكان الآباء يقرون: «الصغار سيعرفون أكثر منا».

في الواقع، كان ضيق المساكن يرغم الأطفال والآباء، الأشقاء والشقيقات على النوم في نفس الغرفة. وواصل الناس الاغتسال في الطشت، وقضاء حاجتهم في المراحيض خارج المساكن، وكانت الفوطات الصحية تتخلص من دمائها في سطل من الماء البارد. كانت الإصابات بالزكام والالتهابات الرئوية لدى الأطفال تعالج بكمادات دقيق الخردل. كان الآباء يعالجون الانفلونزا بحبات «أسبرو» مع جرعة من شراب «غروغ». كان الرجال يتبولون في وضح النهار على الجدران، وكانت الدراسة تبعث على التوجس، على الخوف من أن تؤدي ـ بفعل عقابٍ غامض.. قصاصٍ من الرغبة في الصعود عاليا ـ إلى الجنون. كانت الأسنان ناقصة في كل الأفواه. الحق أن العصرَ ـ يقول الناس ـ لم يكن هو ذاته بالنسبة إلى الجميع.

لم يكن انسياب الأيام يتغير. تؤثثه نفس المناسبات الترفيهية التي لم تكن تواكب الوفرة والمستجدات. في فصل الربيع، تعود حفلات القربان المقدس، عيد الشباب، المعرض الخيري التابع للأبرشية، «سيرك بِينْدَرْ»، والفيلة المشاركة في الموكب وهي تسد الشارع، دفعة واحدة، بضخامتها الرمادية. في تموز/يوليو يعود طواف فرنسا الذي نتابعه عبر الراديو، ونحن نرتب داخل ملف صور «جيمنياني» و«داريغاد» و«كوبي» التي قصصنا من الجريدة. في الخريف تعود ألعاب المعرض الترفيهي. كُنا نَعُبُّ رصيد عام كامل من الفرقعات والشرار المتطاير من أعمدة السيارات المتصادمة، ومن ذلك الصوت الذي يصدح «هيا يا شباب، تحركوا! هيا يا سيارات السباق الرائعة!». على منصة اليانصيب نفس الفتى ذو الأنف

الأحمر الذي يقلد الممثل «بورفيل».. سيدة بِرِدَاءٍ مفتوحِ الصدر في عز البرد تتحدث بحماس وتعد بعرض ساخن.. «كابريه 'LES FOLIES BERGERES'، بين منتصف الليل والثانية صباحا»، وهو ممنوع على الذين تقل أعمارهم عن ست عشرة سنة. كنا نترصد على وجوه من تجرؤوا وعبروا إلى ما وراء الستار وعادوا ضاحكين، إشاراتٍ على ما شاهدوا هناك. وسط نتانة الماء الراكد والبصاق كنا نشتم رائحة الشهوة.

فيما بعد، سنبلغ السن الذي يخول لنا رفع ستار الخيمة. ثلاث نساء بالبيكيني يرقصن بلا موسيقى على الألواح. تنطفئ الأنوار ثم تشتعل: تقف النسوة بلا حراك، عاريات الصدور أمام الجمهور المتفرق الواقف على إسفلت ميدان العمادة. بالخارج مكبر صوت يصدح بأغنية لـ«داريو مارينو»: «EY MAMBO..MAMBO ITALIANO».

كان الدين هو الإطار الرسمي للحياة، وهو الذي ينظم الزمن. وكانت الصحف تقترح على الناس برامج خاصة بزمن الصوم الذي تحدد يوميةُ البريد مراحله، من الأحد الثالث قبل بداية الصوم الكبير إلى غاية عيد الفصح. لم نكن نتناول اللحم يوم الجمعة. ظل قداس الأحد مناسبة لتغيير الملابس.. لارتداء ثوب جديد لأول مرة، ووضع قبعة وارتداء قفازات وحمل حقيبة يد.. للاختلاط بالناس.. لتعقُّب عيون أطفال الكورال. كان القداس بالنسبة إلى الجميع علامة خارجية على التحلي بالأخلاق، وعلى حتمية مصير ينكتب بلغة خاصة: اللاتينية. وتعتبر قراءة الصلوات عينها كل أسبوع في كتاب الصلاة، وتَحَمُّل الضجر الطقوسي ذاته للعظة بمثابة تطهير مؤقت من متعة أكل الدجاج وحلويات المخبز، وارتياد قاعة السينما. كان يبدو أمرًا شاذًا وغير طبيعي ألا يؤمن بعض المعلمين والأشخاص المتعلمين ذوي السلوك السليم الذي لا تشوبه

شائبة. فالدين وحده هو منبع الأخلاق، وهو الذي يمنح تلك الكرامة الإنسانية التي تكون حياة الناس بدونها شبيهة بحياة الكلاب. وشريعة الكنيسة تسمو على كل القوانين الأخرى، ومنها وحدها تستمد المحطاتُ الكبرى للحياة شرعيتَها: «إن الأشخاص الذين لا يتزوجون في الكنيسة ليسوا بمتزوجين تمامًا» يقول كتاب التعاليم الدينية.. الكاثوليكية هي وحدها الدين الصحيح، لأن الأديان الأخرى إما أنها على خطأ أو سخيفة.

في ساحة المدرسة كنا نصرخ ثلاث مرات:

«كان محمد رسولَ..

رسولَ اللهِ الأعظمِ

كان يبيع الفولَ..

الفولَ السوداني في سوق بسكرة

لو أنه بندق كان ذلك أهم

ولكن البندق لم يكن له بِتجارة».

كنا ننتظر بفارغ الصبر قداسَ القربان، الشَّرْطَ المجيد الذي يسبق كل الأمور المهمة المنتظر حدوثها: العادة الشهرية، الحصول على شهادة الابتدائية أو الدخول إلى الأولى إعدادي. كان الذكور ببدلهم السود مع الشارة على الذراع والفتيات بالفساتين الطويلة والأوشحة البيضاء، يشبهون، وهم مثنى مثنى، العرسان الذين سيصيرونهم بعد عشر سنوات. بعد أن نصدح بصوت واحد في صلاة الغروب: «إني أعوذ بالرب من الشيطان وأعتصم بيسوع إلى الأبد»، يصير بإمكاننا إذ ذاك التحرر من الممارسات الدينية بعد أن أصبحنا مسيحيين معترف بهم تمام الاعتراف،

مسلحين بالزاد الضروري والكافي لكي نكون مندمجين تمامًا في الطائفة المهيمنة، وعلى يقين أن «هناك أمرًا ما بعد الموت».

كان الجميع يميزون بين ما يصلح وما لا يصلح.. بين الخير والشر، وكانت القيم تبدو واضحة في نظرة الآخرين إليك. من خلال اللباس، كان الناس يميزون بين الصغيرات والمراهقات، بين المراهقات والفتيات الشابات، بين الفتيات الشابات والنساء الشابات، بين الأمهات والجدات، بين العمال والتجار والموظفين بالمكاتب. كان الأثرياء يقولون عن العاملات في المتاجر والراقنات المرتديات للملابس الفاخرة: «إنها تحمل على ظهرها كل ثروتها».

كانت المدرسة العمومية والخاصة متشابهتين. فهما معًا مكان لنقل معرفة ثابتة في جو يعمه الصمت ويهيمن عليه النظام والاحترام الصارم للتراتبية، والخضوع المطلق: ارتداء وزرة، الانتظام في الصف عند دق الجرس، الوقوف عند دخول المديرة ولكن ليس عند دخول المراقبة، التوفر على الدفاتر والريشات والأقلام المعتمدة، يُمنع الرد على أي ملاحظة، يُحظر في الشتاء ارتداءُ السروال دون تنورة فوقه. للأساتذة وحدهم الحقُّ في السؤال. إذا لم نفهم كلمة ما أو شرح ما، فالخطأ مِنَّا. كنا فخورات ـ كأننا نحظى بامتياز ما ـ بالخضوع لضوابط صارمة، وللحصار. كان الزيُّ الموحدُ المفروضُ من طرف المؤسسات التعليمية الخاصة يعتبر علامةً جليةً على حرصها على الإتقان.

لم يكن التغيير يمس البرامج الدراسية ـ «طبيب رغم أنفه» في الأولى إعدادي، «خُدَع سْكَابَان» و«المتقاضون» و«المساكين» في الثانية إعدادي،

و«سِيدْ» في الثالثة إعدادي.. إلخ[1] ـ ولا الكتب المدرسية: كتاب «مالي وإسحاق» في التاريخ، «دومنجون» في الجغرافيا، و«كارفونتيي ـ فياليب» في الإنجليزية. هذه الكتلة من المعارف كانت تعطى لأقلية ما فتئت تتعزز ثقتها في ذكائها وفي ارتقائها المتواصل، من تعلم اللاتينية إلى «روما، المبعث الوحيد لحقدي»[2]، مرورًا بـ«علاقة شال» وعلم حساب المثلثات، بينما تواصل الأغلبية حل مسائل القطارات واعتماد الحساب الذهني، وترديد «لا مارسييز»[3] في الامتحان الشفوي للشهادة الابتدائية.

كان الحصول على هذه الشهادة، أو شهادة التعليم الإعدادي، حدثًا تشيد به الصحف التي تنشر أسماء المتوجين. أما الراسبون فيشعرون مبكرًا بثقل الخزي الذي يغمرهم.. لم يكونوا «في المستوى».

كان المديح الذي يحظى به التعليم في كل مكان يخفي شحًا كبيرًا في توزيعه على الجميع.

إن حَدَثَ وصادفنا على قارعة الطريق تلك الفتاة التي كنا نجلس بجنبها إلى غاية القسم المتوسط، والتي أُلْحِقَتْ بأقسام التكوين المهني أو التحقت بمؤسسة «بيجيي»، فلن يخطر ببالنا التوقف قليلًا لتجاذب أطراف الحديث معها، تمامًا مثل ابنة الموثق ـ لون بشرتها بعد العودة من رحلة خاصة بالرياضات الشتوية يدل على وضعها الاجتماعي الأعلى ـ التي لم تكن تتكرم علينا حتى بنظرة خارج المدرسة.

---

(١) «طبيب رغم أنفه» و «خدع سكابان» مسرحيتان لـ«موليير».
«المتقاضون» مسرحية لـ«راسين».
«المساكين» قصيدة لـ«فكتور هوغو».
«سِيد» مسرحية لـ«كورنيل».

(٢) «روما مبعث حقدي الوحيد»، بيت من مسرحية «هوراس».. بيت تنطق به كاميليا بعد أن قتل «هوراس» حبيبها.

(٣) «لامارسييز».. النشيد الوطني الفرنسي.

كان العمل والجهد والإصرار هي معايير تقييم السلوك. في يوم توزيع الجوائز، كنا نحصل على الكتب التي تعلي من شأن الحس البطولي لدى رواد الطيران، والجنرالات والمستعمرين: «مِيرْمُوزْ»، «لُوكْلِيرْ»، «دُو لاَتْرْ دُو تَاسِينِي»، «لْيُوطِي»[1]. ولم يتم إغفال الشجاعة في الحياة اليومية، إذ كان يجب تعظيم رب الأسرة، «بطل العالم الحديث» (الشاعر «شارل بيغي»)، تعظيم «الحياة المتواضعة التي يتم صرفها في الأعمال المملة والبسيطة» (الشاعر «بول فيرلين»).. كان يجب التعليق كتابة على حِكَم «جورج دُوهَامِيل» و«دُو سَانْتْ إِكْزُوبِيرِي»، و«الدرس المستخلص من الجهد المبذول من طرف أبطال كورنيل».. إبراز «كيف أن حب العائلة يفضي إلى حب الوطن»، وأن «العمل يبعدنا عن الشرور الثلاثة الكبيرة: الملل، والرذيلة، والحاجة» (فولتير)..

كنا نقرأ مجلتي «VAILLANT» و«AMES VAILLANTES».

لتحصين الشباب وترسيخ إيمانهم بهذا المِثَال، وتقويتهم بدنيا، وإبعادهم عن شِرَاكِ الكسل والأنشطة المحبطة (القراءة والسينما)، وإعداد «رجال أنيقين» و«فتيات في صحة جيدة ومتألقات ومستقيمات»، تُستَحثُّ الأُسرُ على بعث أبنائها إلى الكشفية والمنظمات الشبابية. في الليل حول نار المخيم أو عند الفجر في أحد المسالك، خلف لواء

---

(١) «جون ميرموز» (JEAN MERMOZ) من رواد الطيران المدني في فرنسا.
«الماريشال فيليب لوكلير» (PHILIPPE LECLERC)، عسكري فرنسي رفيع من أبطال الحرب العالمية الثانية.
«الجنرال جون دولاتر دو تاسيني» (JEAN DE LATTRE DE TASSIGNY) عسكري فرنسي رفيع من أبطال الحرب العالمية الثانية.
«الماريشال هوبير ليوطي» (HUBERT LEAUTY) عسكري فرنسي رفيع من أبطال الحرب العالمية الأولى ومن أشهر وجوه الاستعمار الفرنسي.

مرفوع بشكل عسكري، وعلى إيقاع نشيد الكشفية «YOUKAIDI..YOUKAIDA»، كان يتحقق ذلك الاندماج البهيج بين الطبيعة والنظام والأخلاق. وعلى أغلفة مجلة «LA VIE CATHOLIQUE» والصفحات الأولى لجريدة «L'HUMANITE» كانت تظهر وجوه تشع نضارة وهي تتطلع إلى المستقبل. هذا الشباب، أبناء وبنات فرنسا، سيأخذون المشعل من الكبار الذين أبلوا البلاء الحسن في المقاومة كما صدح بذلك الرئيس «روني كوتي» في خطاب رنان، شهر تموز/يوليو ١٩٥٤، بميدان المحطة، فوق رؤوس التلاميذ الذين جُمِعوا حسب المؤسسة التعليمية التي ينتمون إليها، بينما يجري الغيم الأبيض في سماء صيف كان كله ماطرا.

خلف هذا المِثال السامي وهذه العيون النضرة كانت تمتد ـ والكل يعلم ذلك ـ منطقة مبهمة، لزجة، تعتمل فيها الكثير من الكلمات والأشياء، من الصور وأنماط السلوك: الفتيات الأمهات.. الرق الأبيض.. ملصقات فيلم «عزيزتي كارولين»، الواقيات الذكرية الإنجليزية.. الإعلانات الغامضة: «لتنظيف المناطق الحساسة.. السرية مضمونة».. أغلفة مجلة «GUERIR».. «فترة الخصوبة عند النساء متاحة ثلاثة أيام في الشهر فقط».. الأطفال الناتجون عن الحب.. الإخلال بالحياء العام.. «جانيت مارشال» القتيلة خنقا بحمالة صدرها في إحدى الغابات على يد «روبير أفريل».. الخيانة.. كلمات: السحاقية، اللواط، اللذة.. الخطايا التي لا يفصح عنها في حصة الاعتراف.. الإجهاض.. السلوك الشقي.. الكتب المحظورة.. أغنية «كل هذا بسبب ما حدث في غابة 'شافيي'».. العلاقات الحرة إلى الأبد. مجموعة من الأشياء المشينة ـ التي يفترض أن يعرفها الكبار فقط ـ تحيل كلها على الأعضاء التناسلية واستعمالاتها. كان الجنس الهاجسَ الأكبر للمجتمع الذي يرى إيماءَاتِه في كل مكان.. في

اللباس المفتوح عند الصدر.. في التنانير الضيقة.. في صباغة الأظافر الحمراء.. في الملابس الداخلية السوداء.. في «البيكيني».. في الاختلاط.. في ظلمة قاعة السينما.. في المراحيض العمومية.. في عضلات طرزان.. في النساء المدخنات وهن يضعن رجلا على رجل.. في حركة لمس الشعر بالفصل.. إلخ. كان المعيارَ الأولَ لتقييم الفتيات، وتصنيفهم بين من هن «كما يجب» ومن هن من «الجنس الفاسد». ولم يكن «التقييمُ الأخلاقي» الخاصُ بأفلام الأسبوع، والمعلق على باب الكنيسة، يهتم بشيء آخر غيره.

بيد أننا كنا نراوغ المراقبة، ونذهب لمشاهدة «مانينا.. فتاة بلا حجاب»، و«الرغبة المشتعلة في الجسد» للممثلة «فرانسواز أرنول». ونود أن نكون مثل البطلات، وتكون لدينا حرية التصرف التي يتمتعن بها. ولكن، بين الكتب والأفلام، وتعليمات المجتمع كان يمتد فضاءٌ من التحريم والأحكام الأخلاقية. لم يكن لدينا الحق في التماهي.

في ظل هذه الظروف، كانت سنوات الاستمناء تبدو بلا نهاية، قبل الحصول على الإذن بممارسة الجنس في إطار الزواج. كان يجب علينا العيش مثقلات بالرغبة في تذوق تلك النشوة التي كنا نعتقد أنها محصورة على الكبيرات.. تلك النشوة التي تُلِحُّ علينا لإشباعها مهما كان الثمن، رغم كل محاولات المراوغة والصلوات، وتجعلنا حاملات لسِرٍّ يصنفنا بين المنحرفات، والهستيريات، والعاهرات.

جاء في معجم «LAROUSSE»:

ONANISME (الاستمناء): هو مجموعة السبل والوسائل المستعملة لإحداث النشوة الجنسية.

وغالبا ما يكون «الاستمناء» سببا في حوادث خطيرة، ولهذا يجب مراقبة الأطفال عند اقترابهم من سن البلوغ. وسيتم، على التوالي وحسب الحاجة، اللجوء إلى مهدئ «البروميد»، العلاج المائي، الرياضة، العلاج بالحديد والزرنيخ.. إلخ.

في السرير وداخل المراحيض، كنا نستمني تحت أنظار المجتمع برمته.

كان الشبان فخورين بالانخراط في الجيش، ويعتبرهم الجميعُ وسيمين باللباس العسكري. في المساء بعد مرورهم أمام «مجلس المراجعة»، كانوا يقومون بجولة في المقاهي للاحتفال بمجد الحصول على الاعتراف بهم كرجال كاملي الرجولة. قبل الالتحاق بالجيش، كانوا في عداد الصبيان، ولا يساوون شيئًا في سوق الشغل والزواج. بعد الانخراط فيه، يمكن أن تكون لهم زوجة وأطفال. كانت البزة العسكرية التي يتجولون بها في الحي خلال عطلهم، تضفي عليهم وسامةً لها نهكة وطنية، وحسَّ التضحية المفترضة. كانت ظلال المقاومين المنتصرين، والجنود الأمريكان، تحوم حولهم. كان الثوب الخشن لستراتهم العسكرية، الذي تلامسه الفتيات وهن يقفن على أطراف الأصابع لتقبيلهم، يجسد تلك القطيعة المطلقة بين عالم الرجال وعالم النساء. كان يخالجنا شعور بالبطولة عند رؤيتهم.

خلف الأشياء الثابتة ـ ملصقات سرك العام الماضي وعليه صورة «روجي لانزاك».. صور أول قربان والتي توزع على القرينات والأقران.. برنامج «نادي الغناء» على أمواج «راديو لوكسمبورغ» ـ أخذت الأيام

تمتلئ برغبات جديدة. بعد ظهر الأحد، صرنا نحتشد عند واجهة متجر الكهرباء العامة أمام شاشة التلفزيون، وأخذت المقاهي تقتني جهازًا لجذب الزبائن.. وهناك على التلة تتلوى مسالك متربة خاصة بسباق الدراجات النارية، وكنا نتابع تلك الآلات الصاخبة وهي تصعد وتنزل طيلة اليوم. وكانت اللهفة المتزايدة للتجارة ـ المحفوفة بشعارات: «المبادرة»، «الدينامية» ـ تخلخل روتين الحياة بالمدن. هكذا، أخذت تظاهرة «أسبوعَا التجارة» تصير طقسًا من طقوس الربيع، بين موعدي المعرض الترفيهي والمعرض الخيري. في شوارع وسط المدينة، كانت مكبرات الصوت تحث بصخب على الشراء ـ تتخللها أغاني «أني كوردي» و«إيدي كونستونتين» ـ مقابل الظفر بسيارة «سيمكا» أو «صالة الطعام». وعلى المنصة في ميدان العمادة، كان منشط محلي يضحك المارة بنكت «روجي نيكولا» و«جون ريشار»، ويعملُ على حَشْدِ مرشحين للمشاركة في مسابقات الغناء أو الثقافة العامة كما في الراديو. وفي جانب من المنصة تجلس «ملكة التجارة» وتاجها على رأسها. كانت البضائع تتقدم محفوفة بألوان الاحتفال. والناس يقولون: «هذا فيه تغيير» أو «لا يجب الغرق في الروتين، البقاء في البيت مدعاة للغباء».

كانت السعادة تسري بين شباب الطبقات الوسطى، الذين ينظمون فيما بينهم الحفلات الراقصة، ويبتكرون لغة جديدة: «C'EST CLOCHE.. «LA VACHE».. «VACHEMENT»[1]. ويتسلون بتقليد لكنة

---

(١) «C'EST CLOCHE» تعبير شعبي يعني «من الغباء...».
«LA VACHE» هي البقرة، ولكن هذه الكلمة تستعمل في الفرنسية العامية للتعجب أو التعبير عن الصدمة.
«VACHEMENT» تستعمل في العامية الفرنسية كصيغة من صيغ التفضيل.

«ماري شانطال»، ويلعبون الـ«بيبي فوت»، ويصفون جيل الآباء بـ «المتهالكين». وكان كل من «إيفيت هومر» و«تينو روسي» و«بورفيل» يضحكونهم كثيرا. كنا نبحث كلنا، بِحَيْرَةٍ، عن نماذج عصرنا، ونتحمس لـ«جلبير بيكو» والمقاعد المهشمة خلال حفلته[1]. كنا نستمع إلى إذاعة «أوروبا ١» التي لم تكن تذيع سوى الموسيقى والأغاني والإعلانات.

---

(١) «جلبير بيكو» (GILBERT BECAUD) مغن فرنسي مشهور، والمقاعد المهشمة تحيل إلى حفلة أحياها هذا الفنان في مسرح «الأولمبيا» الشهير بباريس، في ٢٧ شباط/ فبراير ١٩٥٥، والتي كانت ساخنة جدا.

على صورة بالأبيض والأسود تظهر فتاتان تقفان في ممر، الكتف على الكتف، ويداهما معًا خلف الظهر، في عمق الصورة، شجيرات وسور عال من الآجر، وفوقه تبدو السماء بغيوم بيضاء كبيرة. على ظهر الصورة: تموز/يوليو ١٩٥٥، في حديقة المدرسة الداخلية «سان ميشيل».

إلى اليسار، الفتاة الأطول، شقراء لها شعر قصير بتسريحة سريعة، وفستان فاتح اللون مع جوارب قصيرة. وجهها في الظل.

إلى اليمن، فتاة بشعر قصيرٍ أسودَ ومجعدٍ، نَظّارات على وجه ممتلئ، جبهة واسعة عليها أشعة الشمس، ترتدي كنزة داكنة بأكمام قصيرة، وتنورة منقطة. كانتا معًا ترتديان أحذية منبسطة. ذات الشعر الأسود بدون جوارب. لعلهما خلعتا وِزرة المدرسة من أجل التقاط الصورة.

حتى لو لم يتم التعرف في ملامح الفتاة ذات الشعر الأسود على الطفلة صاحبة الضفيرتين على الشاطئ - والتي كان يمكن أن تصبح هي الشقراء - فهي، وليس تلك الشقراء، صاحبةُ هذا الوعي الذي التُقِطَتْ له الصورة وهو حبيس هذا الجسد.. هذا الوعيِ ذي الذاكرة الفريدة التي تسمح بالتأكيد على أن الشَّعْرَ المُجعدَ تَأَتّى من تسريحةٍ صارت طقسًا من

طقوس شهر أيار/مايو منذ القربان المقدس.. أن تنورتها خيطت من فستان يعود إلى الصيف الماضي وصار ضيقا عليها، وأن الكنزة نسجتها إحدى الجارات. وبفضل إدراك وأحاسيس المُرَاهِقة صاحبةِ الشعر الأسود والنظارات، ذات الأربعة عشر عامًا ونصف، تمكنتِ الكِتَابَةُ هنا من استعادةِ ذلك الشيء الذي كان يسري في سنوات الخمسينيات.. من القبضِ على انعكاسِ التاريخ الجماعي على شاشة الذاكرة الفردية.

باستثناء الحذاء المنبسط، ليس في مظهر هذه المراهقة ما يتماشى مع «ما كان ساريا» في ذلك العهد، وكنا نتابعه في مجلات الموضة ومتاجر المدن الكبيرة: التنورة الاسكتلاندية الطويلة التي تصل إلى منتصف الساق، الكنزة السوداء والقلادة الكبيرة، تسريحة ذيل الحصان مع قُصّةِ الشعر على طريقة «أودري هابورن» في «عطلة رومانية»[1]. يمكن للصورة إن تعود إلى نهاية الأربعينيات أو بداية الستينيات. ولعلها تبدو في عيون كل الذين ولدوا بعدها، مجرد صورة عتيقة.. مجرد صورة تنتمي إلى ما قبل تاريخ الذات، حيث تَنْسَحِقُ كل الحيوات السابقة. ومع ذلك، فهذا النور الذي يضيء جانبا من وجه هذه الفتاة وكنزتها فيما بين النهدين اللذين أخذا يبرزان، أيقظ الشعور بحرارة شمس حزيران/يونيو لسنة لا تشبه ـ بالنسبة للمؤرخين وحتى للأحياء آنذاك ـ أي عام أخر: ١٩٥٥.

لعلها لم تكن تدرك الهوة التي تفصلها عن فتيات أخريات في القسم، تلك اللواتي لا يمكن أن تتخيل أخذ صور معهن. هوة تتجلى في سُبُلِ الترفيه.. في استعمال الزمن خارج المدرسة.. في طريقة العيش

(١) «أودري هابورن» (AUDREY HEPBURN) ممثلة بريطانية من النجمات اللامعات بـ«هوليوود» في الخمسينيات، وحصلت على أوسكار أفضل ممثلة في ١٩٥٤ عن دورها في فيلم «عطلة رومانية» الذي أخرجه «وليام ويلر».

عموما، وتبعدها عن الفتيات الأنيقات كما تبعدها عن اللواتي يشتغلن في المكاتب أو المعامل. أو لعلها تدرك حجم هذه الهوة ولكن لا تنشغل بها.

لم يسبق لها أبدًا أن زارت باريس، التي توجد على بعد مائة وأربعين كيلومتر، ولا حضرت حفلة راقصة، كما أنها لا تملك مُشَغِّل أسطوانات. وهي منهمكة في إنجاز التمارين المنزلية، كانت تنصت إلى أغاني المذياع التي كانت تُدَوِّنُ كلماتها في دفتر، وتحملها في رأسها لأيام طويلة وهي تتمشى أو تتابع دروسها في القسم:

يا من قلت إنك تحبينه

تحبينه.. تحبينه

ماذا فعلت بحبك

حتى يذرف زخات دمعه

وهو يسير تحت وابل المطر »[١]

لا تتحدثُ مع الذكور، مع أنها تفكر فيهم دائمًا. تريد أن يكون لديها الحق في وضع أحمر الشفاه وارتداء الجوارب الطويلة والعكب العالي ـ الجوارب القصيرة تغمرها بالخجل، تخلعها خارج البيت ـ لكي تبرهن على انتمائها إلى فئة الفتيات الشابات، ويمكن أن يتعقبها الذكور في الشارع. لهذا، كانت، صباح الأحد بعد القداس، «تتسكع» في المدينة برفقة صديقتين أو ثلاث من نفس وسطها «المتواضع»، مع الحرص دائمًا على عدم خرق القانون الصارم للأم المتعلق بـ«الوقت» («عندما أقول هذا الوقت، فيعني هذا الوقت بالضبط، وليس أي دقيقة زائدة»). كانت

---

(١) واحدة من أغاني الفنان الفرنسي «جون كلود دارنال» (JEAN CLAUDE DARNAL) الذي كان مغنيا وملحنا وكاتب كلمات.

تعوض الحظر العام للخروج بقراءة المسلسلات التي تنشرها المجلات: «ناس موغادور»، «حتى لا يموت أي أحد»، «قريبتي راشيل»، «القلعة». دائمًا ما كانت تتماهى مع الحكايات ومع لقاءات خيالية تنتهي دائمًا بالأورغازم ليلا تحت الملاءة. تتخيل نفسها عاهرة، كما لا تخفي إعجابها بشقراء الصورة، وفتيات أخريات في القسم الأعلى، اللواتي يُعِذْنَها إلى جسدها غير المتناسق. ليتَها هُن.

في السينما، شَاهَدَتْ «لاسترادا»، «القس المعزول»، «الفخورون»، «الأمطار الموسمية»، «جميلة قادش». كان عدد الأفلام المحرمة عليها والتي تهفو لمشاهدتها - «أبناء الحب»، «القمح»، «رفيقات الليل».. إلخ - أكبر من تلك المرخصة.

(الصعود إلى المدينة، الحلم، الاستمناء، والانتظار.. هذا ملخص حياة المراهقة في ال«بروفانس»)[1].

أي دراية بالعالم تختزن في دواخلها، بعيدا عن المعارف التي راكمت إلى غاية السنة الثالثة إعدادي؟ أي أثر للأحداث والحوادث التي تجعل المرء يقول فيما بعد «أتذكرها»، حين تأتي في طيات جُملةٌ سُمِعَت صدفة؟

- الإضراب الكبير للقطارات في صيف ٥٣
- سقوط «دين بيان فو»
- وفاة ستالين التي أُعْلِن عنها في الراديو ذات صباح بارد من آذار/مارس، قبيل الانطلاق إلى المدرسة.

---

(١) «بروفانس» (PROVINCE) مصطلح فرنسي يطلق عموما على كل المناطق خارج باريس ومحيطها القريب.

ـ تلميذات الأقسام الصغرى وهن يمشين في طابور صوب «الكانتينا» لشرب كوب حليب «مانديس فرانس»[1].

ـ الغطاء المكون من القطع التي حاكتها كل التلميذات، وأُرْسِل إلى «الأب بيير»، الذي كانت لحيتُه ذريعةً لإطلاق الحكايات الفاحشة.

ـ عملية التلقيح الهائلة، التي شملت كل المدينة، بمقر العمادة، ضد الجدري، لأن عددا من الأشخاص ماتوا بسببه في بلدة «فَانْ».

ـ الفيضانات في هولندا.

حتما، لم يخطر على بالها آخر الموتى في كمين بالجزائر، الحلقة الجديدة في مسلسل القلاقل التي سَتَعْرِفُ فيما بعد فقط أنَّ شرارتَها اندلعتْ في «عيد القديسين» ١٩٥٤. وسوف تستحضر صورتها في ذلك اليوم، وهي في غرفتها، جالسة قرب النافذة، وقدماها على السرير، تتابع الضيوف في المنزل المقابل يخرجون الواحد تلو الأخر إلى الحديقة للتبول خلف الجدار الأعمى. ولن تنسى تاريخ التمرد الجزائري ولا بعد ظهيرة «عيد القديسين» ذاك الذي تحتفظ منه بصورةٍ واضحة.. حدثٍ خالص: امرأة شابة تقرفص وسط العشب ثم تنهض وهي تسوِّي أطراف تنورتها.

في تلك الذاكرة المحرمة نفسها.. ذاكرةِ الأشياء التي لا يمكن التفكير في ـ ومن المخجل أو من الجنون ـ البوح بها، يوجد:

ـ لطخة داكنة على ملاءة جدتها التي توفيت منذ ثلاث سنوات، والتي

---

(١) «بيير مانديس فرانس» (PIERRE MENDES FRANCE) رئيس الحكومة الفرنسية ما بين حزيران/ يونيو ١٩٥٤ وشباط/ فبراير ١٩٥٥، وهو الذي أقر بإلزامية منح كوب من الحليب يوميا لكل التلاميذ في المدارس.

ورثتها أمُها.. لطخة لا تزول.. تجذبها وتثير اشمئزازها الشديد، كأنها حية.

ـ مشهد والدَيْها في الأحد الذي سبق يوم اجتياز امتحان الدخول إلى الأولى إعدادي، حيث حاول والدُها تصفيةَ أمِّها بسحلها إلى مخزن النبيذ، قرب الدعامة حيث كان الساطور مُثَبَّتًا.

ـ الذكرى التي تحضرها كل يوم عندما تمر، وهي في الطريق إلى المدرسة، بمحاذاة المنحدر الذي رأت فيه، في يوم أحد من كانون الثاني/يناير قبل عامين، طفلةً صغيرةً بمعطف قصير وهي تلهو وتغوص بقدمها في الطين الشديد المبلل. في اليوم الموالي كان أثر قدمها هناك.. وظل واضحًا لشهور.

كانت العطلة الكبيرة فسحة مديدة من الملل، والنشاطات المبتذلة لتأثيث النهارات:

ـ متابعة نهاية مرحلة اليوم من طواف فرنسا، ووضع صورة الفائز في دفتر خاص

ـ تسجيل أرقام المحافظات[1] المثبتة على لوحات السيارات التي تُصادفهَا في الشارع

ـ قراءة الملخصات المنشورة في الجريدة الجهوية عن الأفلام التي لن تُشَاهِدَ والكتب التي لن تَقْرَأَ

---

(١) في فرنسا لكل محافظة رمز معين تعرف به يتكون من رقمين: من ٠١ إلى ٩٥. ويثبت رقم المحافظة على لوحة السيارات المسجلة بها. اما المحافظات التابعة لفرنسا في ما وراء البحار فرمزها يتكون من ثلاثة أرقام.

ـ طَرْزُ زخارف على حامل المناديل

ـ إزالة الرؤوس السوداء، وتنظيف الوجه بمطهر «EAU PRECIEUSE» أو بشرائح الليمون

ـ الصعود إلى المدينة لاقتناء الشامبو، وشراء كتاب من سلسلة «PETIT CLASSIQUE LAROUSSE»، والمرور، مع غض البصر، أمام المقهى حيث يلعب الذكور «الفليبر»

كان المستقبل شاسعا لدرجة تفوق بكثير قدرتها على تصوره. هو آت حتما. هذا كل ما في الأمر.

لما كانت تتناهى إلى سمعها أصوات الصغيرات في الأقسام السفلى وهن يرددن في ساحة المدرسة: «هيا نقطف الوردة قبل أن تفقد النضارة» ينتابها الإحساس أن طفولتها تنتمي إلى زمن بعيد جدًا.

في منتصف الخمسينيات، كان المراهقون يظلون جالسين حول المائدة، خلال الولائم العائلية، منصتين لما يدور من كلام دون التدخل.. مبتسمين بأدب للنكات التي لا تضحكهم، لملاحظات الاستحسان حول نمو أجسادهم، للبذاءات الضمنية الرامية إلى جعلهم يحمرون خجلا.. مكتفين بالرد الحَذِر على الأسئلة المتعلقة بسير دراستهم. لا يلمسون بَعْدُ في أنفسهم القدرة على الانخراط الكامل في الحديث، حتى وإن كان النبيذ والكحول والسجائر الشقراء ـ المسموح بها في التحلية ـ يوحي بتنصيبهم في زمرة الراشدين.

كنا نتشرب عذوبة المأدبة الاحتفالية حيث تلين الصرامة المعتادة للأحكام الاجتماعية، وتتحول إلى وداعة رخوة، ويمرر أعداء السنة

الماضية ـ الذين تصالحوا ـ صحن «المايونيز» فيما بينهم. كنا نحس ببعض الضجر ولكن ليس لدرجة أن نتوق إلى حضور حصة الرياضيات في اليوم الموالي.

بعد إبداء الملاحظات حول الأطباق التي يجري تذوقها ـ وتستدعي ذكريات أطباق مماثلة تم تناولها في ظروف أخرى، وتُسْتَحضرُ معها أفضل الطرق لإعدادها ـ ينتقل المدعوون إلى الحديث عن حقيقة الأطباق الطائرة.. عن «سبوتنيك» ومَنْ، مِنَ الأمريكان والروس، سيصل إلى القمر أولا.. عن «أحياء الطوارئ» لـ«الأب بيير»[١].. عن غلاء المعيشة. ولكن يعود موضوع الحرب ليطرح نفسه على الطاولة. يتذكرون «النزوح»، القصف، قيود ما بعد الحرب، أتباع موضة «زازو»[٢]، سراويل الغولف. هذه هي رواية ميلادنا وطفولتنا الأولى، وكنا نستمع إليها بحنين لا يوصف، نفس الحنين الذي يغمرنا ونحن نُنْشِدُ بحماس «تذكري يا بربارا»[٣]، التي تم نسخها في الدفتر الشخصي الخاص بالأشعار. ولكن من نبرة الأصوات كان يفوح ذلك الإحساس بالبعد. فقد تلاشى شيء ما مع وفاة الأجداد الذين عاشوا أهوال الحربين.. مع تزايد الأطفال.. مع الانتهاء من إعادة بناء المدن.. مع التقدم والأثاث بالتقسيط. كانت ذكريات الحرمان تحت الاحتلال وذكريات الطفولة في القرى تلتقي هناك في ماض قد ولى بلا رجعة. صار لدى الناس اعتقادٌ راسخٌ أَنَّهُم يحيون حياة أفضل.

---

(١) «احياء الطوارئ» (LES CITES D'URGENCE)، مشروع اقترحه ودافع عنه «الأب بيير» في ١٩٥٤ لحل مشكلة السكن غير اللائق والعشوائيات بفرنسا.

(٢) «أتباع موضة زازو» (LES ZAZOUS): الصفة أطلقت على الشباب الفرنسي الذي كان يميل إلى اللباس الأمريكي والإنجليزي ويحب الجاز.

(٣) «تذكري يا بربارا» (RAPPELLE-TOI BARBARA) قصيدة شهيرة للشاعر الفرنسي «جاك بريفير» (JACQUES PREVERT).

لم تعد قضية «الهند الصينية» تثير الاهتمام.. تلك الهند الصينية البعيدة كل البعد، الغربية كل الغرابة ـ «كيسان من الأرز معلقان على طرفي قصبة البامبو» ـ والتي لم تُثِر كثير ندم بعد فقدانها في «دين بيان فو».. المعركة التي لم يحارب فيها سوى المتهورين والمتطوعين الذين لا خبرة لهم. كان نزاعا بعيدا عن حاضر الناس. لم تكن لديهم أيضًا الرغبة في تعتيم الأجواء بقلاقل الجزائر التي لا يدري أحد كيف اندلعت، ولكنهم كلهم يجمعون ـ ومعهم نحن الذين كانت هذه البلاد ضمن مواد امتحان حصولنا على الشهادة الإعدادية ـ على أن الجزائرَ بمحافظاتها الثلاث فرنسيةٌ إسوةً بجزء كبير من إفريقيا حيث كانت ممتلكاتنا تغطي، على الخريطة، نصف القارة. كان يجب سحق التمرد وتنظيف البلاد من «أوكار المتمردين».. هؤلاء السفاحون الخِفاف الذين نلمح ظلهم الخائن على المحيا الداكن للبائع المتجول الوديع الذي يحمل السجاد على ظهره.

وانضاف إلى السخرية التي كان العربُ وكلماتُهم موضوعا لها، اليقينُ الراسخُ بأنهم «متوحشون». بالتالي كان من الطبيعي إرسال جنود الوحدات والمجندين للحفاظ على النظام، حتى وإن كان الجميع يعتبرون أنه من المحزن بالنسبة للآباء فقدان ولد في العشرين، كان على أهبة الزواج، والذي تظهر صورته في الصحيفة المحلية تحت عبارة «سقط في كمين». هي مآسٍ فردية.. موتى هنا وهناك. لم يكن هناك عدو ولا مقاتل ومعركة. لم يكن هناك أي إحساس بوجود حرب حقيقية. الحرب المقبلة ستأتي من الشرق، مع الدبابات الروسية كما حدث في «بودابيست»، لتدمير العالم الحر، ولن يفيد النزوح عبر الطرقات كما جرى في عام ٤٠، فالقنبلة الذرية لن تترك للناس أي فرصة. والحق أن الخوف كان قد داهم الناس مع أحداث قناة السويس.

لم يكن أحد يتحدث عن معسكرات الإبادة، أو يأتون عليها عَرَضًا

عند ذكر هذا أو ذاك الذي فقد والديه في «بوكنفالد». بعدها يخيم صمت حزين. لقد صار الأمر فجيعة خاصة.

في فترة التحلية، اختفت تلك الأغاني الوطنية لما بعد التحرير. كان الآباء يرددون «تحدث لي عن الحب»، والشباب الكبار «مكسيكو»[١]، بينما ينشد الأطفال «جدتي كانت كُوبُويًا». أما نحن، فكنا سنغرق في الخجل لو غنينا، كما في الماضي، «نجمة الثلوج».

ولما يُطْلَب منا ترديد أغنية ما، كنا نتذرع بعدم حفظ أي منها كاملة، ونحن على يقين أن أغاني «براسانس» و«بْرِيل»[٢] ستكون نشازًا وسط غبطة نهاية المأدبة.. على يقين أنه من الأفضل إنشاد الأغاني التي كرستها مآدب سابقة والدمعات التي تُمْسَح بطرف المنديل. كنا نُحْجِم بشدة عن كشف أذواق موسيقية لم يكن بمقدورهم استيعابها، هم الذين لا يعرفون كلمةً بالإنجليزية مع عدا «FUCK YOU» التي تعلموها عند «التحرير»، ولا علم لهم بوجود فرقة «PLATTERS» ولا «BILL HALEY».

ولكن في اليوم الموالي، ومع الإحساس بالفراغ الذي يداهمنا، وسط صمتِ القِسْم، ندرك أن أمس ـ وإن رفضنا الإقرار بذلك، وإن ظننا أننا بقينا خارج الجماعة، وأحسسنا بالضجر ـ كان يوم عيد.

---

(١) «تحدث لي عن الحب» (PARLEZ-MOI D'AMOUR) أغنية تعود إلى ١٩٣٠ من أداء «لوسيان بوير» (LUCIENNE BOYER).
«مكسيكو» (MEXICO) اغنية من أداء الفنان «لويس ماريانو» في نهاية الأربعينيات.

(٢) «جورج براسانس» (GEORGE BRASSENS) و«جاك بريل» (JACQUES BREL) الأول فرنسي والثاني بلجيكي ولهما مكانة خاصة في عالم الفن، وهما مشهوران بأغانيهما المميزة جدا.

كان ذلك العدد المحدود من الشباب الذين أَسْعَفَهُم الحظُ وواصلوا دراستهم ـ العالقين في الزمن الدراسي البطيء للغاية ـ يرون أنه لا يحدث شيء يذكر في ظل الجرسِ المنتظم للحصص الدراسية.. عودةِ فروض التحرير الفصلية.. التفسيراتِ التي لا تنتهي لـ«سينا» و«إفيجيني»[١].. ترجمةِ «دفاعا عن ميلون»[٢]. كنا ندون أقوال الكتاب حول الحياة، ونحن نختبر سعادة التفكير في ذواتنا داخل عبارات متلألئة.. «الحياة هي أن نرتوي من أنفسنا دون ظمأ».. أخذ يغمرنا الإحساس بالعبث والغثيان.. والتقى الجسد الرخو للمراهقة مع الكائن «الزائد» للوجودية. كنا نلصق على الأوراق صور «بريجيت باردو» في «... وخلق الله المرأة»[٣]، وننحت على خشب الطاولة الحروف الأولى لـ«جيمس دين». كنا ننسخ أشعار «بريفير».. أُغْنِيتَيْ «براسانس»، «أنا وَغْدٌ» و«الفتاة الأولى» الممنوعتين من الراديو. كنا نقرأ خلسة «صباح الخير أيها الحزن» و«ثلاث مقالات حول النظرية الجنسية»[٤]. صار حقل الرغبات والمحظورات شاسعًا جدًا. وأخذ باب عالم خال من الخطايا يبدو مواربا. صار الكبار يرتابون من كون الكُتَّابِ المعاصرين يفسدون أخلاقنا، وأننا لم نعد نحترم أي شيء.

---

(١) «سينا» مسرحية لـ«بيير كورنيل» (corneille).
«إفيجيني» مسرحية لـ«جون راسين» (JEAN RACINE).

(٢) «دفاعا عن ميلون» (PRO MILONE) مرافعة شهيرة لـ«شيشرون» دفاعا عن «ميلون» الذي اتهم بقتل رجل السياسة والشعبوي «بوبليوس كلاوديوس بولتشر».

(٣) «... وخلق الله المرأة» (ET DIEU CREA LA FEMME) فيلم شهير للمخرج «روجي فاديم»، كانت بطلته الممثلة الفرنسية الشهيرة «بريجيت باردو» (BRIGITTE BARDOT).

(٤) «صباح الخير أيها الحزن» (BONJOUR TRISTESSE)، رواية شهيرة للكاتبة «فرانسواز ساغان»، نشرتها في ١٩٥٤ وأثارت ضجة كبيرة
«ثلاث مقالات حول النظرية الجنسية» من مؤلفات سيغموند فرويد.

حالاً، الرغبة الأشد إلحاحًا هي التوفر على «إلكتروفون» وبعض أسطوانات «الميكروسيون» على الأقل.. أشياء ثمينة يمكننا الاستمتاع بها لوحدنا، إلى ما لا نهاية، إلى حد القرف، أو مع فتيات أخريات يضعن التلميذة الثرية، التي ترتدي معطف «دافل» وتسمي والديها «الشيخان» وتقول «تشاو» بدل «إلى اللقاء»، ضمن الفئة الأكثر تطورًا من الشباب..

كنا متعطشين لـ«الجاز» و«الموسيقى الروحية للسود»، و«الروك أند رول». كل ما كان يغنى بالإنجليزية يكتسي جمال غامضا. «DREAM»، «LOVE»، «HEART».. كلمات صافية.. تسمو عن الاستعمالات العملية، وتعطي الانطباع بالـ«هُنَاك». في حميمية الغرفة، كنا ننغمس بإفراط في نفس الأغنية.. كانت مثل مخدر يذهب بالعقل، ويفجر الجسد، يفتح أمام المرء عالما آخر من العنف والحب: كنا نتخيل أنفسنا في الحفلة الراقصة التي نتلهف للحصول على حق الذهاب إليها. كان «إلفيس بريسلي»، و«بيل هلي»، و«أرمسترونغ»، و«البلاترز» يجسدون الحداثة، المستقبل.. وكانوا يغنون لنا.. لنا وحدنا، نحن الشباب، تاركين خلفهم الأذواق العتيقة للآباء، وجهل المتخلفين، وأغنية «بلاد الابتسامة»، و«أندري كلافو» و«لين رينو». كنا نحس أننا صرنا في عداد المنتمين إلى حلقة العارفين، وإن ظلت قطعة «عشاق ليوم الواحد»(١) تثير فينا القشعريرة.

ثم نجد أنفسنا من جديد غارقين في صمت العطلة، والأصوات المتفرقة، الواضحة للـ«بروفانس».. خطوات امرأة ذاهبة لشراء الأغراض اليومية، انزلاق سيارة، ضربات ورشة التلحيم. كان الوقت يتبدد في

---

(١) «AMANTS D'UN JOUR» من أغاني الفنانة الفرنسية «إديت بياف» (EDITH PIAF)

أمور مبتذلة، أعمال مُمَطَّطَة.. ترتيب تمارين السنة.. توضيب خزانة الملابس.. قراءة رواية مع الحرص على عدم الانتهاء منها سريعًا. كنا نطيل النظر في المرآة، ونتلهف إلى اليوم الذي يطول فيه شَعرُنا حتى نسرحه على شكل ذيل الحصان. نترقب الزيارة غير المتوقعة لإحدى الصديقات. في العشاء، كان ينبغي انتزاع الكلمات من أفواهنا، ونترك الطعام في الصحن، ما يَجُرُّ علينا اللوم.. «لو جُعْتِ أيام الحرب، لما كُنتِ متطلبة هكذا». في مقابل الرغبات التي تستثيرنا كانت تنتصب حكمة الكفاف: «أنتِ تطلبين الكثير من الحياة».

من فرط التجول والالتقاء في جماعات متفرقة ـ يوم الأحد بعد القداس أو بعد السينما ـ ومن فرط تبادل النظرات، ينتهي الأمر بالفتيات والذكور إلى تبادل أطراف الحديث. هم كانوا يقلدون أساتذتهم، ويميلون إلى اللعب بالكلمات والمعاني، وينعتون بعضهم بعضا بـ«البِكر»، ويقاطعون بعضهم بعضا.. «لا تحكي لنا حياتك.. فهي مليئة بالثقوب».. «تعرف كيف تعمل الخلاطة؟ إذن اطحن وتابع».. «الديكم الغاز في البيت.. إذن اذهب واسْلُق بيضةً». يتسلون بالتهامس فيما بينهم حتى لا نفهم ما يقولون ثم يصيحون «الاستمناء يصيب بالصمم». يتظاهرون بإبعاد أبصارهم عند رؤية لثة ملتهبة ويصرخون «لقد شاهدنا ما يكفي من الرعب خلال الحرب». كانوا يسمحون لأنفسهم بقول كل شيء، هم أصحاب الكلام وحس الدعابة. كانوا يطلقون العنان للقصص الخليعة، ويصدحون بالأغنية الفاحشة «DE MORPIONIBUS»[١]. كانت

(١) «DE MORPIONIBUS» اغنية فاحشة من التراث الشعبي الفرنسي.

الفتيات يبتسمن بحياء. وحتى إن لم يكن الأمر مسليا لهن، فالذكور كانوا يقدمون لهن عرضا وهم يتراقصون حولهن. كن يشعرن بنوع من الفخر. بفضلهم كن يُغْنِينَ مخزونَهن من الكلمات والتعابير التي ستجعلهن «متقدمات» في نظر الفتيات الأخريات عندما يقلن: «ALLER AU PIEU».. «UN FALZAR»[1] إلخ. ولكن كانوا جميعا، هؤلاء وأولئك، يتساءلون بقلق ماذا يمكن أن يقولوا عندما يكونون رأسًا لرأس، وكان يلزم التواطؤ الفضولي لكل أفراد المجموعة لدعمنا من أجل الذهاب إلى أول موعد.

(١) «ALLER AU PIEU» تعبير من العامية الفرنسية يعني حرفيا «الذهاب إلى السرير» أو «الذهاب إلى النوم».
«FALZAR» كلمة من العامية الفرنسية تعني «سروال» او كل ما يغطي الأطراف السفلى.

لعل المسافة الفاصلة بين الماضي والحاضر تقاس بذلك الضوء المنتشر على الأرض بين الظلال، المنساب على الملامح، المُبْرِز لطيات الفستان.. تقاس بذلك الوضوح الغسقي لصورة بالأبيض والأسود مهما كانت ساعة التقاطها.

على هذه، تظهر فتاة طويلة بشعر داكن، مصفف ومعتدل الطول، بوجه ممتلئ، وعينين شبه مغمضتين بسبب الشمس، تقف بشكل جانبي، مائلة قليلاً حتى تبرز منحنى فخذيها المشدودين في تنورة مستقيمة تنزل إلى وسط الساق، مع الحرص على إظهار نحافتهما. الضوء يلامس الوجنة اليمنى، ويحدد الصدر الذي أخذ يبرز من تحت كنزة في أعلاها ياقة «كلودين» بيضاء. إحدى الذراعين لا تظهر، بينما الأخرى تتدلى بكَمٍّ مطوي فوق ساعة ويدٍ كبيرة. الاختلاف مع الصورة الملتقطة في حديقة المدرسة مذهل. باستثناء الوجنتين، وشكل النهدين ـ صارا أكبر ـ لا شيء يذكر بالفتاة ذات النظارات، قبل عامين.

التُقِطَتِ الصورةُ في ساحة مفتوحة على الشارع، أمام مخزن وطيء ـ ذي باب مرقع ـ من تلك المخازن التي نصادف في القرى وضواحي المدن. في العمق تظهر جذوع ثلاثة أشجار، مغروسة في طرف أحد المنحدرات، سامقةً نحو السماء. على ظهر الصورة: ١٩٥٧، إيفيتو.

بلا شك لم تكن تفكر، في هذه اللحظة بالذات وهي تبتسم، سوى

في نفسها.. لا تفكر سوى في هذه الصورة التي تكرس الفتاة الجديدة التي تحس أنها صارتْها:

- وهي تستمع، في «الجُزيرة» التي تشكلها غرفتُها، لـ«سدني بكيت» و«إديت بياف» وأسطوانة الجاز المهداة من طرف «النقابة الدولية للأسطوانات»

- وهي تنسخ في كراسةِ الجُمَل التي ترشد إلى السُّبل السليمة للعيش: كونها مدونة في الكتب يضفي عليها حمولة من الحقيقة: «لا سعادة حقيقية إلا تلك التي نعيها ونحن نستمتع بها»[١].

صارت الآن واعية بوضعها الاجتماعي - لا يتوفر بيتها على ثلاجة، ولا حمام، والمراحيض في الباحة، ولم يسبق لها أن زارت باريس لحد الآن - وهو أقل من وضع قريناتها في القسم. وتأمل ألا ينتبهن إلى هذا الأمر، أو أن يغفرن لها وضعها ما دامت «ظريفة» و«غير مبالية»، وتقول «MA PIAULE» و«J'AI LES PETOCHES»[٢].

تركز كل طاقتها على أن «تكون لها هيئة». ومصدر انزعاجها الأول هو نظاراتها التي تقزم من عينيها وتضفي عليها مظهر «المهووسة بالدارسة». حين تخلعها، لا تستطيع تمييز أحد في الشارع.

في تمثلاتها للمستقبل البعيد - أي ما بعد الباكالوريا - ترى نفسها، جسدها، وهيئتها على ضوء المجلات النسائية.. نحيفة، بشعر طويل

---

(١) مقولة للكاتب الفرنسي «ألكسندر دوما الابن» (ALEXANDRE DUMAS).

(٢) «MA PIAULE» تعبير من العامية الفرنسية يعني «غرفتي».

«J'AI LES PETOCHES» تعبير من العامية الفرنسية يعني «انا خائف/خائفة».

يتماوج على الكتفين، وتشبه «مارينا فْلاَدِي» في «الساحرة»[1].. ترى نفسها وقد صارت معلمةً في مكان ما، ربما في البادية، ولديها سيارة، البرهان الأسمى على التحرر.. سيارة «2CV» أو «4CV».. ترى نفسها حرة ومستقلة. على هذه الصورة يخيم ظل الرجل، ذلك المجهول، الذي ستلتقيه كما في «يومًا ما سوف ترى»، أغنية «مولودي»[2].. أو وهما ينطلقان في اتجاه بعضهما مثل «ميشيل مورغان» و«جيرار فيليب» في «الفخورون»[3]. هي واثقة من ضرورة «الحفاظ على نفسها من أجله»، وتشعر أن بلوغ النشوة لوحدها يعتبر خطيئة في حق الحب الكبير. وبالرغم من أنها تسجل في دفترِ الأيامَ التي لا يمكن أن يحدث فيها حمل حسب «طريقة أوجينو»[4]، فإنها كانت تكتفي بالمشاعر. الطلاق كامل وتام عندها، بين الجنس والحب.

فيما بعد الباكالوريا، حياتُها درْجٌ عليها تَسَلُّقُه.. درجٌ يتيه هناك في ضباب الأعالي.

في ظل فقر تلك الذاكرة الضرورية للتصرف والعيش في السادسة

---

(١) «الساحرة» (LA SORCIERE) فيلم فرنسي سويدي من إخراج «اندري ميشيل» عام ١٩٥٦ ومن بطولته «مارينا فلادي» (MARINA VLADY) الممثلة الفرنسية ذات الأصول الروسية.

(٢) «مولودي» (MOULOUDJI) مغن فرنسي من أصل جزائري.

(٣) «الفخورون» (LES ORGUEILLEUX) فيلم فرنسي من إخراج «إيف أليغري» (YVES ALLEGRET) ومن بطولة الممثل الفرنسي «جيرار فيليب» (GERARD PHILIPE) والممثلة «ميشيل مورغن» (MICHELE MORGAN).

(٤) «كيوساكو أوجينو» (KYUSAKO OJINO) طبيب نساء ياباني، هو الذي اكتشف فترة الإباضة والخصوبة لدى المرأة.

عشر، فإنها ترى طفولتها على شكل فيلم صامت بالألوان، حيث تنبثق وتختلط صور الدبابات والأنقاض، ومسنين ماتوا، وإطراء مكتوب ومزخرف خاص بعيد الأمهات، وألبومات الرسوم المتحركة «بيكاسين»، وخلوة القربان المقدس، ولعبة الجدار. لا ترغب أيضًا في تذكر السنوات الأخيرة. فكل شيء فيها أخرق ويبعث على الخجل: التنكر في ملابس راقصة الكباريه، تسريحة الشعر المجعد، الجوارب القصيرة.

لم يكن بإمكانها أن تعرف آنذاك أنها ستحتفظ من هذه السنة ١٩٥٧ بـ:

ـ بار كازينو الشاطئ، في بلدة «فيكامب»، حيث انبهرت، بعد ظهر يوم أحد، برجل وامرأة يرقصان لوحدهما في الحلبة، على نغمات «البلوز» بإيقاع بطيء وهما ملتحمان. المرأة، شقراء وطويلة، ترتدي فستانًا أبيض بطيات. كان والداها، اللذان رافقاها على مضض، يتساءلان إن كان لديهما ما يكفي من مال لأداء ثمن المشروبات

ـ المراحيض الباردة جدًا، في ساحة المدرسة، التي اضطرت للنزول إليها في أحد أيام شباط/فبراير وهي في حصة الرياضيات، بسبب مغص شديد ألم بها. تبادر إلى ذهنها «روكنتان»[١] في الحديقة العمومية، وقالت مع نفسها «السماء خالية والرب لا يجيب». لا تملك اسما مناسبا لهذا الشعور بالوحدة مع فخذيها المُشَوَّكَيْن من البرد، وبطنها الذي يعتصره الألم.. ولا لذلك الإحساس الذي كان يداهمها أيام المعرض الترفيهي ـ وهي في الساحة ذاتها التي التقطت فيها الصورة ـ لما كان

---

(١) «روكنتان» (ROQUENTIN) الشخصية الرئيسية في رواية «الغثيان» لـ«جون بول سارتر».

يصلها من وراء الأشجار صدى مكبرات الصوت، والموسيقى والإعلانات التي تنصهر في ضوضاء مبهمة.. كأنها خارج الاحتفال.

بلا شك كذلك، كانت الأخبار، التي تصلها عن العالم، تنعكس في دواخلها ـ بدون أي أثر للإيديولوجيا التي كانت السبب في وقوعها ـ على شكل أحاسيس ومشاعر وصور. هكذا كانت ترى:

ـ أوروبا مقسمةً إلى شطرين بجدار حديدي، في الغرب الشمس والألوان، في الشرق الظل والبرد والثلج والدبابات السوفياتية التي ستعبر يومًا ما الحدود الفرنسية، وتستقر بـ«باريس»، كما فعلت في «بودابيست».. أسماء «إمري ناغي».. «كادار المهووس»[1]. كانت تُرَدِّدُ حروف اسمه بشكل متقطع.

ـ الجزائر كأرض ملتهبة بالشمس والدم، مليئة بالكمائن التي يتقافز حولها رجال قصار ببرانس متطايرة في الهواء.. هذه الصورة ذاتها مستوحاة من كتاب التاريخ الخاص بالرابعة إعدادي الذي يحكي عن اجتياح الجزائر في ١٨٣٠ المُجَسَّد في لوحة «معركة الزمالة». كان الجنود الذين سقطوا في جبال الأوراس يشبهون «نائم الوادي»[2]، وهم ممددون في الرمل حيث «يتهاطل النور» و «على الجنب الأيمن ثقبان أحمران».

إنها تمثلاتٌ تعكس على الأرجح قبولا بقمع المتمردين. بيد أن صورةً نُشرت في الصحيفة المحلية تظهر شبانًا فرنسيين في لباس أنيق

---

(١) «إمري ناغي» (IMRE NAGY) الزعيم الهنغاري الإصلاحي الذي أطاح به السوفيات في ١٩٥٦.
«يانوس كادار» (JANOS KADAR) زعيم هنغاريا من ١٩٥٦ إلى ١٩٨٨، وكان قد ساند الاجتياح السوفياتي لبلاده.

(٢) «نائم الوادي» (LE DORMEUR DU VAL) قصيدة شهيرة للشاعر الفرنسي «أرثر رامبو» والمقطعان بين مزدوجتين مأخوذان منها.

منخرطين في الحديث عند باب ثانوية بمنطقة «باب الواد» زعزعت هذه التمثلات. كأن القضية التي كان يموت من أجلها جنود في العشرين لم تعد تتمتع بما يكفي من التبريرات.

لا شيء من كل هذا في يومياتها التي شرعت في تدوينها، والتي تصف فيها ضجرها وتطلعها إلى الحب، في قاموسٍ رومانسي منمق. كتبت بأن عليها إعداد عرض حول «بوليُوكْتِ»[1]، ولكنها تفضل روايات «فرانسواز ساغان» التي، و«إن كانت غير أخلاقية في العمق، إلا أن فيها شيئًا من الحقيقة».

كان الناس يؤمنون عميقا بأن الأشياءَ كفيلةٌ بتحقيق حياة أفضل لهم. فكانوا، كل حسب إمكاناته، يعوضون موقدَ الفحم بآخر يشتغل بالغاز.. المائدةَ الخشبيةَ المغطاة بقماش ملمع بأخرى من الفورميكا.. وسيارةَ رونو «4CV» برونو «DAUPHINE».. ويعوضون آلةَ الحلاقة الميكانيكية والمكواةَ الحديدية بأخرى كهربائية.. والأوانيَ المعدنيةَ بأخرى بلاستيكية. كانت الآلة الأكثر طلبا والأكثر غلاء هي السيارة.. التي تعني الحرية، والتحكم الكامل في الفضاء، أي بشكل من الأشكال، التحكم في العالم. كان تعلم السياقة والحصول على رخصتها يعتبر نصرًا كبيرًا، يحتفي به الأقاربُ كما يحتفون بالحصول على شهادة التعليم الإعدادي.

كانوا يَتَسَجَّلُونَ في الدراسة بالمراسلة لتعلم الرسم، والإنجليزية، والـ«جي جيتسو»، والسكرتارية. يقولون: علينا في الوقت الراهن أن نعرف أكثر من الماضي. بعضهم لم يكن يخشى الذهاب في عطلة إلى بلد أجنبي دون معرفة لغته، كما يدل على ذلك حرف الـ«F» المثبت على

---

(١) «بوليوكت» (POLYEUCTE) مسرحية لـ«بيير كورنيل» (PIERRE CORNEILLE)

لوحة ترقيم السيارة. كانت الشواطئ مكتظة يوم الأحد بالأجساد المرتدية للـ«بيكيني» والمعروضة للشمس بدون أي مبالاة بما حولها. أخذ يقل، أكثر فأكثر، الاكتفاء بالجلوس على الصخر أو المشي بالقدمين فقط في الماء مع رفع التنورة قليلاً. كان الخجولون وكل من لا يمتثل لمتطلبات الفرحة الجماعية يوصفون بـ«المُعقدين». كل هذا كان يعلن قدوم «مجتمع الترفيه».

لكن الناس كانوا منزعجين من السياسة، من رؤساء الحكومة الذين يتغيرون كل شهرين، من إرسال الشباب، بلا كلل، للموت في الكمائن. يريدون السلام في الجزائر ولكن ليس «دين بيان فو» أخرى. يصوتون على «بوجاد»[1]، ويرددون «إلى أين نسير؟». رماهم انقلاب ١٣ أيار/ ماي بالجزائر العاصمة في أتون القلق والارتباك. أخذوا يخزنون الكيلوغرامات من السكر والليترات العديدة من الزيت تحسبا للحرب الأهلية. ولم يكونوا يثقون سوى في «الجنرال ديغول» لإنقاذ الجميع، الجزائر وفرنسا. وغمرهم الارتياح بعد أن قَبِلَ المنقذُ في ١٩٤٠، بكل شهامة، العودةَ للإمساك بمقاليد البلاد: كأنهم صاروا تحت حماية الظل الكبير لهذا الكائن الذي كانت قامته الفارعة ـ وهي موضوع سخريتهم الدائمة ـ البرهانَ الملموس على طابعه الخارق.

أما نحن، الذين نحمل ذكرى الوجهِ حاد القسمات المطل من تحت الـ«كيبي» والشاربِ الدقيقِ لما قبل الحرب، على الملصقات المعلقة في المدينة الخربة.. الذين لم نسمع نداء ١٨ حزيران/ يونيو، فقد أصابنا

---

(١) «بيير بوجاد» (PIERRE POUJADE) نقابي ورجل سياسة فرنسي، أطلق في الخمسينيات حركة «البوجادية» التي تدافع عن التجار والحرفيين وتنتقد بشدة النظام البرلماني للجمهورية الرابعة بفرنسا.

الذهول وخيبة الأمل من رؤية الخدين المترهلين، الحاجبين الكثين مثل حاجبي موثق بدين.. من سماع هذا الصوت المشوش برجفة الشيخوخة. كان هذا الشخص الذي أُخرِجَ من بلدة «كولومبي» مقياسًا مضحكًا للزمن الذين انساب منذ الطفولة إلى ذلك اليوم. وكنا نلومه على وضع نهاية سريعة ـ ونحن منشغلون في مراجعة «الجيب» و«الجيب التمام» في الرياضيات، وكتاب النصوص الأدبية «LAGARDE ET MICHARD» ـ لِمَا بدا لنا مطلعَ ثورةٍ.

كان «الحصول على شهادتي الباكالوريا» ـ الأولى في نهاية السنة الثانية ثانوي والثانية في نهاية العام الموالي ـ يعتبرُ البرهانَ الذي لا يرقى إليه الشك على التفوق الفكري وحتميةِ نجاح اجتماعي قريب. بالنسبة إلى معظم الناس، لم تكن الامتحانات والمباريات التي سنجتاز فيما بعد تكتسي كل تلك الأهمية، ويعتبرون أنه «من الجميل حقا الوصول إلى هذا المستوى».

على إيقاعات موسيقى فيلم «على جسر نهر كِواي»، كنا نحس أننا مقبلون على أجمل صيف في الحياة. فجأة، يمنحنا النجاح في «الباك» وجودا اجتماعيا، فكأننا لم نخذل تلك الثقة التي وضعتها فينا الجماعة. كان الوالدان يرتبان الأمور بشكل يسمح لهم بالقيام بجولة على الأقارب والأصدقاء لإعلان النبأ المجيد. ودائمًا ما يجدان من يمزح معهما: «أنا أيضًا اجتزت عبَّارَة 'الباك' على نهر السين في بلدة 'كودوبيك'!».

خلسة وتدريجيا، أخذ تموز/يوليو يشبه سابقَه ببرنامجه المتقشف: القراءة، الأسطوانات، مطالع القصائد. وانحسرت تلك النشوة. وكان يجب استحضار كيف كانت ستمضي العطلة في حالة الرسوب لكي

يستعيد النجاح قيمته. لعل الجائزةَ الجديرة بنيل «الباك» هي عيشُ قصة حب شبيهة بفيلم «ماريان». في انتظار ذلك، كنا نستسلم للمداعبة، باللقاء خلسة مع ذلك الفتى الذي ينزل أكثر فأكثر نحو أسفل الجسد عند كل موعد، والذي ينبغي التخلي عنه قريبا، فلا يجوز أن نمارس الجنس لأول مرة مع فتى تراه القرينات «متورد الوجه».

أخيرًا أخذ الفضاء يتسع، في هذا الصيف أو في غيره. كان الأكثر ثراء يقصدون إنجلترا، أو يتوجهون إلى «الكوت دازور» مع آبائهم. أما الآخرون، الذين يشتغلون كمدربين في مخيم صيفي، فيصير بإمكانهم تغيير الجو، واكتشاف فرنسا، وشراء كتب الدخول المقبل، من خلال الطواف على الطرق وهم ينشدون «PIROUETTE CACAHOUETE» رفقة دزينة من الأطفال الصغار الذين لا يكفون عن الضجيج أو الفتيات اللحوحات، وهم يحملون ترياق السم ووجبة خفيفة في حقائب الكتف. كانوا يحصلون على أول أجر لهم، على رقم التسجيل في التأمين الاجتماعي. كانوا فخورين بالمسؤولية التي على عاتقهم، هم الحاملون المؤقتون للمثال اللائكي والجمهوري الذي تعتبر «مناهج التربية النشيطة» تجسيدَه البهيج. وهم يراقبون مراحيض الأشبال المصطفين باللباس الداخلي أمام الصنابير، والموائد الصاخبة حيث يثير وصول صحن الأرز بالحليب صرخات الحماس، كان يغمرهم إيمان راسخ بأنهم يساهمون في إرساء نموذجٍ للنظام العادل والملائم والخيِّر.

إنها، في المحصلة، عطلةٌ مرهقة وبهية.. عطلة كنا متيقنين من أننا لن ننساها أبدًا، لما كنا نلتهم درجات الدُّرج للالتحاق بالقبو الذي تنبعث منه موسيقى الحفلة الراقصة، ونحن في خضم نشوة الاختلاط الجديد، بعيدًا أخيرًا عن عيون الوالدين، بالجينز الأزرق وسيجارة «كولواز» في اليد.. لما كان يغمرنا في تلك اللحظات الإحساس بشباب خالص وهش، كأننا سنموت في نهاية العطلة كما حدث في فيلم «رَقَصَتْ في

صيف واحد فقط»[1]. وبسبب هذا الإحساس المذهل كانت الواحدة منا تجد نفسها، بعد رقصة «سلو»، على سرير نقال أو على الشاطئ بقضيب ومَنِي رجلٍ ـ لم يسبق لها رؤيته سوى في الصور، وبالكاد ـ في الفم لأنها رفضت فتح فخذيها بعد أن تذكرت في اللحظة الأخيرة «تقويم أوجينو». بعدها، تطلع شمس يوم أبيض، لا معنى له. على الكلمات التي نود نسيانها فور سماعها ـ خذي قضيبي.. قومي بمصه ـ كان ينبغي وضعُ كلماتِ أغنيةِ حبٍ.. «كان بالأمس فقط، ذلك الصباح/ ولكنه الآن بعيدا راح».. تجميلُ قصة «المرة الأولى» ونسجُها على المنوال العاطفي.. تغليفُ ذكرى «افتضاض فاشل» بالكآبة. حين نخفق في ذلك، نشتري حلوى «الإكلير»، وبعض «البونبون»، نُغْرِقُ حزننا في القشدة والسكر، أو نتطهر بفقدان الشهية. ولكن، يظل شيء واحد مؤكد.. يستحيل تَذَكُّرُ كيف كان العالمُ قبل أن يَلْمَسَ جسدٌ عارٍ جسدَكِ.

كان العار يحوم حول الفتيات بشكل دائم. طريقة لباسهن وزينتهن كان يتربص بها دوما وصفُ «أكثر من اللازم»: قصير، طويل، مفتوح، ضيق، شفاف.. إلخ. طول كعبهن، من يخالطن، خروجهن ودخولهن، تُبَّانُهن كل شهر.. كل شيء فيهن كان تحت المراقبة الشاملة للمجتمع. بالنسبة إلى اللواتي يضطررن لمغادرة حضن الأسرة، وفر هذا المجتمع «دار الفتاة»، حي جامعي مفصول عن حي الذكور لحمايتهن من الرجال، ومن الرذيلة. لا شيء ـ لا الذكاء ولا المستوى الدراسي، ولا الجمال ـ كان يعتد به بقدر ما يعتد بالسمعة الجنسية للفتاة، أي قيمُتها في سوق الزواج التي كانت الأمهات ـ إسوة بأُمَّهاتهن ـ تتكفل بالوصاية عليها: إن نِمْتِ مع أحد قبل الزواج، فلن يرغب فيكِ أحد. هذا يعني ضمنيا:

(١) «رقصت في صيف واحد فقط» فيلم سويدي من إخراج «آم ماتسون» في ١٩٥١.

باستثناء حثالة سوق الذكور أو معوق أو مريض، أو ما هو أسوأ: مطلق. الأم العازبة لا تساوي شيئًا، وليس لها أمل في شيء، اللهم إلا أن يتحلى رجلٌ بنكران الذات ويُلَمْلِمَها، هي وثمرةَ خطيئتِها.

إلى حين تمام الزواج، كانت قصص الحب تجري تحت مراقبة الآخرين وسُلْطَتِهم.

مع ذلك، كنا نجرؤ على الذهاب بالمداعبات بعيدا أكثر فأكثر، ونمارس ما لم يكن يوصف سوى في كتب الطب: مص القضيب، لحس الفرج، والجنس من الدبر أحيانًا. كان الذكور يسخرون من العازل الطبي، ويرفضون القذف خارج الفرج كما يفعل آباؤهم. كنا نحلم بحبوب منع الحمل التي تباع، كما قيل، في ألمانيا. كل سبت، تتزوج تباعا فتياتٌ في لباسهن الأبيض وسريعًا ما يضعن بعد ستة أشهر ما يزعمن أنهم مواليد قبل الأوان، وإن بدوا في صحة جيدة.

عالقاتٌ بين حرية «باردو» وسخرية الذكور بالقول إن البقاء عذراء غير صحي، وتعليمات الوالدين والكنيسة، لم يكن لدى الفتيات ترف الاختيار.

لم يكن أحد يتساءل كم سيدوم حظر الإجهاض ومنعَ العيش معًا دون زواج. لم تكن مؤشرات التغيير الجماعي ملموسة في خصوصية الحيوات الفردية، اللهم إلا في هذا النفور والسأم الذي يدفع آلاف الأفراد، في الآن نفسه، إلى القول في قرارة أنفسهم: «ألن يتغير شيء أبدًا..!».

على الصورة الجماعية بالأسود والأبيض المحشورة داخل كتيب مزخرف، تظهر ست وعشرون فتاة مُوَزَّعَات على ثلاثة صفوف، في ساحة تحت أغصان شجرة كستناء الجبل، أمام واجهة ذات نوافذ بمربعات صغيرة يمكن أن تكون لدير أو مدرسة أو مستشفى. كلهن يرتدين وِزْرَاتٍ فاتحة اللون جعلتهن شبيهات بجماعة من الممرضات.

أسفل الصورة، كتب بخط اليد: ثانوية «جان دارك» ـ روان ـ قسم الفلسفة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩. لا وجود لأسماء التلميذات كأن يقينا راسخا كان يغمرنا، لحظة توزيع الصورة من طرف مندوبة القسم، بأننا سنتذكرهن جميعا. لاشك، كان من المستحيل أن نتخيل أنفسنا ونحن ننظر، بعد أربعين سنة وقد صرنا امرأة مسنة، إلى وجوه كانت ذات زمان مألوفة، ولا نرى في هذه الصورة المدرسية سوى ثلاثة صفوف من الأشباح ذات العيون البراقة والنظرات الشاخصة.

كانت فتيات الصف الأول جالسات على كراسٍ ذات أرجل أنبوبية، اليدان مضمومتان على الركب، الساقان مستقيمتان ومضمومتان، أو مجموعتان تحت المقعد، واحدة فقط وضعت ساقا على أخرى. أما فتيات الصف الثاني، الواقفات على الأرض، والصف الثالث، على مَصْطَبة، فيظهرن حد الخصر. أن تضع ست تلميذات فقط أيديهن في الجيوب ـ وهي علامة على سوء التربية ـ يؤكد أن الثانوية كانت ترتادها

في الغالب بنات البرجوازية. كلهن، باستثناء أربع، ينظرن إلى العدسة بابتسامة خفيفة. ما كن ينظرن إليه ـ المصور؟ الجدار؟ تلميذات أخريات؟ ـ قد اندثر بلا رجعة.

هي التي كانت في الصف الثاني. الثالثة من اليسار. يصعب التعرف على تلك المراهقة بوقفتها المثيرة في الصورة السابقة، الملتقطة قبل عامين فقط، في هذه الفتاة التي ارْتَدَتْ نظَّارَاتِها من جديد، والتي تجمع خلف رأسها شعرها الذي تفلت منه خصلة على العنق. الخصلات المجعدة على الجبين لا تمس جدية الملامح في شيء. لا أثر في محياها للاكتساح الذي تعرض له كيانُها كلُّه من طرف ذلك الشاب الذي افتضها جزئيا خلال الصيف، كما يدل على ذلك التبانُ الملطخُ بالدم الذي تحتفظ به سرًا بين الكتب في إحدى الخزائن.. ولا أثر لتصرفاتها وسلوكها: التسكع في الشوارع بعد المدرسة وهي تأمل رؤيته مجددا.. العودة إلى دار البنات والانخراط في البكاء.. قضاء ساعات وهي منكبة على موضوع عرض من العروض دون أن تستوعب شيئًا.. الاستماع بلا توقف إلى «ONLY YOU» حين تعود إلى بيت والديها يوم السبت.. الإفراط في التهام الخبز والبسكوت والشكولاتة.

لا أثر لثقل الحياة الذي كان يجب عليها الفكاك منه من أجل امتلاك لغة الفلسفة، من أجل ـ بعد الإمعان في دراسة ماهية الأشياء والضرورة الحتمية ـ قمع الجسدِ والرغبةِ في الأكل، وهاجس الدم الشهري الذي لم يعد يسيل.. من أجل التفكير في الواقع حتى يكف عن واقعيته، حتى يصير شيئًا مجردًا، غير ملموس، شيئًا فكريًا خالصًا. بعد أسابيع قليلة ستتوقف عن الإفراط في الأكل، وستشتري أقراص «NEO-

ANTIGRES».. ستتحول إلى وعي خالص. لما تصعد، بعد المدرسة، شارع «لامَارْنْ» المحفوف بأكشاك المعرض الترفيهي، كان صخب الموسيقى يتعقبها مثل الوَيْلِ.

لم تكن كل التلميذات الست والعشرين يتحدثن فيما بينهن. كل واحدة تختلط بحوالي عشر تلميذات فيما تتجاهل الأخريات ويتجاهلنها. كن جميعهن يعرفن بالحدس كيف يتصرفن، عند الالتقاء، قرب الثانوية: انتظار بعضهن أو لا.. تبادل الابتسامة لا غير.. عدم الانتباه لبعضهن بعض.

بيد أنه، من حصة للميتافيزقا إلى حصة للرياضة، تصير كلُّ الأصوات التي تجيب «حاضرة» عند النداء في القسم.. كلُّ الميزات الجسدية والهندامية لهؤلاء وأولئك، مطبوعةً في الأذهان لدرجة أن كل واحدة صارت تملك شيئًا من شخصية بقية الفتيات الخمس والعشرين. في المجموع، كانت تدور بالقسم بشكل دائم ست وعشرون رؤية للعالم، محملةً بالأحكام والمشاعر.

لا يمكنها ـ تمامًا مثل كل الأخريات ـ معرفة كيف ينظرن إليها، وهي تأمل فوق كل شيء ألا تكون محط أنظار أيٍّ منهن، كانت ضمن الفتيات اللواتي لا يثرن الانتباه.. ضمن التلميذات الجديات، بلا بريق معين أو سرعة بديهة لافتة. لم تكن ترغب في الكشف عن كون أبويها يملكان «مقهى ـ بقالة». تخجل من هوسها بالأكل، من غياب العادة الشهرية، من عدم معرفتها بوجود «السنة الإعدادية لولوج المدرسة العليا للأساتذة»، من ارتدائها سترات من الثوب السويدي وليس من الدان الحقيقي. تشعر بعزلة كبيرة. تعكف على قراءة «غبار» لـ«روزاموند ليمان»[1] وكل ما

---

(١) «روزاموند ليمان» (ROSAMOND LEHMANN) كاتبة بريطانية.

تستطيع إليه سبيلا في سلسلة «شعراء اليوم».. «سوبرفيل»، «ميلوش»، «أبولينير»[1]..

«كيف لي أن أعرف يا حبيبتي
إن كنت مازلت تنبضين بحبي...»

إذا كانت إحدى أهم المسائل الكفيلة بتعميق المعرفة بالذات، تكمن في إمكانية ـ أو عدم إمكانية ـ تحديد كيفية تَمَثُلِ الماضي في كل حقبة وكل سنة من الحياة، فما هي الذاكرة التي يمكن أن تكون لهذه الفتاة الواقفة في الصف الثاني؟ لعلها لم تعد لديها سوى ذاكرة الصيف الماضي.. ذاكرة بدون صور تقريبا.. انغماس ذلك الجسد الغائب في ثناياها.. جسد الرجل.

بخصوص المستقبل كانت تتعايش في دواخلها غايتان: ١) أن تكون نحيفة وشقراء، ٢) أن تكون حرة، مستقلة، ونافعة. كانت تحلم بأن تكون «ميلين دومونجو»[2] و«سيمون دوبوفوار».

رغم استمرار ذهاب الجنود إلى الجزائر، كان العصرُ عصرَ الأمل والعزيمة، والطموحات الجبارة على الأرض، وفي البحر والسماء..

---

(١) «جول سوبرفيل» (JULES SUPERVIELLE) شاعر فرنسي.
«تشيسلاف ميلوش» (CZESLAW MILOS) شاعر بولندي حائز على نوبل الادب في ١٩٨٠ ويعتر من بين أهم شعراء القرن العشرين.
«غيوم أبولينير» (GUILLAUME APPOLINAIRE) واحد من أهم شعراء فرنسا في القرن العشرين والمقطع بين مزدوجتين من نص في ديوانه «قصائد إلى لُو».
(٢) «ميلين دومونجو» (MYLENE DEMONGEOT) ممثلة فرنسية.

عصرَ الخُطَب العظيمة ومراسيم الحِداد الكبيرة.. «جرار فيليب».. «كامو». ظهرت السفينةُ العابرةُ للمحيطات «فرنسا»، وطائرة «لا كَرَافِيلْ» و«الكونكورد»، أصبح التعليمُ إجباريًا إلى غاية ستة عشر عامًا، أُنْشِئت دُورُ الثقافةِ، والسوقُ المشتركة.. و ـ في يومًا ما ـ سيحلُّ السلامُ في الجزائر. ظهرَ الفَرَنْكُ الجديد، لعبةُ «السكوبيدو»، الزبادي المنسم، علبُ الحليب الكرتونية، والترانزستور. لأول مرة صار بالإمكان الاستماع إلى الموسيقى في أي مكان، على رمال الشاطئ.. مشيا في الشارع. كانت نشوة الترانزستور تنتمي إلى صنفِ مجهولٍ في ذلك الوقت.. نشوةُ أن يكون المرء وحيدا دون أن يكون وحيدا.. نشوةُ التصرف كما يحلو للمرء بأصوات العالم وتنوعه.

وكان الصغار يولدون، أكثر فأكثر. كان هناك نقص في المعلمين والمعلمات، ويكفي أن يكون المرء في الثامنة عشرة وحاصل على «الباك» ليُرْسَلَ إلى القسم الرابع ابتدائي لتعليم القراءة في كتاب «ريمي وكوليت». كانت وسائل التسلية متوفرة: لعبة «هولا هوب»، برنامج «SALUT LES COPINS» و«AGE TENDRE ET TETE DE BOIS»[1].
لم نكن نتمتع بأي حق، لا التصويت ولا ممارسة الجنس ولا حتى إبداء رأينا. ليكون لك الحق في الكلام، يجب عليك أولا البرهنةُ على اندماجك في النموذج الاجتماعي المهيمن.. «الدخول» إلى سلك التعليم، أو إلى البريد أو إلى الشركة الوطنية للسكة الحديد.. العمل لدى «ميشلان»، «جيليت»، لدى شركات التأمين.. باختصار: «ينبغي كسبُ

(١) «SALUT LES COPAINS» برنامج إذاعي غنائي كان يبث على أمواج إذاعة «EUROPE 1» في نهاية الخمسينيات.
«AGE TENDRE ET TETE DE BOIS» برنامج تلفزيوني ترفيهي فرنسي يعنى بالموسيقى في بداية الستينيات.

قوت اليوم». لم يكن المستقبل سوى جُمْلةٍ من التجارب يَتَعَيَّنُ تكرارُها: الخدمةُ العسكريةُ لمدة أربعة وعشرين شهرا، العملُ، الزواجُ، الأبناءُ. كان يُنْتَظَرُ منا القبولُ تلقائيا بتَسَلُّم المشعل. أمام هذا المستقبل المحدد، كنا نسعى بشكل مبهم إلى البقاء شبانًا صغارًا أطول وقت ممكن. كانت الخطابات والمؤسسات متأخرة عن تطلعاتنا، ولكن الهوة بين المسموح بقوله مجتمعيا وغير المسموح به لنا كانت تبدو طبيعية ولا رجعة فيها، لم يكن هذا الأمر شيئًا يمكن التفكير فيه؛ بل فقط بإمكان كل واحد منا الشعور به في دواخله، وهو يشاهد شريط «اللاهث».

سئم الناس من الجزائر.. من قنابل «منظمة الجيش السري» الموضوعة على حواف النوافذ بباريس.. من عملية «بوتي ـ كلامار».. من الاستيقاظ على نبأ انقلاب عسكري لجنرالات مجهولين يعيقون المسيرة نحو السلام، نحو «تقرير المصير». تقبلوا فكرة الاستقلال وشرعية «جبهة التحرير الوطني»، وألفوا سمع أسماء قادتها، «بن بلة»، «فرحات عباس». وتزامنت رغبتهم في العيش في سعادة وهناء مع إرساء مبدأ من مبادئ العدالة، أي تصفية الاستعمار، الأمر الذي كان يستحيل تصوره إلى وقت قريب. مع ذلك، واصلوا إبداء التوجس ذاتها ـ وفي أحسن الأحوال اللامبالاة ـ اتجاه «العرب». كانوا يتجنبونهم ويتجاهلونهم، فلم يتقبلوا أبدًا الاختلاط في شوارعهم بأفراد يقتلُ أشقاؤُهم الفرنسيين في الضفة الأخرى للبحر المتوسط. من جهته، كان العامل المهاجر يدرك، لما يصادف الفرنسيين ـ وبطريقة أسرع وأكثر وضوحًا منهم ـ أنه يحمل وجه العدو. أن يعيشوا في العشوائيات، ويشتغلوا في المعامل أو في عمق حفرة من الحفر.. أن تكون احتجاجاتُهم في تشرين أول/اكتوبر قد تعرضت للمنع والقمع بعنف شديد ـ بل ربما تم رمي حوالي مائة منهم في نهر السين ـ فكل هذا كان يبدو طبيعيا ويدخل في نطاق السير العادي للأمور.

[فيما بعد، لما سنعلم بما جرى في يوم ١٧ تشرين أول/أكتوبر ٦١[١]، سنعجز عن قول ما كنا نعرف حقا إبان الأحداث، ولا نعثر في الذاكرة سوى على ذكرى وقت عذب.. ذكرى اقتراب الدخول الجامعي. وسيداهمنا إحساس بالانزعاج لأننا لم نكن ندري (علما أن الدولة والصحف فعلت بكل شيء كي لا نعرف ما حدث) كأنه لا يمكن تدارك الجهل والصمت أبدًا. ومهما فعلوا، فلن يتحقق أبدًا أي تشابه بين التدخل المشحون بالحقد للشرطة الديغولية ضد الجزائريين في تشرين أول/ أكتوبر، وتدخلها في شباط/فبراير الموالي ضد المعارضين لـ«منظمة الجيش السري». فلن يلحق أبدًا الموتى التسعة في محطة الميترو «شَرُون»[٢]، بموتى نهر السين الذين يُجْهَلُ عددهم].

لم يتساءل أحد إن كانت اتفاقات «إيفيان» نصرًا أم هزيمة، بل ساد الارتياحُ وابتدأ النسيان. ولم نعد نهتم بالبقية، بـ«الأرجل السود» و«الحَرْكِيين»[٣] هناك، والجزائريين هنا. كنا نتطلع إلى الذهاب، في الصيف المقبل، إلى إسبانيا، الرخيصة حسب أقوال من كانوا هناك.

---

(١) أحداث تشرين أول/ أكتوبر ١٩٦١ بباريس: في هذا اليوم قمعت الشرطة الفرنسية بعنف شديد مظاهرة للجزائريين بالعاصمة الفرنسية دعت إليها «جبهة التحرير الوطني»، وقد خلف تدخل الأمن الفرنسي عددا كبيرا من القتلى في صفوف المتظاهرين.

(٢) أحداث ٨ شباط/ فبراير ١٩٦٢ بباريس: الشرطة تتدخل بعنف ضد الفرنسيين المتظاهرين احتجاجا على أعمال «منظمة الجيش السري»، وسيموت تسعة من المتظاهرين في محطة الميترو «شرون».

(٣) «الأرجل السود» (LES PIEDS NOIRS) لقب يطلق على فرنسيي الجزائر الذين اضطروا إلى العودة إلى فرنسا بعد الاستقلال.
«الحَرْكِيين» لقب يطلق على الجزائريين الذين كانوا يحاربون إلى جانب الجيش الفرنسي في الجزائر.

تَعَوَّدَ الناسُ على العنف وعلى انقسام العالم: الشرق/ الغرب، خروتشوف الفلاح/ كينيدي الشاب الغض، بيبون/دون كاميو، «منظمة الطلبة المسيحيين»/ «اتحاد الطلبة الشيوعيين»، صحيفتا «L'HUMANITE/ L'AURORE»، فرانكو/ تيتو، «المسيحيون»/ «الشيوعيون» (الكاتو/ الكوكو). تحت غطاء الحرب الباردة بالخارج، كانوا يحسون بالاطمئنان بالداخل. باستثناء الخطب النقابية المغلفة بعنف مشفر، لم يكونوا يشتكون. فقد اختاروا الخضوع لـ«الدولة»، والإنصاتَ إلى «جون نوشير» وهو يلقي عليهم مواعظه الأخلاقية في الراديو كل مساء، والقبولَ بعدم تحقيق الإضرابات لأهدافها. لما صوتوا بـ«نعم» في استفتاء تشرين أول/ أكتوبر[١]، فلم يكن ذلك ينم عن إرادة انتخاب رئيس الجمهورية بالاقتراع العام، بقدر ما كان يفشي رغبة كامنة في الاحتفاظ بـ«ديغول» مدى الحياة، بل وإلى ما لا نهاية إن أمكن.

أما نحن، فكنا نستعد للحصول على الإجازة ونحن نستمع إلى «الترانزستور». كنا نشاهد «كليو من ٥ إلى ٧».. «السنة الأخيرة في مارينباد».. «بيرغمان».. «بونييل».. والسينما الإيطالية. نحب الاستماع إلى «ليو فيري»، «باربرا»، «جون فيرا»، «ليني إسكوديرو»، و«كلود نوغارو». نقرأ مجلة «HARA-KIRI». كنا نحس بأن لا شيء يجمعنا بشباب الـ«يي يي» اللذين يقولون «نحن لا نعرف هتلر»، ولا بنجومهم الذين كانوا أصغر منا: فتيات الضفائر وأناشيد ساحة المدرسة.. صبيان يصرخون ويتمرغون على المنصة. كان لدينا انطباع أنهم لن يلحقوا بنا أبدًا. بالنسبة إليهم صرنا «مسنين». ولعلنا سنموت، نحن أيضًا، في عهد ديغول.

---

(١) «استفتاء ٢٨ تشرين أول/أكتوبر ١٩٦٢ الذي جرى في فرنسا حول انتخاب رئيس الجمهورية بالاقتراع العام.

ولكننا لم نكن راشدين تمامًا. فالحياة الجنسية ظلت سرية وبدائية، محفوفة بالخوف من «الحادثة». لم يكن مسموحًا لأي واحدة بالتعرض لها قبل الزواج. كان الذكور يستعرضون معارفهم الإيروتيكية بإشارات فاحشة. ولكنهم لم يكونوا يقضون وطرهم سوى في ذلك الحيز من أجساد الفتيات الذي يَسْمَحُ لهم به حَذَرُهن. كانت البكاراتُ غير موثوقة.. كان الجنسُ قضيةً لم يتم الحسم فيها بشكل جيد، ويشكل موضوع ساعات من النقاشات بين الفتيات في غرف الحي الجامعي حيث لا يسمح لأي شاب بالولوج. كن يبحثن عن المعلومات في الكتب.. يقرأن «تقرير كنزي»[1] للاقتناع بمشروعية اللذة. كن يحافظن على حياء الأمهات اتجاه الجنس. كانت لديهن دائمًا كلمات خاصة بالرجال والنساء، لا يقلن «بلوغ النشوة» ولا «الذيل». وينفرن من تسمية الأعضاء التناسلية، وإن حدث ذلك فبصوت لا نبرة فيه، صوت خاص.. «الفرج»، «القضيب». أما الأكثر جسارة بينهن، فكن يقصدن خلسة مستشارة في «التخطيط الأسري»، وهي منظمة سرية. يحصلن على وصفة تخول لهن شراء «الحاجز المهبلي المطاطي» الذي يجدن صعوبة في تثبيته.

لم يكن يتخيلن أن الذكور الجالسين بجانبهن في المدرج كانوا يتهيبون من أجسادهن.. أنهم لما يردون على أسئلتهن البريئة بكلمات مقتضبة فليس من باب الاحتقار بل لخوفهم من عواقب «بطنهن/ الفخ»، وهم يفضلون في نهاية الأمر الاستمناء ليلا.

بسبب عدم استشعار الخوف في الوقت المناسب، في غابة الصنوبر أو على رمال شواطئ «كوستا برافا»، كان الزمن يتوقف عند هذا التبانِ

(١) «تقرير كينزي» (KINSEY REPORTS): التقرير عبار ة عن كتابين للباحث الأمريكي «ألفريد كينزي» (ALFRED KINSEY).

الأبيض منذ أيام. كان يجب «التعافي» من هذا الأمر بشكل (الذهاب إلى سويسرا بالنسبة إلى الأغنياء) أو بآخر (في مطبخ سيدة مجهولة ولا تَخَصُّصَ لها، تخرجُ مسبارًا ساخنًا من آنية للطبخ). لم تكن قراءة «سيمون دوبوفوار» تفيد في شيء اللهم إلا التأكد من مأساة التوفر على رحم. كانت الفتيات بالتالي يواصلن مراقبةَ حرارتهن مثل مريضات، وتحديدَ فترات الخطر: ثلاثة أسابيع من أربعة. كن يعشن في زمانين مختلفين.. زمنُ جميعِ الناس.. العروضِ الجامعية.. العطلِ، وزمنٌ آخر، متقلبٌ، مهددٌ، من المحتمل أن يتوقف في أي لحظة.. زمنُ دمِهِن القاتلُ.

في المدرجات، كان الأساتذة المرتدين لربطات العنق يشرحون أعمال الكتاب معتمدين على سيرهم الذاتية، ويقولون «السيد» «أندري مالرو»، و«السيدة» «يورنسار»، من باب الاحترام لهم كأحياء، ولم يكونوا يطلبون منا دراسة سوى الكتاب الذين رحلوا. لم نكن نجرؤ على الاستشهاد بـ«فرويد» مخافة التعرض للسخرية والحصول على نقطة سيئة، بالكاد نجازف بذكر «باشلار»، و«الزمن البشري» لـ«جورج بولي». كنا نعتقد أننا نبرهن على استقلالية في الفكر لما نعلن في بداية عرض من العروض أنه يجب «رفض الأوصاف الجاهزة»، وأن «التربية العاطفية» هي أول رواية حديثة. بين الأصدقاء، نتهادى الكتب التي على صفحاتها الإهداءات.. كانت تلكم حقبةَ «كافكا»، «دوستويوفسكي»، «فرجينيا وولف»، «لورانس دوريل». أخذنا أيضًا نكتشف الرواية الجديدة.. «بيتور»، «روب ـ غريي»، «سولير»، «ساروت». كنا نود الافتتان بها؛ ولكننا لم نجد فيها ما يكفي من العون على العيش.

كنا نفضل النصوص التي تتضمن الكلمات والجمل التي تلخص

معنى الحياة.. حياتنا نحن وحياة عاملات النظافة بالحي الجامعي، وعاملي التسليم، وتميزنا عنهم في الآن ذاته، لأننا، بخلافهم، «نطرح على أنفسنا الأسئلة». كنا في حاجة إلى كلماتٍ تستوعب مبادئ لتفسير العالم والذات.. كلماتٍ تُلهمُنا العِبْرَةَ: «الاغترابُ» وتوابعه، «مفهوم سوء النية»، «تأنيب الضمير»، «المحايثة»، «التعالي». كنا نُقَيِّمُ كل شيء بناء على مقدار «أصالته». ولولا الخوف من غضب الوالدين الذين يحتقرون المطلقين والشيوعيين على حد سواء، لكنا انخرطنا في الحزب الشيوعي.

في مقهى ما، وفي خضم الصخب والدخان، يفقد الديكور برمته معناه فجأة. نحس أننا غريبات عن العالم.. بلا ماض ولا مستقبل.. «عذاب بلا جدوى».

لما تطول النهارات في آذار/مارس، ونحس بالحرارة في ملابس الشتاء ـ لم يكن الصيف وحده المُقبلَ علينا، بل الحياة، بلا شكل محدد ولا مشروع معين ـ نشرع، ونحن في الطريق إلى الكلية، في ترديد «هذا الزمن اختل اختلالا.. الحياة قصة يرويها أحمق، قصة طافحة بالصخب والغضب، ولا معنى لها»[١]. بين الأصدقاء، كنا نتحدث عن تفضيلنا الانتحار بالأقراص المنومة، داخل حقيبة نوم في «لا سييرا دي كوادالاخارا».

في غداءات الأحد، منتصف الستينيات، لما كان الوالدان يغتنمان فرصة حضور الطالب ـ الذي جاء في نهاية الأسبوع من أجل الغسيل ـ لدعوة الأقارب والأصدقاء. كان حديث المدعوين يدور حول ظهور سوق كبير وتشييد مسبح بلدي.. حول سيارات رونو «4L» وستروين

---

(١) مقطع من مسرحية «ماكبيث» لوليام شكسبير، وقد ورد في النص الأصلي بالإنجليزية.

«AMI 6». أما الذين اقتنوا جهاز تلفزيون فيناقشون هيئة الوزراء، وأجساد المقدمات، يتحدثون عن النجوم الذين يشاهدون على الشاشة كأنهم يتحدثون عن جيرانهم. كانت مشاهدة إعداد «الستيك» بالإبزار مع «ريموند أوليفيي»، وبرنامج طبي من إعداد «إيغور باريز» أو برنامج «36 CHANDELLES» تمنحهم على ما يبدو حقا أكبر في الكلام. أمام تبرم وعدم اهتمام أولئك الذين لا يملكون جهاز تلفزيون، ولا يعرفون «زيترون» ولا «أن ـ ماري بيسون»، ولا الرضع الذين وضعوا في «طحانة» «جون كريستوف أفيرتي»[١]، يعودون إلى مسائل القرب وذات الاهتمام المشترك: أفضل طريقة لطهو الأرنب، مزايا الموظفين، محل الجزارة الذي يقدم أفضل خدمة.. يستحضرون عام ٢٠٠٠، ويحسبون احتمالات البقاء على قيد الحياة آنذاك، والعمر الذي سيبلغونه، كانوا يجدون تسلية في تخيل الحياة عند نهاية القرن.. تعويض الوجبات بأقراص، الروبوتات التي ستقوم بكل شيء.. منازل على سطح القمر. يتوقفون بسرعة عن هذا السرد؛ لأن الجميع لا يهتمون البتة بمعرفة كيف ستكون الحياة بعد أربعين عامًا، ما يهم فقط هو أن يظلوا على قيد الحياة.

كنا نشارك في الحديث بنية حسنة لا تخلو من ارتباك، يحفنا شعور بضرورة التضحية ـ من أجل المدعوين الذين يتحمسون لطبيعة دراستنا، من أجل الوالدين، من أجل مصروف الجيب والغسيل النظيف والمكوي

(١) «ليون زيترون» (LEON ZITRONE) وجه إذاعي وتلفزيوني كان معروفا في فرنسا وهو من أصل روسي.
«آن-ماري بيسون» (ANNE-MARIE PEYSSON) مقدمة إذاعية وتلفزيونية.
«جون كريستوف أفيرتي» (JEAN CHRISTOPHE AVERTY) منشط إذاعي وتلفزيون كان معروفا بعروضه المثيرة للجدل، منها أنه لم يتردد في وضع مسجم لرضيع في «طحانة» أمام الكاميرا.

الذي سنعود به ـ بتلك الساعات التي كان يجدر بنا تخصيصها لقراءة «الأمواج» لـ«فريجنيا وولف» أو «علم النفس الاجتماعي» لـ«ستوتزل». كنا نلاحظ، رغما عنا، الطريقة التي يُمْسَح بها الصحنُ بالخبز.. التي يتم بها تحريكُ الفنجان لإذابة السكر.. الاحترام الذي يقال به «إنه صاحب مكانة مرموقة»، فندرك فجأة شكل هذا الوسط العائلي من الخارج، عالمٌ مغلق لم يعد لنا. كانت الأفكار التي تشغلنا غريبة عن الأمراض.. عن الخضر التي يجب زرعها مع بروز القمر.. عن التوقيفات في المعامل.. عن كل ما يتم تداوله هنا. بالتالي نتخلى عن الحديث عن أنفسنا، عن دروسنا.. نحرص على عدم معارضتهم في أي شيء. كأن التصريحَ بأننا لسنا واثقين من الحصول، فيما بعد، على وضع جيد، ومن الانضمام إلى سلك التعليم، سيهدم معتقداتهم، وسيبدو لهم قدحًا في حقهم، وسيجعلهم يشككون في قدراتنا.

لم تعد ذكريات الاحتلال والقصف تثير حماس المدعوين. اختفى الميل إلى إحياء عواطف الأمس. وحين يقول أحدهم عند نهاية المأدبة «هذا واحد آخر لن ينال منه الألمان»، فيكون ذلك من باب الاقتباس فقط.

بالنسبة إلينا أيضًا، كانت الآحاد العظيمة لما بعد الحرب، و«وردة باريس» و«النبيذ الأبيض»[1] تبدو منتمية لزمنٍ ولى، زمنِ الطفولة الذي لم نكن نرغب في سماع أي شيء عنه. وإن حاول أحدُ الأقارب إحياءَه ـ «هل تتذكرين حين علمتك ركوب الدراجة؟» ـ فإنه يبدو لنا عتيقا. في

---

(١) «زهرة باريس» (FLEUR DE PARIS) أغنية من أداء «موريس لوشوفاليي» (MAURICE LE CHEVALIER) في ١٩٤٤ وكانت تعتبر نشيدا للتحرير.
«النبيذ الأبيض» (LE PETIT VIN BLANC) أغنية من أداء «لينا مارجي» (LINA MARGY) في ١٩٤٣.

خضم الأصوات، تطفو كلماتٌ وتعابيرٌ سمعناها منذ أن وجدنا في هذا العالم، ولكنها لم تعد تأتينا تلقائيا. كنا نحس أننا نسبح وسط صور متداخلة لآحاد ماضية، ونغوص إلى غاية ذلك الزمن الذي كنا نسمع فيه الحكايات عند عودتنا إلى المائدة لتناول التحلية، ونحن نلهث من اللعب، قبل أن نستمع لأناشيد لم يعد أحدٌ اليوم يبالي بترديدها.

على مقدمة هذه الصورة بالأسود والأبيض، ثلاث فتيات وشاب، منبطحين، لا يظهر منهم سوى الجذع، بينما باقي الجسد يغوص في منحدر، خلفهم شابان آخران، الأول واقف ومنحنٍ قليلاً، يبدو محلقا في السماء، الآخر جاثٍ، ويبدو أنه يضايق إحدى الفتيات بذراعه الممدودة. في عمق الصورة يظهر وادٍ منغمسٌ في الضباب. على ظهرها: الحي الجامعي «مون ـ سانت ـ إينيون»، حزيران/يونيو ٦٣، بريجيت، ألان، أني، جيرالد، أني، فريد.

هي التي في الوسط، صاحبة الشعرِ ذي الطوق على طريقة «جورج ساند»، والذراعين العريضين العاريين، هي الأكثر «أنوثة»، تظهر قبضتا يديها بشكل غريب من تحت جذعها المنبطح. لا نظارات. الصورةُ الْتُقِطَتْ في الفترة الفاصلة بين الامتحانات وموعد ظهور النتائج. كان ذلك زمنَ الليالي البيضاء، والنقاشات في الحانات والغرف بالمدينة، تليها مداعبات عارية إلى حد التهور على إيقاعات «LA JAVANAISE»[1].. زمنَ النوم بعد الظهر. كانت تصحو والإحساس بالذنب يداهمها، لأنها كانت خارج العالم، كما حدث في ذلك اليوم

(١) «LA JAVANAISE» أغنية شهيرة للمغني وكاتب الكلمات والملحن الفرنسي الشهير «سيرج غنيسبورغ» (SERGE GAINSGOURG).

الذي مر فيه متسابقو طواف فرنسا و«جاك أوكيتيل» منذ وقت طويل قبل أن تستيقظ. لقد دخلت زمن الحفلات وها هي تشعر في خضمه بالضجر .

كانت الفتاتان اللتان تحيطان بها تنتميان إلى الطبقة البرجوازية. لا تحس أنها منهما.. هي أفضل منهما وأكثر عزلة. من فرط مخالطتهما.. ومرافقتهما إلى الحفلات الراقصة الساهرة، يداهمها الإحساس بالانحطاط. لا تعتقد كذلك أن هناك ما يجمعها الآن بالعالم العمالي لطفولتها، بالتجارة الصغيرة لوالديها. لقد انتقلت إلى الجهة الأخرى، ولكن لا تعرف حقا جهة ماذا. خلفها، تتشكل حياتها من صور لا رابط بينها. لا تحس بوجودها في أي جهة.. فقط في رحاب المعرفة والأدب.

في تلك اللحظة، كان يستحيل استعراضُ كلِّ المعارف المجردة لهذه الفتاة، واستعراض كل قراءاتها. والإجازة في الأدب التي تستعد للحصول عليها ليست سوى مؤشر تقريبي لمستواها الحقيقي. فقد نهلت من الوجودية والسورليالية، وقرأت «دوستويوفسكي، «كافكا»، كل «فلوبير»، كما انْشَغَفَت بالجديد، «لوكليزيو»، الرواية الجديدة، كأن الكتب الحديثة هي وحدها القادرة على إلقاء النظرة السليمة على عالم «الآن» وال«هُنا».

أكثر من مجرد وسيلة للإفلات من الفقر، كانت الدراسةُ تبدو لها أداةً مميزةً لمقاومة الانحدار المتواصل لهذه «الأنثى» التي تبعث على الشفقة.. لمقاومة رغبة التيه في كيان رجل.. هذه الرغبة التي استبدت بها (صورة الثانوية، قبل خمس سنوات) والتي تغمرها بالعار. لا رغبة لديها في الزواج ولا إنجاب الأطفال. بالنسبة إليها الأمومة وحياة الفكر لا تلتقيان. هي، على كل حال، متأكدة من أنها ستكون أُمًّا سيئةً. مَثَلُها الأسمى هو «الارتباط الحر» الذي تحدثت عنه إحدى قصائد «أندري برتون».

في بعض الأحيان، تستبد بها الكآبة أمام كل ما راكمت من معارف. فجسدُها شابٌ وفكرُها عجوزٌ. كَتَبَتْ في يومياتها أنها تشعر «بالإرهاق

الشديد من كثرة الأفكار متعددة الوظائف، والنظريات».. أنها «بصدد البحث عن لغة جديدة».. وترغب في «العودة إلى ذلك الصفاء الأصلي». تحلم بالكتابة في لغة غير مألوفة. الكلماتُ بالنسبة لها «زخارفُ على طرف غطاءِ مائدةِ الليل». ولكن جُمَلاً أخرى تناقضُ هذا السأم: «أنا كلي إرادة ورغبة». لا توضح أي إرادة أو رغبة تعني.

ترى المستقبل دُرْجا كبيرًا أحمرَ اللون.. الدُّرْج الذي يظهر في لوحة «سوتين»[1] التي نشرت مجلة «LECTURES POUR TOUS» صورةً لها، وقَصَّتْها هي لتُلْصِقَها على جدار غرفتها في الإقامة الجامعية.

يحدث أن تتوقف عند صور طفولتها: اليوم الأول في المدرسة، المعرض الترفيهي وسط الأنقاض، العطلة في «سوطفيل-سور-مير»، إلخ. تتخيل نفسها أيضًا بعد عشرين عامًا، وهي تتذكر النقاشات حول الشيوعية، والانتحار ووسائل منع الحمل. «المرأة التي ستكونها بعد عشرين عامًا» محضُ فكرةٍ، مُجردُ شبح. فهي لن تبلغ ذلك العمرَ أبدًا.

عند رؤيتها على الصورة ـ وهي فتاة جميلة قوية ـ لا يمكن أبدًا التكهن بأن أكبر مخاوفها هو الجنون. لا ترى سوى الكتابة ـ وربما رجل ـ لحمايتها من هذ الجنون، مؤقتا على الأقل. شَرَعَتْ في كتابة رواية تتعاقب فيها صور الماضي، والحاضر، والأحلام الليلية، وتخيلات المستقبل، داخل «أنا» يُجسد «البديلَ» الذي انفصل عنها.

يغمرها اليقين بأنها بدون «شخصية».

---

(١) «حاييم سوتين» (CHAIM SOUTINE) فنان تشكيلي روسي عاش مدة طويلة في فرنسا، وهو معروف بأسلوبه المتميز في الرسم الذي يجمع بين الألوان الساخنة والأشكال الفريدة، ولوحة «الدرج الأحمر» من بين أشهر لوحاته وقد رسمها في ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤.

لا علاقة بين حياتها والتاريخ الذي أخذت آثارُه مع ذلك تترسخ فيها من خلال ارتباطها بالشعور بالبرد والجو الكئيب لشهر آذار/مارس ـ إضراب عمال المناجم ـ.. برطوبة نهاية أسبوع متزامن مع عيد العنصرة ـ وفاة البابا جون ٢٣ ـ.. بجملة قالها أحد الأصدقاء: «الحرب العالمية ستندلع بعد يومين» ـ أزمة كوبا ـ.. بتزامن الليلة التي أَمْضَتْهَا في حفل راقص من تنظيم «الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا» مع انقلاب الجنرالات، «سالان»، «شال»[١]، إلخ. لم يكن زمنُ الأحداث ولا الحوادث ـ تكره أخبار الحوادث ـ زمانَها، الذي يتشكل كليا من صور ذاتِها. بعد بضعة شهور، ستتلقى نبأ مقتل كينيدي في «دالاس» بلا مبالاة أكثر من تلك التي أبدتها اتجاه موت «مارلين مونرو» في الصيف السابق، لأن العادة الشهرية لم تأتيها منذ ثمانية أسابيع.

كان توالي ظهور الأشياء الجديدة بسرعة أكبر فأكبر يدفع بالماضي بعيدا أكثر فأكثر. لم يكن الناس يسألون عن جدواها، فقط كانت تحذوهم الرغبة في امتلاكها، ويتألمون لأنهم لا يكسبون ما يكفي من المال لاقتنائها جميعا وفورا. أخذوا يتعودون على تحرير الشيكات، ويكتشفون «الأداء بالتقسيط»، وقروض شركة «SOFINCO». كانوا يتعاملون بسلاسة مع الجديد، وصار من بواعث الاعتزاز استعمال المكنسة الكهربائية ومجفف الشعر الكهربائي. كان الفضول يغلب التوجس. أخذوا يكتشفون اللحم الخفيف الطهو، والمطهو باستعمال

---

(١) «الجنرال راوول سلان» و«الجنرال موريس شال» من القادة العسكريين الذين أعلنوا في ٢١ نيسان/ أبريل ١٩٦١ الانقلاب في الجزائر ردا على توجه رئيس فرنسا شارل ديغول نحو منح الاستقلال للجزائريين بعد ١٣٠ عاما من الاستعمار الفرنسي.

الكحول، و«ستيك تارتار»، و«ستيك بالإبزار»، والتوابل و«الكيت شاب»، و«البطاطس المهروسة الجاهزة»، و«البازلاء المجمدة»، و«قلب النخيل»، و«عطر ما بعد الحلاقة»، ورغوة «OBAO» في حوض الاستحمام، وأكل «CANIGOU» للكلاب. تركت محلاتُ «COOP» و«FAMOLISTERE» المكان للأسواق الكبرى حيث ينتشي الزبائن بتحسس السلع قبل أداء ثمنها. كان الناس يحسون فيها بأنهم أحرار، ليسوا في حاجة إلى سؤال أي أحد. كل مساء كانت متاجر «BARBES» تستقبل الزبائن بـ«بوفيه» قروي مجاني. كان حديثو الزواج المنتمون إلى الطبقة الوسطى يشترون التميز باقتناء آلة القهوة «HELLEM»، وعطر «EAU SAUVAGE» لـ«ديور»، وراديو تعديل التردد، وجهاز ستريو، والستائر «الفنيسية»، وقماش الخيش على الجدران، وصالون من خشب الساج، ومرتبات «DUNLOPILLO»، ومكتب «SECRETAIRE» أو «SCRIBAN»، الذي قرؤوا اسمه فقط في الروايات. كانوا يترددون على تجار التحف، ويقدمون للضيوف السمون المبخر، والأفوكادو بالجبمري، و«مخفوق البورغينيون»، ويقرؤون «PLAYBOY» و«LU» و«BARBARELLA»، و«LE NOUVEL OBSERVATEUR»، ومؤلفات «تيلهاد دو شاردان»[1]، ومجلة «PLANETE»، ويحلمون وهم يقرؤون الإعلانات الخاصة بالشقق «الفاخرة» ذات غرف الملابس، في «الإقامات» - الكلمة لوحدها توحي بـ«الرفاهية» - ويركبون الطائرة لأول مرة وهم يخفون خوفهم ويبدون تأثرهم لرؤية تلك المربعات الخضراء والذهبية تحتهم هناك، وينفعلون لأنهم لم يحصلوا بعد على خط الهاتف الذي طلبوا منذ عام كامل. آخرون لا يرون جدوى من التوفر عليه،

---

(١) «بيير تيلهاد دو شاردان» (PIERRE TEILHAD DE CHARDIN) رجل دين وعالم فرنسي كان معروفا بنظرياته حول تطور المخلوقات.

ويواصلون الذهاب إلى مركز البريد حيث يقوم العامل بإجراء المكاملة ويوجههم إلى مقصورة من المقصورات المخصصة للهاتف.

لم يكن الناس يشعرون بالملل. كانوا يسعون للاستفادة من كل جديد.

في كتيب ناجح، «أفكار حول ١٩٨٥»، كان المستقبل يبدو مشرقا، فالمهام الثقيلة وغير النظيفة ستوكل إلى الروبوتات. وسيكون من حق الجميع الولوج إلى الثقافة والمعرفة. وبشكل مبهم، بدت أول عملية جراحية لزراعة القلب، هناك بعيدا في جنوب إفريقيا، خطوة أولى صوب استئصال الموت.

كانت وفرة الأشياء تخفي ندرة الأفكار واهتراء المعتقدات.

كان الأساتذة الشباب يستعينون بمقرر «LAGARDE ET MICHARD» الذي دَرَسوا به في المرحلة الثانوية، ويمنحون نقطًا جيدة، ويُجرون فروضا فصلية، وينخرطون في نقابات تؤكد في كل منشور أن «السلطة تتراجع!». كان فيلم «الراهبة» لـ«ريفيت» محظورا. ويتم شراء الكتب الإيروتيكية بالمراسلة من عند مجلة «LE TERRAIN VAGUE». كان «سارتر» و«دوبوفوار» يرفضان الذهاب إلى التلفزيون (لم يكن أحد يأبه بذلك). وواصل الناس التشبث بقيم ولغات منهكة وبالية. فيما بعد، ونحن نتذكر الصوت المؤنب لـ«الدبدوب» في سلسلة الأطفال «BONNE NUIT LES PETITS»، سنشعر وكأن ديغول هو الذي كان يصاحبنا كل مساء.

كانت حركات النزوح تجري في كل الاتجاهات داخل المجتمع: الفلاحون ينزلون من الجبال في اتجاه الأراضي المنبسطة.. الطلبة الذين

نقلوا من مراكز المدن يصعدون إلى الإقامات الجامعية على الهضاب، ويتقاسمون في مدينة «نانتير» نفس الوحل مع المهاجرين القاطنين في العشوائيات.. المرحلون من الجزائر وأفراد أسر «المنظمة السرية»، الذين غادروا البيوت الواطئة بمراحيض في الخارج، يجدون أنفسهم جنبا إلى جنبا في مجمعات سكنية ضخمة مقسمة إلى وحدات كل واحدة تحمل حرف «F» متبوعا برقم. ولكن، لم يكن الناس يسعون إلى أن يكونوا معا، بل يرغبون فقط في التدفئة المركزية، والجدران النقية وحمام.

أخيرا، أباح القانونُ الشيءَ الأكثر تحريما.. ما لم نكن نعتقد أبدًا بإمكان إباحته: حبوب منع الحمل. لم نكن نجرؤ على طلبها من الطبيب الذي لا يقترحها علينا، خصوصًا إن لم نكن متزوجات. كان ذلك تصرفًا قليل الحياء. كنا نستشعر أن الحياة ستنقلب رأسًا على عقب مع حبوب منع الحمل.. معها صرنا حراتٍ في أجسادنا لدرجة مخيفة.. حراتٍ تمامًا مثل الرجال.

كان شباب العالم يعلن عن نفسه بعنف. وجَدَ في حرب الفيتنام حُجةً للتمرد، وفي «مائة زهرة» لـ«ماو» وسيلة للحلم. كان الفرح الخالص يعرف صحوة، تعبر عنها فرقة «البيتلز». مجرد الاستماع إليهم يوقظ في النفس الفرح. كانت الخفة تزحف أكثر فأكثر مع «أنطوان»، و«نينو فرير»، و«دوترون»[١].

(١) «أنطوان» (PIERRE ANTOINE MURACCIOLI)، و«نينو فيرير» (NINO FERRER)، و«دوترون» (JACQUES DUTRONC) كلهم مغنون فرنسيون لمعت أسماؤهم في الستينيات.

كان الكبار يتظاهرون بعدم رؤية أي شيء.. يستمعون إلى برنامج «LE TIRLIPOT» على أمواج إذاعة «RTL»، و«موريس بريو» على «أوروبا»، وبرنامج «دقيقة الحس السليم» لـ«سان غرانيي».. يقارنون بين جمال مقدمات التلفزيون.. يتساءلون مَنْ - بين «ميريي ماثيو» و«جورجيت لومير»[١] - ستكون «بياف» الجديدة. كانوا يخرجون من أجواء ملف الجزائر، فقد سئموا الحروب.. يتابعون بعدم ارتياح الدبابات الإسرائيلية وهي تسحق الجنود المصريين، وقد استبد بهم الارتباك أمام عودةِ قضية كانوا يظنونها محسومة، وتَحَوُّلِ الضحايا إلى فاتحين.

بما أن الأصياف أصبحت متشابهة، وبما أن الاهتمام بالذات فقط صار ثقيلا على النفس أكثر فأكثر، وبما أن واجب «تحقيق الذات» بات عالقا في دائرة فارغة من فرط العزلة والنقاشات في نفس المقاهي، وبما أن الإحساس بالشباب يتحول إلى شعور كئيب، ولا حدود لزمنه، وبما أننا أخذنا ننتبه إلى التفوق الاجتماعي للمتزوجين على العزاب، صرنا نحب بإصرار أكبر من المرات السابقة. وبمساعدة من لحظة سهو اتجاه تقويم «أوجينو»، يجد الشباب أنفسهم متزوجين، وذوي ذُرية عما قريب. فحدوث لقاء بين بويضة وحيوان منوي يسرع وتيرة تاريخ الأفراد. هكذا أخذنا نتمم الدراسة ونحن نشتغل مراقبات في إحدى الداخليات، أو في إعطاء الدروس الخصوصية. وكان الذهاب إلى الجزائر أو إفريقيا السوداء كـ«متعاونين» مغامرة مغرية.. مهلة أخيرة قبل الاستقرار بشكل نهائي.

---

(١) «ميريي ماثيو» (MIREILLE MATHIEU) مطربة فرنسية.
«جورجيت لومير» (GEORGETTE LEMAIRE) مطربة فرنسية.

مع الحصول على شغل قار، تفتح الأسر الجديدة حسابا بنكيا، وتأخذ قرضا من مؤسسة «COFREMCA» لتجهيز البيت بثلاجة ذات مجمد ومطبخ مختلط.. إلخ، ويكتشف أرباب هذه الأسر باستغراب ـ من خلال الزواج ـ أنهم فقراء أمام كل ما ينقصهم من أجهزة لم يكونوا يتخيلون أثمانها قبل ذلك، ولا ضرورتها التي لا تخفى على أحد الآن. بين ليلة وضحاها نصير كبارًا يمكن للوالدين أخيرًا أن ينقلوا إلينا ـ دون التعرض لأي رفض ـ خبرتهم بالأمور العملية للحياة: الادخار، تربية الأطفال، تنظيف أرضية المنزل.

كان لقب «مدام» مصحوبًا باسم عائلي آخر غير اسمكِ، غريبًا ومبعثًا للفخر. نلج نطاقَ الهم الدائم للعيش، دائرةَ إعداد الطعام مرتين في اليوم. نشرع في التردد على أماكن غير معتادة: متجر «CASINO»، وجناح المواد الغذائية بمتجر «PRISU» و«LES NOUVELLES GALERIES». تقل الرغبة في القيام بتصرفات متهورة.. في العيش كما في السابق.. في الخرجات الليلية مع الأصدقاء.. في الذهاب إلى السينما، مع وصول الرضيع الذي لا نتوقف، ونحن في الصالة المظلمة نتابع فيلم «السعادة» لـ«أنييس فاردا»، عن التفكير فيه، وهو الكائن الصغير ـ الوحيد في المهد ـ الذي نسارع إليه فور العودة إلى البيت، ونحس بالارتياح حين نراه نائما يتنفس بهدوء، وقبضتاه الصغيرتان مضمومتان.

بالتالي، نقتني جهاز التلفزيون الذي يختم مسلسل الاندماج الاجتماعي. في بعد ظهر يوم الاحد، نشاهد «LES CHEVALIERS DU CIEL»، و«MA SORCIERE BIEN AIMEE». يتقلص الفضاء وينتظم الزمن، الذي يصير موزعا بين: ساعات العمل، الحضانة، موعد الحمام والألعاب، والتسوق يوم السبت. نكتشف سعادة العيش في النظام. ونعوضُ الحزنَ الذي يداهمنا ونحن نرى مشروعا من مشاريعنا الفردية

يبتعد ـ الرسم، العزف، الكتابة ـ بالارتياح لمساهمتنا في المشروع الأسري.

وبسرعة تذهلنا، نشكل كلُنا خلايا صغيرةً محصنةً ومستقرة، ونستضيف بعضنا بعضا، نحن المتزوجين والآباء حديثا، وننظر إلى العزاب كفصيلة يعوزها النضج، لا يعرفون معنى الأقساط الشهرية، وعلب الحليب «BLEDINA» وإرشادات الدكتور «سبوك»، وتثير حريتهم في الذهاب والمجيئ غيظا مبهما.

لم نكن نجرؤ على تقييم ما نعيش في كنفه على ضوء الخطابات السياسية، وأحداث العالم. كنا فقط نُسْعِدُ أنفسنا بالتصويت ضد «ديغول»، ولصالح المرشح المفعم بالحياة الذي يغوص بنا اسمه بشكل مبهم في سنوات «الجزائر الفرنسية»: فرانسوا ميتران. في مسار الوجود الشخصي، لم يكن للتاريخ معنى. كنا فقط، وحسب سير الأيام، سعداء أو تعساء.

كلما أمعنا الغوص فيما نَعْتَبِرُه الواقعَ، العمل، الأسرة، يغمرنا إحساس باللاواقعية.

في فترات ما بعد الظهر المشمسة، تتجاذب النساءُ الشاباتُ، على مقاعد الحديقة العمومية، أطرافَ الحديث حول الحفاظات، وتغذية الأطفال، وهن يراقبن الألعاب الجارية في صندوق الرمل. تبدو ثرثرة المراهقة وبوحها في طريق العودة إلى البيت، بعيدة الآن. ينتابهن شعور بعدم تصديق حياتهن السابقة ـ قبل ثلاث سنوات فقط ـ ويغمرهن الندم لأنهن لم يستمتعن بها أكثر. لقد دخلن إلى نطاق الهَمِّ: هَمُّ الطعام، هَمُّ الغسيل، هَمُّ أمراض الأطفال. كن يعتقدن أنهن لن يشبهن أمهاتهن قط،

وهاهن يأخذن مكانهن، بخفة أكبر، بنوع من اللامبالاة التي تشجع عليها قراءة «الجنس الآخر» و«مولينكس يحرر المرأة»، ويرفضن - على عكس أمهاتهن - منح أي قيمة لما يشعرن أنهن مجبرات على القيام به دون معرفة لماذا.

في المآدب التي ندعو إليها - بقلقٍ وحماسِ الأسرةِ المكونة حديثًا - الأصهارَ لنبرهن لهم أننا نعيش في رفاهية ولدينا ذوق أرفع من باقي أفراد العائلة، وبعد استعراض الستائر الفنيسية، ولمس حرير المراتب، والاستماع إلى قوة مبكرات الصوت، وإخراج طقم أواني الزواج - ينقصه بعض الكؤوس - وبعد أن يأخذ الجميع أماكنهم حول المائدة، وبعد التعليق على كيفية تناول «مخفوق البورغينيون» - الذي أخذنا وصفته من صفحات مجلة «ELLE» - تنخرط أحاديث البورجوازية الصغيرة في مواضيع العمل، والعطلة، والسيارات، و«سان أنطونيو»، والشعر الطويل لـ«أنطوان»، وقبح «أليس سباريتش»، وأغاني «دوترون». لم نكن نفلت من النقاشات الدائرة حول الجدوى الاقتصادية لعمل المرأة أو بقائها بالبيت. كنا نسخر من «ديغول»... «فهمتكم».. «عاشت كيبيك حرة!»[1]، (كأن إرغامه من طرف ميتران على إجراء دور ثانٍ من الانتخابات الرئاسية

---

(١) «فهمتكم» (JE VOUS AI COMPRIS) هي العبارة التي افتتح بها الجنرال شارل ديغول خطابه الشهير بالجزائر العاصمة في ٤ حزيران/ يونيو ١٩٥٨ وهو الخطاب الذي فتح مرحلة جديدة في قضية الجزائر انتهت باستفتاء الاستقلال في تموز/ يوليو ١٩٦٢.
«عاشت كيبك حرة» (VIVE LE QUEBEC LIBRE) عبارة اختتم بها ديغول خطابا ألقاه في ٢٤ تموز/يوليو ١٩٦٧ في إقليم «كيبك» بكندا، وهي تذكر بـ«عاشت فرنسا حرة» التي كان يختتم بها خطابته إبان مقاومة الاحتلال الألماني لفرنسا، وقد تسببت هذه العبارة في أزمة حادة مع كندا.

أطلق العنان لعدم التقدير، وكشف فجأة الطابع الهرم لهذا الرجل الذي لم تعد صحيفة «LE CANARD ENCHAINE» تسميه سوى «شارل المهزوز»). كنا نحتفي بذكاء ونزاهة «مانديس فرانس»، ونتكهن بمستقبل «جيسكار دي ستانغ»، و«ديفير»، و«روكار». كانت المائدة صاخبة بالأحاديث الهادئة والمتفرقة والساخرة حول المخبرين، و«مورياك» وضحكته المكتومة، والحركات اللاإرادية لـ«مالرو» (هو الذي كنا نتخيله «تشين الثوري»[١]، صارتْ مجردُ رؤيته بمعطفه في المناسبات الرسمية تدفعنا إلى فقدان أي إيمان بالأدب).

أخذ ذكر الحرب على أفواه من هم فوق الخمسين يُخْتَزَلُ في طرائف شخصية محفوفة بالكثير من المجد الزائف، تبدو لمن هم دون الثلاثين مجرد هذيان. كنا متفقين على أن هناك خطب الذكرى وأكاليل الزهور المخصصة لهذا الحدث. كانت تنبثق أسماء من الجمهورية الرابعة، «بيدو»، «بيني»[٢]، ولا توقظ في ذاكرتنا أي صورة معينة، اللهم إلا حقيقة أننا «كنا هناك»، ونكتشف باستغراب، من خلال الحنق الذي مازالت تثيره ـ «ذلك الوغد 'غي مولي'»[٣] ـ أنها لعبت دورًا مهمًا. أما الجزائر، التي تحولت إلى أرض بعثة ذات مزايا مالية بالنسبة إلى المدرسين الشباب، فقد طُوِيَّتْ صفحتُها.

---

(١) «تشين» (TCHEN) شخصية رئيسية في رواية «الشرط الإنساني» (LA CONDITION HUMAINE) للكاتب الفرنسي «أندري مالرو» (ANDRE MALREAUX).

(٢) «جورج بيدو» (GEORGE BIDAULT) رجل سياسي فرنسي تقلد عدة مناصب وزارية وكان رئيسا للحكومة الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية.
«إنطوان بيني» (ANTOINE PINAY) سياسي فرنسي تقلد عدة مناصب من بينها رئيس الحكومة في بداية الخمسينيات.

(٣) «غي مولي» (GUAY MOLLET) سياسي فرنسي تقلد عدة مناصب من بينها رئيس الحكومة في النصف الثاني من الخمسينيات.

كان الجميع يتجنب ذكر وسائل منع الحمل لأنها تخيف كثيرًا المآدب العائلية. أما «الإجهاض» فكانت كلمةً يستحيل النطقُ بها.

نغير الأطباق لتقديم التحلية، التي كان مصيرها الاستخفاف، تمامًا مثل «مخفوق البورغنيون» الذي لم يحظ ـ عوض عبارات الإطراء المنتظرة ـ سوى بالفضول المصحوب بتعاليق مخيبةٍ ـ مقارنة بالجهد الذي بذلناه لإعداد الصلصة ـ بل ومشوبةٍ حتى ببعض التعالي. بعد احتساء القهوة، تنتظم لعبة البريدج على المائدة التي تم تنظيفها. يرفع الوسكي صوت الصِّهْر ويقويه.. هل من المعقول أن نسمع دائمًا أن «عشرة آلاف إنجليزي ارتموا في 'التِيمْزْ' لأنهم لم يلعبوا الورقة الرابحة»!

وفي خضم الإحساس بالامتلاء الذي يغمر ملامح العائلة الجديدة، وغمغمة الطفل الذي أخذ يصحو من القيلولة، ينتابنا شعور خاطف بأن كلَّ هذا مؤقتٌ. ونستغرب لوجودنا هنا، ولحصولنا على ما كنا نتمناه: رجل، وطفل، وشقة.

على الصورة الملتقطة بالداخل بالأبيض والأسود، تظهر في لقطة مقربة سيدةٌ شابة وطفلٌ صغير يجلسان جنبا إلى جنب على سرير تم تحويله إلى مرتبة عليها وسائد، أمام نافذة بستائر شفافة، على الجدار قطعة إفريقية. ترتدي طاقما نسائيا مزدوجا ـ من كنزة وسترة ـ ذا لون فاتح مع تنورة قصيرة. شعرها، ملفوف هذه المرة أيضًا بعصابة الرأس، وغير متناسق، يعمق الشكل البيضاوي للوجه ذي الوجنتين اللتين تزيد ابتسامة عريضة في إبرازهما. لا تسريحة الشعر ولا اللباس متوافقان مع تلك الصورة التي ستلتصق، فيما بعد، بسنة ٦٦ أو ٦٧. وحدها التنورة القصيرة تطابق الموضة التي أطلقتها «ماري كانت». تمسك بكتف الطفل، ذي العينين المتقدتين، والهيئة اليقظة.. يرتدي كنزة بياقة مدورة وسروال بيجامة. الفم مفتوح على أسنان صغيرة لأن الصورة التقطت وهو يتكلم. على ظهرها: شارع «لُوفِرْكِي»، شتاء ٦٧.

هو إذن ـ غير المرئي هنا ـ من التقطها.. الطالبُ المشاغبُ المتقلبُ الذي صار في أقل من أربع سنوات زوجا وأبا وإطار إداريًا في مدينة جبلية. حتما هي صورة الأحد، اليوم الوحيد الذي يكونون فيه معا.. اليوم الوحيد الذي ينسجون فيه ذاكرتهم المشتركة ـ في خضم نسمات الغذاء الذي يطبخ على نار هادئة، وثرثرة الطفل وهو يرتب قطع «اللِّغو»، وإصلاح خزان الماء بالمرحاض، كل هذا على خلفية نغمات

«هدية موسيقية» لـ«باخ» ـ ويعملون على ترسيخ الإحساس بأنهم، في نهاية المطاف، سعداء. والصورة تعزز هذا النسيج، وتؤكد استمرار «الأسرة الصغيرة» وتُشَكِّلُ ضمانةً لهذا الاستمرار بالنسبة إلى أجداد الطفل الذين توصلوا بنسخة منها.

في هذه اللحظة بالذات، من شتاء ٦٧ ـ ٦٨، لم تكن تفكر، بلا شك، في أي شيء، وهي في غمار نشوة تلك الخلية التي تضمهم هم الثلاثة، والتي يمكن أن تزعجها رنة الهاتف أو جرس الباب.. نشوة التخلص مؤقتا من الانشغالات التي تهم أساسًا الحفاظَ على هذه الخلية: قائمة التسوق، تفقد الغسيل، «ماذا ستعدين لنا للعشاء هذا المساء؟».. هذا الترقب الدائم للمستقبل الفوري، الذي يزيد في تعقيد الواجهة الخارجية لواجباتها: عملها كأستاذة. اللحظات العائلية الحقة هي تلك التي تجعلها تحس، وليس تلك التي تجعلها تفكر.

ما تعتبره أفكارًا حقيقية تأتيها لما تكون وحيدة أو مع الطفل في نزهة. ليست الأفكار الحقيقية بالنسبة إليها هي التأملات حول طرق حديث الناس وأنماط لباسهم، ولا حول مستوى ارتفاع الطوار بالنسبة إلى عربة الأطفال، ولا حول منع «الحواجز» لـ«جان جونيه»[1]، ولا حرب الفيتنام، بل هي الأسئلة حول نفسها، حول الكينونة والتملك، حول الوجود.. إنها تعميق التفكير في تلك الأحاسيس المنفلتة، التي يستحيل إيصالها إلى الآخرين.. أي كل ما سيشكل، لو كان لديها وقت للكتابة ـ لم تعد لديها حتى فسحة للقراءة ـ مادةَ كتابِها.

---

(١) «الحواجز» مسرحية لـ«جون جونيه» ألفها في ١٩٦١، وتم عرضها في ١٩٦٦، وقد اعترض عليها بشدة أتباع اليمين المتطرف لدرجة أنهم رموا بالفئران والغاز المسيل للدموع على خشبة مسرح «أوديون» بباريس. وتتناول المسرحية فظاعات الجيش الفرنسي إبان حرب الجزائر.

في يومياتها، التي لم تعد تفتحها إلا نادرًا كأنها تشكل تهديدا للخلية الأسرية.. كأنها فقدت الحق في الحميمية، كتبتْ: «لم تعد لدي أي أفكار بالمرة. لم أعد أحاول فهمَ حياتي».. و«أنا برجوازيةٌ صغيرة بلغتْ هدفَها». يداهمها شعور بأنها حادت عن أهدافها السابقة.. بأنها لم تعد تحقق سوى التقدم المادي. «أخاف أن يدوم بي المقام في هذه الحياة الهادئة والمريحة.. أن أصرف الأيام دون الانتباه إلى الأمر». في اللحظة ذاتها التي صدرت عنها هذه الملاحظة، كانت تدرك أنها غير مستعدة للتخلي عن كل ما لا يظهر أبدًا على صفحات يومياتها: هذه الحياة الأسرية.. هذه الحميمية المشتركة في نفس المكان.. الشقة التي تهفو إليها بعد انتهاء الحصص الدراسية.. النوم معا.. صوت آلة الحلاقة الكهربائية صباحا.. حكاية «الخنازير الثلاثة الصغار» مساء.. هذا التكرار الذي تكرهه وتتعلق به.. أي كلُ ما افتقدَتْ لما ابتعدتْ مؤقتا لمدة ثلاثة أيام من أجل اجتياز مباراة الحصول على شهادة الكفاءة للتدريس في المستوى الثانوي.. باختصار، كلُ ما يعتصر قلبَها لما تتخيل فقدانه بغتةً.

لم تعد تحلم، كما في السابق، بنفسها في شاطئ الصيف المقبل، أو بنفسها كاتبة تنشر مؤلَّفَها الأول. صار المستقبل يلوح لها في أشكال مادية واضحة: الحصول على مركز مهني أفضل.. ترقيات وممتلكات.. دخول الطفل إلى الحضانة. هذه في الواقع ليست أحلاما بل توقعات.

غالبا ما تعود إلى صور الماضي، لما كانت وحيدة، وتعيد رؤية نفسها في شوارع المدن التي مرت منها، في الغرف التي عاشت فيها ـ في «روان» بدار البنات، في «فينشلي» بلندن كمساعدة لدى إحدى الأسر، في «روما» لقضاء عطلة بنزل في شارع «سيرفيو توليو». يبدو لها أن هذه الـ«أناوات» مازالت تواصل حضورها. باختصار، انقلب لديها الماضي والمستقبل.. والماضي هو ما ترغب فيه الآن وليس المستقبل: أن تجد نفسها في تلك الغرفة بروما، صيف ١٩٦٣. في يومياتها كتبت:

«من فرط النرجسية، أرغب في رؤية ماضيّ بحروف سوداء على صفحة بيضاء، وبالتالي أن أكون ما لست عليه».. و«ما يؤرقني هي صورة معينة للمرأة.. ربما علي السير في هذا الاتجاه».

في لوحة لـ«دوروثي تانينغ» شاهدتْها قبل ثلاث سنوات في معرض بباريس، نرى امرأة بصدر عار، وخلفها صف من الأبواب المواربة. عنوانها: «عيد ميلاد»[1]. تعتقد أن هذه اللوحة تمثل حياتها، وأنها بداخلها، كما كانت، في الماضي، داخل «ذهب مع الريح» وداخل «جين إير»، وفيما بعد داخل «الغثيان». كلما قرأتْ كتابا ـ «إلى الفنار»، «سنوات ضوئية»[2] ـ تساءلت إن كانت قادرة على سرد حياتها بالطريقة ذاتها.

تأتيها صور خاطفة لأبويها في تلك المدينة الصغيرة في منطقة النورموندي: أمُها وهي تنزع بلوزتها لأداء صلاة القربان المقدس.. والدُها وهو يصعد من البستان، والمعزقة على الكتف.. عالم بطيءُ الخطى مازال على قيد الوجود.. عالم يفوق في لا واقعيته أي فيلم.. عالمٌ بعيدٌ عن هذا الذي تعيش فيه، الحديثِ، المتعلمِ، الذي يتقدم.. نحو ماذا؟ من الصعب الجزم بالجواب.

لا نقطة التقاء بين ما يجري في العالم وما يحدث لها. إنهما سلسلتان

---

(١) «عيد الميلاد» (BIRTHDAY) لوحة تعود إلى ١٩٤٢ من إبداع «دوروثي تانينغ» (DOROTHEA TANNING)، الفنانة التشكيلية الامريكية التي كانت معروفة بتوجهها السوريالي في الاربعينيات قبل أن تغير أسلوبها ابتداء من منتصف الخمسينيات.

(٢) «إلى الفنار» (TO THE LIGHTHOUSE) من النصوص الشهيرة للكاتبة الإنجليزية «فرجينيا وولف».

«سنوات ضوئية» (LES ANNEES LUMIERES) رواية لـ«سيرج رضواني» (SEGRE REZVANI) الكاتب والرسام الفرنسي ذي الأصول الإيرانية الروسية.

متوازيتان. واحدة، مجردة، عبارة عن أخبار يلفها النسيان فور العلم بها. الأخرى عبارة عن مشاهد ثابتة.

في كل لحظة من هذا الزمن، وإلى جانب ما يعتبرُ الناسُ قولَه وفعلَه طبيعيًا، وإلى جانب ما تفرضُ الكتبُ والملصقاتُ بالميترو والحكاياتُ الساخرةُ، التفكيرَ فيه، توجد كل تلك الأشياء التي يسكت عنها المجتمع وهو غير واعٍ بذلك، ليَحْكُمَ بالمعاناة في خضم العزلة، على أولئك الذين يشعرون بها ويعجزون عن وصفها. هذا الصمتُ ينكسر فجأة في يوم من الأيام، أو بشكل تدريجي، فتبدأ الكلمات في الانبثاق على وجه تلك الأشياء التي تم تحديدها أخيرا، بينما تتشكل تحتها ضروبٌ أخرى من الصمت.

سيتنافس الصحافيون والمؤرخون، فيما بعد، على تذكر جملة لـ«بيير فيانسون ـ بونتي» في صحيفة «LE MONDE» بضعة أشهر قبل ماي/أيار ٦٨ : «فرنسا تشعر بالضجر!».. ولعل من السهل العثور على صور شاحبة لنا، تطفح كأبة لا تاريخ لها.. على آحاد أمام المُنَشِّطة «أَنْ ماري بيسون». ولعلنا كنا متأكدين من أن جميع الناس يعيشون الوضع نفسه.. عالم جامد في كأبة موحدة. بيد أن التلفزيون سيعمل، من خلال سلسلة من المشاهد الثابتة بعدد محدود من الفاعلين، على نسج رواية لا تتغير أبدًا للأحداث، وتفرض بالتالي الانطباع بأننا كنا جميعا، في تلك السنة، نبلغ ما بين الثامنة عشر والخامسة والعشرين، ونرشق الفرق الخاصة

للشرطة بالحجارة ونحن ملثمون. ومن فرط تكرار المشاهد الملتقطة بالكاميرات، كنا على الأرجح نميل إلى كبت مشاهد حكايتنا الشخصية في ماي/أيار.. تلك المشاهد التي لم تكن معروفة ـ ميدان المحطة المهجور في يوم أحد، بلا مسافرين ولا صحف في الأكشاك ـ ولا كانت مجيدةً: لما داهمنا الخوفُ من نقص الأموال (سارعنا إلى سحبها من البنوك)، والوقود، وبالخصوص الطعام فقمنا بتكديس عربة المشتريات في متجر «CARREFOUR»، بدافع من ذاكرة الجوع التي وَرِثْنَا.

كان فصلَ ربيعٍ شبيهًا بالفصول الأخرى، بشهر نيسان/أبريل تتخلله الزخات المطرية، وبعيد فصح متأخر. كنا قد تابعنا الألعابَ الأولمبيةَ الشتويةَ مع «جون كلود كيلي»، وقرأنا «إليز أو الحياة الحقة»[١]، وغيرنا بفخر الـ«R8» بـ«فياط»، وشرعنا في دراسة «كانديد»[٢] مع تلاميذ السنة السادسة من التعليم الثانوي، ولم نكن نعير سوى اهتمام خفيف للاضطرابات في الجامعات الباريسية التي ينقل الراديو أخبارها.. بلا شك، سيتم، كما هي العادة، قمعُها من طرف السلطة.

ولكن السوربون أغلقت أبوابها. لم تُجْرَ الاختباراتُ الكتابيةُ لنيل الشهادة المهنية لتدريس الثانوي. حدثت مواجهاتٌ مع الشرطة. في مساء أحد الأيام، سمعنا في إذاعة «أوروبا ١» أصواتا لاهثة.. نُصِبَتُ الحواجزُ في الحي اللاتيني كما كان الأمر في الجزائر العاصمة قبل عشر سنوات..

---

(١) «إليز أو الحياة الحقة» (ELISE OU LA VRAIE VIE) رواية للكاتبة «كلير إتشيريلي» (CLAIRE ETCHERELLI) صدرت في ١٩٦٧ وأثارت اهتماما واسعا، وتدور أحداثها إبان حرب الجزائر وتحكي عن الشابة «إليز» التي تقع في حب جزائري وتغوص في وصف عالم العمال والعلاقات المعقدة بين فرنسا ومستعمرتها.

(٢) «كانديد» (CANDIDE) نص سردي للفيلسوف الفرنسي «فولتير».

زجاجات المولوتوف.. عدد من الجرحى. حينها أدركنا أن شيئًا ما يحدث، ولم نعد نرغبُ في استئناف حياتِنا العادية في اليوم الموالي. صِرْنا نلتقي، مترددين. نَتَجَمَّعُ. نتوقف عن العمل بلا سبب محدد ولا مطالب.. فقط بالعدوى.. لأنه يستحيل القيام بأي شيء - عندما يحل اللامتوقع - غير الانتظار. لم نكن نعرف ماذا سيحدث في اليوم الموالي، ولم نكن نسعى لمعرفته. كان زمانًا آخر.

نحن الذين لم نقبل قط، في الحقيقة، العمل.. الذين لم نكن حقا نرغب في الأشياء التي نقتني، رأينا أنفسنا في طلبة بالكاد أصغر منا وهم يرشقون الفرق الخاصة للشرطة بالحجارة. كانوا يردون، عوضا عنا، للسلطة دين سنوات الحظر والقمع.. دين سحق المظاهرات المناهضة للحرب في الجزائر.. دين حملات القمع.. دين منع فيلم «الراهبة».. ودين سيارات الـ«DS» السوداء التي يستقلها المسؤولون. إنهم يثأرون لنا من الحصار الذي تعرَّضَتْ له مراهقتُنا.. من ذلك الصمت المهيب في المدرجات.. من الإحساس بالعار عند استضافة الفتيان خلسة في غرفنا بالحي الجامعي. كان الانتساب إلى ليالي باريس الملتهبة نابعٌ، في حد ذاته، من الرغبات المحطمة، من إحباطات الخضوع. كان يساورنا الندم لأننا لم نعش هذه الأحداث مبكرا، ولكن نعتبر أنفسنا محظوظين لأن كل هذا يحدث لنا ونحن في بداية مسيرتنا المهنية.

فجأة، صارتْ ١٩٣٦ التي كنا نسمع عنها في الحكايات العائلية، حقيقةً.

أصبحنا نرى ونسمع ما لم نر ونسمع منذ ولادتنا، بل ولا اعتقدنا أبدًا بإمكان رؤيته وسماعه. فالعديد من المواقع، التي كان استعمالها

خاضعا منذ الأزل لقواعد متفق عليها، ولم يكن يسمح بالدخول إليها سوى لعينة محددة (الجامعات، المعامل، المسارح)، صارت مفتوحةً أمام أي كان، ونفعل فيها كل شيء ما عدا ما أُعِدَّتْ له: النقاش، الأكل، النوم، ممارسة الحب. لم يعد هناك فضاءات مؤسساتية ومقدسة. أخذ الأساتذة والطلبة، الشباب والشيوخ، الأطر والعمال، يتحدثون فيما بينهم. وصارت التَرَاتُبِيَّاتُ والمسافاتُ تتلاشى، بشكل سحري، في الحديث. وانتهينا من الكياسة في الكلام.. من اللغة اللبقة المهذبة.. من النبرة الهادئة والإطناب.. من تلك المسافة ـ انتبهنا إليها ـ التي كان يفرض بها الأقوياءُ وخُدَّامُهم ـ يكفي هنا الانتباه إلى «ميشيل دْرْوَا»[١] ـ هيمنتَهم. كانت الأصوات المدوية تقول الأشياء بلا كياسة، ويقاطع بعضُها بعضًا دون اعتذار. والوجوه تعبر عن الغضب والازدراء والنشوة. كانت حرية المواقف وحيوية الأجساد صارخةً. إن كان الأمر يتعلق بالثورة، فها هي تتجلى هنا، مبهرةً، في الأجساد المنتشرة والمسترخية.. الأجسادِ الجالسة في أي مكان. لما ظهر «ديغول» من جديد ـ أين كان؟ يا ليته ما عاد ـ تحدث عن الـ«CHIENLIT»[٢] وفمه يتلوى اشمئزازا. ودون أن ندرك معنى الكلمة، لمحنا كل الاحتقار الأرستقراطي الذي يشعر به اتجاه الثورة التي اختزلها في كلمة تحمل في طياتها الخراء والمضاجعة.. الاحتشاد الحيواني وانفلات الغرائز.

لم ننتبه إلى عدم بروز أي قائد عمالي. واصل قادة الحزب الشيوعي

---

(١) «ميشيل دروا» (MICHEL DROIT) صحافي فرنسي وكاتب وعضو الأكاديمية الفرنسية، وكان المحاور المفضل للجنرال ديغول في حواراته التلفزيونية.

(٢) «CHIENLIT» كلمة فرنسية قديمة لها معنى قدحي يفيد «الفوضى»، والكلمة تتكون من ثلاث مقاطع «CHIE-EN-LIT» وتعني حرفيا «الخراء ـ في ـ السرير».

والنقابات، بهيئتهم الأبوية، تحديد الحاجات والرغبات. كانوا يَخِفُّون إلى التفاوض مع الحكومة ـ مع أن هذه الأخيرة لم تعد تتحرك تقريبا ـ كأن أفضل ما يمكن الحصول عليه هو تعزيز القدرة الشرائية وخفض سن التقاعد. ولما كنا نتابعهم، عند خروجهم من حي «غرونيل»، وهم يتشدقون ـ بكلمات كنا قد نسيناها منذ ثلاثة أسابيع ـ بـ«الإجراءات» التي «قَبِلَتْها» السلطة، يداهمنا الإحباط. عاد الأمل ليحدونا مجددا عندما رأينا «القاعدة» ترفض تنازلات «غرونيل» في ملعب «شارليتي» بحضور «مانديس فرانس»[١].

عدنا إلى الغوص في الشك مع حل «الجمعية العمومية»، والإعلان عن الانتخابات. ولما شاهدنا حشدا كئيبا يندفع على شارع «شانزيليزي»، مع «دوبري» و«مالرو» ـ الذي لم يعد الإنهاك الشديد الذي تنضح به قسماته قادرًا على الإنقاذ من أي تبعية ـ وكل الآخرين بأذرعهم المتشابكة في ظل أخوة زائفة وقاتمة، أدركنا أن كل شيء على وشك النهاية.

لم يعد ممكنا تجاهل وجود عالمين، وعلينا الاختيار. ولم تكن الانتخابات فرصة للاختيار، بل لإعادة تثبيت الأعيان الموجودين. وعلى كل حال، فنصف الشباب لم يكونوا قد بلغوا الواحدة والعشرين. ولا يمكنهم التصويت. في الثانوية، في المعمل، أعطتِ «الكونفدرالية العامة للشغل» و«الحزب الشيوعي» التوجيهات باستئناف النشاط. وداهمَنا الاعتقادُ بأن المتحدِّثين باسمهما قد خدوعنا بكلامهم البطيء ونبرتهم الخشنة كقرويين مزيفين. بهذه الطريقة، اكتسبوا صفة «الحلفاء

---

(١) تشير الكاتبة هنا إلى التجمع الخطابي الذي نظمه «الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا» و«الكونفدرالية الفرنسية الديمقراطية للشغل» و«الحزب الاشتراكي الموحد» في ٢٧ أيار/ماي ١٩٦٨ وحضره الاشتراكي المؤثر «بيير مانديس فرانس» في ملعب «شارلتي» بباريس. وقد رفض الحاضرون الاتفاق الذي توصل إليه النقابيون والحكومة.

الموضوعيين للسلطة»، و«الخونة الستالينيين»، وسيصبح الواحد منهم، ولسنين عديدة، تجسيدا للنظام، وهدفًا لكل الهجمات، في مقرات العمل.

جرت الامتحانات. استأنفت القطارات رحلاتها. عاد الوقود إلى السيلان. ويمكن الذهاب في عطلة. في بداية تموز/يوليو، كان سكان العاصمة القادمين من الـ«بروفانس»، الذين يعبرون باريس من محطة قطار إلى أخرى على متن الحافلات، يحسون تحتهم ببلاط الطريق وقد أعيد إلى مكانه كأن شيئًا لم يحدث. إثر عودتهم، بعد بضعة أسابيع، شاهدوا امتدادا من الإسفلت الناعم الذي لم يعد يُهَزْهِزُهُم، وشرعوا يتساءلون إلى أين أخذوا كل هذه الأطنان من البلاط؟

بدا جليا أن ما جرى في شهرين أكثر مما حدث في عشر سنوات كاملة، ولكن لم يكن لدينا الوقت الكافي للقيام بأي شيء. فَاتَنا شيءٌ ما في لحظة ما، ولكن لا نعرف أي لحظة.. أو لعلنا فقط سمحنا بما انتهت إليه الأمور.

أخذ الجميع يعتقدون بأننا مقبلون على مستقبل عنيف.. هي فقط مسألة شهور، ربما عام على الأكثر. سيكون الخريف ساخنا، ثم بعده الربيع [إلى أن نسينا الأمر، وصرنا نقول عند العثور فيما بعد على جينز قديم: «شارك في ماي/أيار ٦٨»]. «أيار/ماي جديد».. أملُ هؤلاء الذين يعملون على عودته، وظهور مجتمع جديد، وهاجسُ أولئك الذين كانوا يصرون على مقاومة عودته، ويرمون «غبرييل روسيي»[١] في السجن،

---

(١) «غبرييل روسيي» (GABRIELLE RUSSIER) أستاذة فرنسية ربطتها علاقة عاطفية=

ويشتَمُّون في كل شابٍّ بشعر طويل رائحةَ «يساري»، ويرحبون بـ«القانون المناهض للمشاغبين»، ويلعنون كل شيء. في أماكن العمل، كان الناس ينقسمون إلى فئتين: المضربون في ماي/أيار، وغير المضربين، يفصلُ بينهم الإقصاء المتبادل. صار شهر ماي/أيار وسيلة لتصنيف الأفراد.. حين نصادف أحدا نتساءل في أي جانب كان إبان الأحداث. إنه نفس العنف من هذا الطرف أو ذاك.. لم نكن نغفر أي شيء لبعضنا بعض.

أخذنا، نحن الذين مازلنا في حقبة «الحزب الاشتراكي الموحد» وتصوره لتغيير المجتمع، نكتشف «الماويين»، «التروتسكيين»، وكمية هائلة من الأفكار والمفاهيم دفعة واحدة. وصارت تخرج من كل مكان حركاتٌ وكتب ومجلات.. فلاسفة ونقاد وسوسيولوجيون: «بورديو»، «فوكو»، «بارث»، «لاكان»، «تشومسكي»، «بودريار»، «فلهيلم ريخ»، «إيفان إليتش»، مجلة «TEL QUEL»، التحليل البنيوي، علم السرديات، الإيكولوجيا. بشكل أو بآخر، وسواء تعلق الأمر بـ«الورثة»[1] أو بالكتاب السويدي الصغير حول الوضعيات الجنسية، فكل شيء كان يسير في اتجاه فكر جديد، ونحو تحول للعالم. كنا نسبح في لغات غير مسبوقة، لا نعرف حقا كيف نتعامل مع كل هذا.. مذهولين من كوننا لم نسمع بكل هذا من قبل. في ظرف شهر واحد تداركنا سنوات. وساورنا الارتياح لرؤية «دوبوفوار» بعمامتها و«سارتر» ـ وهما أكثر شراسة من أي وقت

=مع أحد تلامذتها البالغ من العمر ١٦ عاما، وحكم عليها بالسجن غير النافذ في تموز/ يوليو ١٩٦٩ قبل أن تنتحر في أيلول/سبتمبر من السنة ذاتها. وقد أثارت قضيتها الكثير من الجدل وكانت مصدر إلهام للعديد من الأغاني والأفلام.

(١) «الورثة» (LES HERITIERS) كتاب من تأليف «بيير بورديو» و«جون كلود باسرون»، يستعرضان فيه كيف أن المدرسة تعيد إنتاج الفوارق الاجتماعية.

مضى، رغم تقدمهما في السن - حتى وإن لم يكن لديهما جديد. للأسف، كان «أندري بروتون» قد توفي قبل سنتين.

لا شيء مما كنا نعتبره طبيعيا ظل على حاله. الأسرة، التعليم، السجن، العمل، العطلة، الجنون، الإعلانات.. تم إخضاع كل جوانب الواقع للفحص، بما فيها كلام ذاك الذي يتولى النقد، والذي طُلِب منه العمل على استكشاف أعماقه.. «من أي موقع تتحدث أنت؟». توقف المجتمع عن الاشتغال بسذاجة. فلكل شيء دلالة: شراء سيارة، تنقيط أحد التمارين، الولادة.

لا ينبغي لأي شيء على وجه الكوكب أن يظل غريبا عنا.. المحيطات، جريمة «بَرْوِي -أُونْ-أَرْتَوَا»[1].. كنا طرفًا في كل النضالات، تشيلي «أليندي»، كوبا، الفيتنام، تشيكوسلوفاكيا. كنا نُقَيِّم الأنظمةَ، نبحث عن النماذج. كنا بصدد إجراء قراءة سياسية شاملة للعالم. والكلمة الجوهرية في كل هذا، هي: «التحرر».

كان لكل واحد، طالما أنه يمثل جماعة أو وضعية أو ظلما، الحقَّ في الحديث وفي الاستماع إليه، مثقفًا كان أو لا. إِنَّ عَيْشَ تجربة ما كامرأة، أو مِثْلِي، أو «منشق» طبقي، أو سجين، أو فلاح، أو عامل منجمي، كان يعطي للمرء الحق في قول «أنا». كان التفكير في الذات

---

(١) جريمة «بروي - أون - أرتوا» (AFFAIRE "BRUAY-EN-ARTOIS")، جريمة قتل وقعت في شمال فرنسا في ١٩٧٢ وذهبت ضحيتها فتاة قاصر تدعى «بريجيت دوفيفر» ولم يتم قط معرفة القاتل. وقد استغلها اليسار الرديكالي الفرنسي آنذاك وجعلها رمزا للصراع الطبقي خصوصا بعد اعتقال موثق وخليلته بتهمة الضلوع في الجريمة قبل أن تتم تبرئتهما.

بشكل جماعي مثيرًا للحماس. وكان يظهر تلقائيًا متحدثون باسم العاهرات، والعمال المضربين. وكان «شارل بياجي»، العامل بمعمل «ليب» للساعات أكثر شهرة من عالم النفس الذي يحمل نفس الاسم العائلي، والذي كانوا ينهكون به آذاننا في السنة النهائية للباكالوريا [كنا نجهل تمامًا أنه سيأتي يوم لن يوحي لنا فيه اسم هذا وذاك بشيء آخر غير تاجر للمجوهرات الفاخرة، في المجلات بصالون الحلاقة].

صار الفتيان والفتيات معًا في كل مكان. تم حذف توزيع الجوائز، والفروض، والوزرة الموحدة، واعْتُمِدَتِ الحروفُ من «A» إلى «E» بدل النقاط في التقييم الدراسي. كان التلاميذ يتبادلون القبل ويدخنون في الساحة، ويجهرون بـ«أحكامهم» بشأن موضوع حصة التحرير.. «غبي» أو «رائع».

أخذنا في تجريب النحو البنيوي والحقول الدلالية، والنظائر، وبيداغوجيا «فريني». صرنا نتخلى عن «كورنيل» و«بوالو» لصالح «بوريس فيان» و«يونيسكو»، وأغاني «بوبي لابوانت» و«كوليت مانيي»، ومجلة الرسوم «PILOTE».. والرسوم المتحركة.

كنا نكتب رواية، أو يوميات، ونحن نستمد مادتنا من العداء الذي يكنه لنا زملاء لاذوا في ٦٨ بقاعة الأساتذة، ويظهره آباء التلاميذ الذين يصرخون «يا للفضيحة»، لأننا نُدَرِّس «الحارس في حقل الشوفان» و«حفدة القرن»[1].

كنا نخرج من نقاشات دامت ساعتين حول المخدرات والتلوث

---

(١) «حفدة القرن» (LES PETITS ENFNATS DU SIECLE) رواية صدرت في ١٩٦١ للكاتبة الفرنسية «كريستيان روشفور» (CHRISTIANE ROCHFORT) وتنتقد فيها الأوضاع الاجتماعية للطبقة العاملة.

والعنصرية، وقد أصابنا نوع من الثمالة، مشوبة، في أعماق الذات، بإحساس أننا لم نلقن التلاميذ أي شيء.. ألم نكن نسوق الدراجة بالطريقة الخطأ؟.. على أي حال، هل كانت المدرسة مفيدة في شيء؟ كنا نقفز من سؤال إلى آخر إلى ما لا نهاية.

التفكير، الحديث، العمل، العيش بشكل مختلف: كنا نعتقد أننا لن نخسر شيئًا بتجريب كل شيء.

كانت ١٩٦٨ السنة الأولى للكون.

رمانا خبرُ وفاة الجنرال ديغول صباح أحد أيام تشرين الثاني/نوفمبر، للحظة، في دوامة من عدم التصديق ـ لقد كان إذن خالدا بالنسبة إلينا ـ ثم أدركنا كم نسيناه في عام ونصف العام. بموته يُسْدَلُ الستارُ على زمن ما قبل شهر ماي/أيار، على سنوات بعيدة من حياتنا.

مع ذلك، كان التطور الحاصل غير ملموس، في خضم امتداد الأيام، ودقات جرس الثانوية، وصوت «ألبير سيمون» و«مدام صولاي» على أمواج «أوروبا ١»، وشريحة اللحم بالبطاطس المقلية ليوم السبت، و«كيري» المهرج، و«دقيقة للسيدات» لـ«أنيك بوشون» في المساء. لعل إدراك هذا التطور كان في حاجة إلى لحظة توقف. مثلا، التوقف أمام تلك اللوحة التي شكلها التلاميذ الجالسون على الأرض بساحة الثانوية تحت الشمس، بعد وفاة عاملٍ ـ «بيير أوفرني» ـ قتله حارس لدى شركة «رونو». لحظة ظننا القبض فقطَ على نكهتها المميزة.. نكهة عصر يوم من أيام آذار/مارس.. تلك اللحظة التي ستتحول، لما صار الزمن الذي خلفنا تاريخا، إلى صورة لأول اعتصام.

لم تعد مباعث العار بالأمس قائمة. صار الإحساس بالذنب محط سخرية.. «كلنا مسيحيون يهود». وأصبح «الفقر الجنسي» محط إدانة.. كانت عبارة «يجد صعوبة في بلوغ النشوة» إهانةً كبيرة. أخذت مجلة «PARENTS» تعلم النساء اللواتي يعانين من البرود الجنسي إثارة أنفسهن بسيقان منفرجة أمام المرآة. وفي منشور يُوَزَّعُ في الثانويات، كان الدكتور «كاربونتيي»[١] يدعو التلاميذ إلى الاستمناء من أجل الالتفاف على ضجر الحصص الدراسية. وكان يتم إضفاء البراءة على المداعبات بين الكبار والأطفال. صار يُنْصَحُ بكل ما كان محظورا.. ما كان إثما بلا اسم. أخذنا نتعود على رؤية الأعضاء الجنسية على الشاشة، ولكننا كنا نحبس الأنفاس خوفًا من انفلات مشاعرنا ونحن نتابع «مارلون براندو» وهو يضاجع «ماريا شيندر» من الدبر[٢]. ولتحسين الأداء، كنا نشتري الكتاب السويدي الأحمر الصغير، الذي يتضمن صورًا لكل الوضعيات الجنسية الممكنة، ونذهب لمشاهدة «تقنيات الجنس». وتراودنا فكرة ممارسة الجنس ونحن ثلاثة. ولكن، ومهما فعلنا، لم نكن نتقبل القيام بما كان يعتبر بالأمس مسًّا بالحياء: أن يظهر المرء عاريًا أمام أطفاله.

كان خطاب النشوة يزحف على كل شيء. يجب بلوغ النشوة ونحن نقرأ، ونكتب، ونستحم، ونقضي حاجتنا. كانت غايةَ كلِّ النشاطاتِ الإنسانية.

---

(١) «جون كاربونتيي» (JEAN CARPENTIER) طبيب فرنسي أثار ضجة كبيرة في بداية السبعينيات حين حرر منشورا يدعو فيه إلى «ممارسة الحب» بكل الطرق، ووزعه أمام المؤسسات التعليمية.

(٢) لقطة وردت في فيلم «التانغو الأخير في باريس» الذي أخرجه الإيطالي «برناردو بيرتولوتشي» (BERNARD BERTOLUCCI) في ١٩٧٢.

أخذنا نعود إلى تاريخنا كامرأة. أدركنا أننا لم نحصل على حقنا من الحرية الجنسية، من الحرية الإبداعية.. من كل ما حصل عليه الرجال. أثر فينا انتحار «غابرييل روسيي»، كأنها كانت أختا مجهولة لنا. واستأنا كثيرًا من مكر «بومبيدو»[١] الذي استشهد ببيت لـ«إيلوار» لا يفهمه أحد، ليتجنب الإفصاح عن رأيه في هذه الواقعة. وصلت أصداء «حركة تحرير النساء» إلى المحافَظات. ووجدت صحيفة «LE TORCHON BRULE» مكانًا لها في الأكشاك. كنا نقرأ «المرأة المخصية» لـ«جيرمان غرير»، و«السياسة الجنسية» لـ«كيت ميليت»، و«الإبداع الموؤود» لـ«سوزان هورر» و«جان سوكي»، بذلك الحماس والإحساس بالعجز اللذين يثيرهما اكتشاف حقيقة قائمة بذاتها في ثنايا أحد الكتب. بعد الاستيقاظ من سبات الحياة الزوجية، أخذنا نستعيد مسار حياتنا، ونحن جالسات على الأرض تحت ملصق «أمرة بدون رجل مثل سمكة بلا دَرَّاجة».. يخالجنا الإحساس بأننا نستطيع التخلي عن الزوج والأبناء، والتخلص من كل شيء، وأننا قادرات على كتابة أشياء بذيئة. عند العودة إلى البيت، تفتر تلك العزيمة.. يطفو الشعور بالذنب. فلا نرى سبيلا إلى التحرر، ولا الهدف من ذلك. نقنع أنفسنا أن رَجُلَنَا بالذات ليس من أنصار «الهيمنة الذكورية» ولا يؤمن بـ«تفوق الذكور». كنا نتردد بين صنفين من الخطابات: تلك التي تدعو إلى المساواة في الحقوق بين النساء والرجال، وتهاجم «قوانين الآباء»، وتلك التي تفضل الإعلاء من شأن كل ما هو نسوي.. العادة الشهرية.. الرضاعة.. إعداد الحساء بالكراث. ومع ذلك، فلأول مرة صرنا نتصور حياتنا كمسيرة نحو الحرية. وهذا غَيَّرَ الكثيرَ من الأمور. لقد أخذ شعور نسائي في التلاشي: الشعور بالدونية الطبيعية.

---

(١) «جورج بومبيدو» (GEORGE POMPIDOU) رئيس فرنسا ما بين ١٩٦٩ و١٩٧٤.

لعلنا لن نتذكر اليومَ ولا الشهرَ ـ كان الفصل ربيعا ـ سنستحضر فقط أننا قرأنا، من الأول إلى الأخير، كل أسماء النساء الـ٣٤٣ ـ كُنَّ إذن عديدات بينما كانت هي تحس أنها وحيدةٌ مع المسبار والدماء المتدفقة على الأغطية ـ اللواتي كشفن، في مجلة «LE NOUVEL OBSERVATEUR»، عن لجوئهن إلى الإجهاض السري. ورغم أن الأمر كان مستهجنا، فقد انضممنا إلى المطالبين بإلغاء قانون ١٩٢٠، وإرساء حرية اللجوء إلى الإجهاض الطبي. كنا نعمل على نسخ المنشورات في الناسخ الكهربائي التابع للثانوية، ونوزعها على صناديق البريد مع حلول الليل.. نذهب لمشاهدة «حكايات أ».. ننقل سرًّا حوامل إلى شقة خاصة حيث يقوم أطباء مناضلون ـ مجانًا ـ بشفط الجنين الذي لا يرغبن فيه. كانت تكفي طنجرة ضغط لتعقيم أدوات العملية، ومضخة هواء معكوسة: لقد بَسَّطَ الدكتور «كارمن»[1] عمل «صانعات الملائكة» وجعله أكثر أمنا. شرعنا كذلك في توفير عناوين في لندن وأمستردام.. كانت السرية مثيرة، كأننا نعيد ربط الأواصر مع حقبة المقاومة.. نستأنف عمل «حاملي الحقائب»[2] إبان حرب الجزائر. وجسدت «جيزيل حليمي»، التي تولت الدفاع عن «جميلة بوباشة»[3]، وكانت تبدو فائقة الجمال

---

(١) «هيرفي كارمن» (HERVEY KARMAN) عالم نفس أمريكي ومناصر لحرية الإجهاض منذ الخمسينيات، وهو صاحب طريقة سهلة ومضمونة لشفط الجنين غير المرغوب فيه.

(٢) «حاملو الحقائب» (PORTEURS DE VALISES) جماعة من اليساريين الفرنسيين كانوا يساعدون الثوار الجزائريين عبر جمع المال وتوفير الهويات لهم إبان حرب الجزائر.

(٣) «جميلة بوباشة» (DJAMILA BOUPACHA) مقاومة جزائرية اتهمت بالتحضير لهجوم في الجزائر العاصمة عام ١٩٦٠، وتعرضت للتعذيب والاغتصاب من طرف رجال الأمن الفرنسي، وتحولت قضيتها إلى استعراض للأساليب الوحشية للاستعمار الفرنسي. =

تحت أضواء الصحافيين عند خروجها من محاكمة «بوبيني»، هذه الاستمرارية. تمامًا كما كان أنصار «اتركوهم يعيشون» والبروفيسور «لوجون»، الذي كان يستعرض الأجنة على شاشة التلفزيون لترويع الناس، يمثلون استمرارية لنظام «فيشي»[١]. في يوم سبت بعد الظهر، ونحن نتحرك، بالآلاف تحت الشمس وخلف اللافتات، رافعين أبصارنا إلى الزرقة الصافية لسماء ميدان «دوفيني»، قلنا مع أنفسنا، علينا أن نضع حدا، لأول مرة، للموت الأحمر الذي تشكو منه النساء منذ آلاف السنين. من يستطيع، إذن، أن ينسانا.

حسب السن، والمهنة، والطبقة الاجتماعية، والمصالح، والشعور القديم بالذنب، كان كل واحد يكيف الثورة على مقاسه. كنا نخضع، رغم ذلك لمتطلبات الاحتفال والاستمتاع، والثقافة: لا ينبغي أن نموت أغبياء. كان بعضنا يدخنون الحشيش.. يعيشون في جماعات.. يتحولون إلى عمال لدى «رونو».. يذهبون إلى «كاتموندو». وكان آخرون يقضون أسبوعا في «تاباركا».. يقرؤون صحف ومجلات «CHARLIE HEBDO»، و«FLUIDE GLACIAL»، و«L'ECHO DES SAVANES»، و«TANKONALASANTE»، و«METAL HURLANT»، و«LA GUEULE OUVERTE».. يلصقون الزهور على أبواب سياراتهم، ويعلقون الملصقات الحمراء لـ«تشي» والفتاة المحروقة بالنابالم، على

=«جيزيل حليمي» (GISELE HALIMI) محامية ومناضلة نسوية فرنسية من أصل تونسي.

(١) «نظام فيشي»، هو النظام الذي قام في فرنسا بعد احتلالها من طرف جيوش هتلر في ١٩٤٠.

جدان غرفهم.. يرتدون بذلة «ماو» أو «البونشو»، ويفترشون الأرض ويضعون حولهم بعض الوسائد.. يشعلون أعواد البخور.. يشترون منتوجات «موريس ميسيغي».. يشاهدون سيرك «MAGIC CIRCUS»، وفيلمي «التانغو الأخير في باريس»، و«إيمانويل».. يصلحون مزرعة بالية في منطقة «أراديش».. يشتركون في مجلة «CINQUANTE MILLIONS DE CONSOMMATEURS» بسبب المبيدات التي عثر على أثرها في الزبدة..(تتخلى النساء عن حملات الصدر).. يتركون مجلة «LUI»[١] على المائدة في متناول الأطفال.. يطلبون منهم مخاطبتهم بأسمائهم الشخصية كأنهم أصدقاء.

كنا نبحث عن نماذج أخرى.. الهند و منطقة «السيفين».. «الإكزوتيزم» أو الأجواء القروية. كان الجميع يتطلعون إلى الصفاء.

في ظل استحالة التخلي عن كل شيء، من عمل ومسكن، للاستقرار في البادية ـ المشروع المؤجل دوما والمتأكدون من إنجازه يومًا ما ـ كان الأكثر تعطشا لانبعاث حياة جديدة يسعون لقضاء العطلة في القرى المعزولة هناك بالأراضي الوعرة، رافضين باستعلاءِ الشواطئَ حيث يأخذ الآخرون حمامات الشمس بغباء، ومحافظةَ مسقط الرأس، المنبسطة و«المشوهة» بفعل التقدم الصناعي. بالمقابل، يضفون الأصالة على الفلاحين الفقراء بالمناطق القاحلة التي ظلت على حالها منذ قرون. لم يكن هؤلاء الذين يسعون إلى صناعة التاريخ يستحسنون شيئًا آخر غير

---

(١) «LUI» مجلة فرنسية بين السيتينيات والثمانينيات، مشهورة بنشرها لصور الممثلات وهن عاريات، هي نوعا ما المقابل الفرنسي لـ«PLAYBOY».

انمحائه من خلال تشبثهم بتكرار الفصول نفسها والحفاظ على نمط السلوك ذاته.. وكانوا يشترون كوخًا بسيطًا من هؤلاء الفلاحين أنفسهم مقابل كسرة خبز!

أو يذهبون لقضاء العطلة في بلدان الشرق.. في الشوارع الرمادية بأرصفتها المخربة. أمام المتاجر التابعةِ للدولة التي تعرض منتوجات قليلة بلا علامات تجارية، ملفوفة في الورق، وأمام المصابيح العاريةِ المتدلية من أسقف الشقق المضاءة ليلا، كان ينتابهم إحساس أنهم يتحركون في العالم البطيء المجرد من الأناقة والفقير في كل شيء، لسنوات ما بعد الحرب. كان شعورًا عذبًا لا يوصف. ومع ذلك لن يسعوا أبدًا للعيش هناك. يعودون محملين ببلوزات مزخرفة، ومشروب «الراكي». ويتوقون إلى أن تظلَّ في العالم بلدانٌ غير متقدمة، لتأخذهم إلى الماضي.

خلال مساءات الصيف، في بداية سنوات السبعينيات، وفي جو تلفه رائحة التراب الجاف والزعتر، وحول مائدة كبيرة تم شراؤها من عند بائع الخردة.. حول أسياخ اللحم وطبق الـ«رَتَاتُويْ» من الخُضَر ـ كان يجب طبعا التفكير في النباتيين ـ يجتمع المدعوون الذين لا يعرفون بعضهم بعضا.. باريسيون يصلحون البيت المجاور.. رحالة عابرون.. هواة المشي لمسافات طويلة.. هواة الرسم على الحرير.. أزواج بأطفالهم أو من دونهم.. رجال بشعور ولحى شعثاء.. مراهقات متحررات.. نساء ناضجات بفساتين هندية. بعد البدايات المترددة رغم رفع التكلفة فورًا وإقرار التخاطب بضمير المخاطب المفرد، ينطلق الحديث عن وجود الملونات والهرمونات في الأغذية.. علم الجنس والتعابير الجسدية..

الممارسة المضادة للجمباز.. طريقة «مزيير».. طريقة «روجرز».. اليوغا.. طريقة الولادة بدون عنف لـ«فردريك لوبوير».. العلاج بالمواد الطبيعية والصوجا.. التدبير الذاتي وقضية معمل «ليب».. «روني ديمون»[1]. كنا نتساءل إن كان من الأفضل إرسال الأبناء إلى المدرسة أو الإشراف على تعليمهم بأنفسنا.. إلم يكن استعمال سائل «أجاكس» في التنظيف ساما.. إن كان من المفيد ممارسة اليوغا أو العلاج الجماعي.. إن كان العمل ساعتين في اليوم أمرًا طوباويًا.. إن كان على النساء المطالبة بالمساواة الشاملة أم فقط بالمساواة في ظل الاختلاف. كنا نستعرض أفضل الطرق للتغذية السليمة، وللولادة، ولتربية الأطفال، وللعلاج، وللتعليم، وللانسجام مع الذات، ومع الآخرين، ومع الطبيعة، وللإفلات من إكراهات المجتمع.. نستعرض أفضل الطرق للتعبير: ممارسة الخزف، النسيج، العزف على القيثارة، نحت المجوهرات، المسرح، الكتابة. كانت تحوم في المكان نزعة هائلة ومبهمة نحو الإبداع. فالجميع يَدَّعُون ممارسة نشاط إبداعي أو يعتزمون ذلك. كان هناك توافق عام على أن كل النشاطات الإبداعية لها، بشكل أو بآخر، نفس القيمة. وإن كان المرء لا يتقن الفن التشكيلي أو العزف على الناي، فهناك إمكانية الإبداع في الذات من خلال ممارسة التحليل النفسي.

في الوقت الذي كان فيه الأطفال، الذين تم جمعهم للنوم في غرفة واحدة، يقترفون حماقاتهم العديدة بكل مرح، رغم التعليمات الصريحة بعدم تحويل المكان إلى سوق، وفي الوقت الذي كنا نحتسي كأسًا مع

(١) «روني ديمون» (RENE DUMONT) اول مرشح «إيكولوجي» للانتخابات الرئاسية الفرنسية، كان ذلك في رئاسيات ١٩٧٤.

الفلاح الجار ـ الذي دُعِيَ إلى أخذ كأس فقط ـ كانتِ الخطاباتُ تتقدم أكثر نحو تلك التساؤلات الجنسية الحالمة.. هل نحن مثليين أم ننجذب إلى الجنس المختلف.. البوح.. الأوركازم الأول.. الفتاة المتحررة تقول: «أحب التبرز». كان وجودنا في ذلك المساء وسط أفراد لا روابط بينهم، بعيدا عن الولائم العائلية وكل تلك الطقوس التي نكره، يغمرنا بإحساس مثير بالانفتاح على تنوع العالم. داهمنا الشعور بأننا صرنا مراهقين من جديد.

لم يخطر ببال أي أحد الإشارة إلى الحرب و«أوشفيتز» ومعسكرات الاعتقال، ولا أحداث الجزائر، فهي قضية محسومة.. فقط هيروشيما والمستقبل النووي. فلم يحدث أي شيء في الفترة الفاصلة بين قرون من العيش القروي ـ الذي كان هذا الليلُ المُضَمَّخُ برائحة شجيرات الغاريغ يحمل إلينا عبقَه ـ وهذه اللحظة من أغسطس ٧٣.

أخذ أحدهم يعزف على القيثارة، ويغني «مثل شجرة وسط المدينة» لـ«ماكسيم لوفورستيي»، ثم «النوم الأسود» لمجموعة «QUILAPAYUN»، استمعنا إليه بعيون شبه مغمضة. ونِمْنَا كما اتفق على أسرة نقالة في الجناح المخصص سابقا لتربية دودة القز، ونحن لا ندرك إن كان من الأفضل ممارسة الجنس مع النائم على اليمين أو على اليسار، أو لا أحد منهما. كان النعاس يغلبنا قبل أن نقرر، والجميع منتشون ومرتاحون لقيمة هذا النمط من الحياة الذي استمتعنا به طيلة السهرة.. بعيدا عن أولئك «المتخلفين» المتكدسين في مخيمات المحطة الشاطئية «ميرلان ـ بلاج».

صار للمجتمع اسمٌ الآن: مجتمع الاستهلاك. حقيقة لا رجعة فيها، سواء استحسناها أو تأسفنا لها. شل ارتفاعُ أسعار البترول الناسَ لبرهة من الزمن. كان المزاج العام ميالا إلى الإنفاق، وكان هناك سعي حازم إلى حيازة أشياء وممتلكات الترفيه. صار الناس يبحثون عن الثلاجة ذات البابين، وسيارةِ «R5» سهلة القيادة، وأسبوعٍ في «CLUB HOTEL» بالبلدة الجبلية «فْلِينْ»، وشقةٍ صغيرة في البلدة الشاطئية «لاغراند ـ موط». كانوا يغيرون جهاز التلفزيون. على الشاشة ذات الألوان، كان العالم يبدو أجمل، والتصميمات الداخلية أكثر جاذبية. أخذت المسافة التي كان يقيمها الأبيض والأسود مع العالم اليومي ـ الذي كانت الشاشة بهذين اللونين تشكل له تلك الصورة السالبة الصارمة، التراجيدية تقريبا ـ في التلاشي.

صارت الإعلانات تحدد كيفية العيش، والسلوك، والتأثيث.. كانت هي المرشدة الثقافية للمجتمع. وأخذ الأطفال يطلبون ماء «EVAIN» بنهكة الفواكه، «إنه أكثر قوة».. بسكوت «CADBURY»، وجبنة «KIRI».. «قارئ الأسطوانات» للاستماع إلى أغنية «القطط الأرستقراطية» و«خادمة الراهب».. سيارة مسيرة.. ودمية «باربي». كان الآباء يأملون، مع كل ما يوفرونه لهم، ألا يدخن أبناؤهم الحشيشَ فيما بعد. أما نحن، الذين لم نكن مغفلين، ونفحص بجد أخطار الإعلانات على التلاميذ، فكنا نطلب منهم الكتابة حول موضوع «هل تكمن السعادة في امتلاك الأشياء؟»، ونشتري لدى متاجر الـ«FNAC» «ستيريو هاي فاي»، وراديو كاسيط من طراز «GRUNDIG»، وكاميرا تصوير سوبر ٨ من طراز «BELL AND HAWELL»، ونحن نشعر أننا نوظف الحداثة لغايات ثقافية. من أجلنا وبنا كان الاستهلاك يتطهر.

أخذت مُثُلُ ماي/أيار تتحول إلى أشياء، إلى ترفيه.

إن رؤية نفسكِ لأول مرة، في جو يهيمن عليه صوت جهاز العرض، وأنتِ تمشين وتحركين شفتيكِ، وتضحكين بصمت على شاشة العرض في صالة المعيشة، يصيبكِ بنوع من الارتباك. نستغرب من أنفسنا، ومن حراكاتنا. إنه شعور جديد. شبيه بلا شك بذلك الذي غمر الناس في القرن السابع عشر لما شاهدوا أنفسهم في المرآة، أو ذاك الذي انتاب الأجداد وهم أمام صورتهم الفوتوغرافية الأولى. لا نجرؤ على قول أي شيء بخصوص هذا الارتباك، ونفضل مشاهدة الآخرين - الآباء والأصدقاء - الأكثر انسجاما مع الصور التي تكونت لدينا عنهم. سماعكِ لصوتكِ في المُسَجِّل كان أكثر فظاعة. ولا يمكننا أبدًا الآن تجاهل هذا الصوت الذي يسمعه الآخرون. بهذا كله، نكسب، عن ذواتنا، المزيد من المعرفة، ونتخلى عن الكثير من اللامبالاة.

كنا نحس أننا منسجمين مع زماننا، في طريقة اللباس، وارتداء «الديباردور» والقبقاب، والسروال الجرس، وقراءة مجلة «LE NOUVEL OBS»، وطريقة التعبير عن السخط (ضد الطاقة النووية، ورمي المواد المنظفة في البحر)، والتعبير عن القبول (بحق الهيبيز). ومن هنا كان ينبع ذلك اليقين أننا على حق في كل المواقف. كان الآباء ومن هم فوق الخمسين من زمن آخر، حتى في طريقة إلحاحهم على السعي إلى فهم الشباب. كنا نتعامل مع آرائهم ونصائحهم على أنها مجرد معلومات... ولن نشيخ أبدًا.

يُظْهِر المشهدُ الأولُ للفيلم بابا مواربا ـ إنه الليل ـ ينغلق ثم ينفتح. يتقدم طفل صغير، يبدو مترددا.. يرتدي وزرة برتقالية وقبعة بغطاء الأذنين، وهو يغمز بعينيه. ثم يدخل طفل آخر، أصغر، يرتدي معطفَ «أنوراك» أزرق بقبعته المحاطة بالفراء الأبيض. الكبير لا يثبت في مكانه بينما الصغير يظل جامدا، بنظرات ثابتة، يظن معها المرء أن الشريط توقف. تدخل امرأة بدورها، وهي ترتدي معطفًا طويلاً بنيًا، تخفي قبعتُه رأسَهَا. تحمل علبتين من الكارتون واحدة فوق الأخرى، مليئتين بالمواد الغذائية. تَغلقَ البابَ بكتفها. تختفي، تم تظهر من جديد ـ وقد تخلصت من علبتيْ الكارتون ـ وهي تخلع معطفها وتعلقه على المشجب الملقب بـ«الببغاء»، تلتفت إلى الكاميرا بابتسامة سريعة، تخفض بصرها بعد أن أبهرتها الإضاءة القوية لمصباح المغنيزيوم. كانت نحيلة تقريبا، بمكياج قليل، ترتدي سروالا ضيقا بنيا، ماركة «كارتنغ»، بدون سَحَّابٍ، وكنزةً مخططةً بالأصفر والبني، شعرُها الأسودُ شبه الطويل مجموع بمشبك. في ملامحها شيء من التقشف والحزن ـ أو الإحباط ـ وجاءت ابتسامتها متأخرة جدًا وبعيدة كل البعد عن التلقائية. حركاتها تكشف نوعا من المفاجأة و/أوالتوتر. ظهر الطفلان من جديد في المشهد، أمامها. لا يعرف الثلاثة كيف يتصرفون، يحركون الأيادي والأرجل، وهم مجتمعون أمام الكاميرا وينظرون إليها بعد أن تأقلموا مع إضاءتِها العنيفة.

يبدو جليا أنهم لا يقولون أي شيء، كأنهم يقفون في انتظار أخذ صورة تأبى عن الالتقاط. يرفع الطفل الكبير يده ويؤدي التحية العسكرية بطريقة خرقاء، بشفاه مُكَشِّرَة وجفون مغمضة. ثم تتقافز الكاميرا بين قطع الأثاث ذات القيمة الجمالية والمالية، مبرزة ذوقا بورجوازيا.. خزانة.. مصابيح معلقة من زجاج «أوبالين»..

هو، زوجها، مَنْ التقط هذه المشاهد، حين عادت للتو من التسوق، ومعها الطفلين اللذين أخذت من المدرسة. العنوان المثبت على بكرة الفيلم: حياة عائلية ٧٢ ـ ٧٣. هو الذي كان مكلفًا دائمًا بالتصوير.

وفقا لمعايير المجلات النسائية، فهي تنتمي ظاهريًا إلى الفئة الآخذة في التوسع للنساء ذات الثلاثين، النشيطات، اللواتي نجحن في الجمع بين العمل والأمومة، الحريصات على أنوثتهن، وعلى اتباع الموضة.

إن جَرْدَ الأماكن التي ترتادها في اليوم (الثانوية، متجر «CARREFOUR»، محل الجزارة، المصبنة.. إلخ).. وتفاصيلِ رحلتِها على متن الـ«MINI AUSTIN» بين طبيب الأطفال، نادي الجيدو للطفل الأكبر، ورشة الخزف للصغير، مركز البريد.. والوقتِ المخصص لكل واحدة من مهامها: الدروس وعمليات التصحيح، إعداد الفطور، ترتيب ملابس الأطفال، الغسيل، إعداد الغذاء، تسوق حاجات البيت، باستثناء الخبز ـ هو الذي يتكلف بشرائه من المخبز عند عودته من العمل ـ يُظْهِرُ ما يلي:

ـ لا مساواة واضحة بين داخل المنزل وخارجه، بين العمل كأجيرة (٣/٢) والعمل المنزلي، بما فيها المهام التربوية (٣/١)

ـ تنوعٌ كبير في المهام

ـ ترددٌ مكثف على الأماكن التجارية

ـ غيابٌ شبه كلي للوقت الميت

هذا الجرد ـ الذي لا تقوم به، لأنها تحس بفخر لإنجازها السريع لما لا يتطلب أي ابتكار أو عملية تحويل ـ لا يكفي لتفسير حالتها الذهنية الجديدة.

كان يساورها شعور بأن مهنتها خلل دائم وخدعة كبيرة، وكتبت في يومياتها «وضعي كأستاذة يمزقني». فهي تنبض طاقة، وترغب في تعلم أشياء جديدة، وإنجاز مهام جديدة. تتذكر ما كَتَبَتْ قبل اثنين وعشرين عامًا، «إلم أحقق وعدي في الخامسة والعشرين، أي كتابة رواية، فسوف أنتحر». إلى أي حد كان ماي/أيار٦٨ ـ الذي يساورها الشعور أنها أخطأته، لأنها كانت غارقة في الاستقرار الأسري ـ منبع السؤال الذي يؤرقها: «هل سأكون سعيدة في حياة أخرى؟»

شرعتْ في تصور نفسها خارج الحياة الزوجية وخارج الأسرة.

لم تعد سنواتها كطالبة موضوع شوق وحنين. صارت تنظر إليها على أنها زمن تَبَرْجُزِهَا الفكري، زمن القطيعة مع عالمها الأصلي. بعد أن كانت رومانسيةً، غدت ذاكرتُها نقديةً. وغالبا ما أخذت تستحضر مشاهد من طفولتها.. أمُّها وهي تصرخ في وجهها: «فيما بعد سوف تبصقين في وجهنا».. الفتيانُ وهم على متن دراجاتهم الـ«VESPA» بعد القداس، وهي بتسريحتها المجعدة كما في تلك الصورة الملتقطة في حديقة المدرسة الداخلية.. واجباتُها المدرسية على المائدة ذات الغطاء الملمع حيث يتناول والدُها «وجبتَه الخفيفة» (حتى الكلماتُ تعود إليها، كما تعود لغة منسية).. قراءاتُها: مجلة «CONFIDENCES» وروايات «ديلي»[1].. أغاني

---

(١) «ديلي» (DELLY) الاسم المستعار لـ«جان ماري بوتيجون دو لاروزيير» (JEANNE-MARIE PETITJEAN DE LA ROSIERE) (وشقيقها «فريدريك» (FREDERIC)، وقد اشتهرا بتأليف روايات غرامية حظيت بشهرة كبيرة إلى غاية الثمانينيات من القرن الماضي.

«ماريانو».. ذكرياتُ تميزها المدرسي ودُونِيَّتِها الاجتماعية ـ الخفية في الصور ـ.. كلُّ ما كانت تَكْبُتُ وتعتبره عارا، وأصبح جديرًا بالاستعادة، والعرض تحت أضواء الفكر. ومع التحرر التدريجي لذاكرتها من الشعور بالعار، صار المستقبل من جديد مجالا للنشاط والعمل. صار النضالُ من أجل الحق في الإجهاض، وضد الظلم الاجتماعي، ومن أجل فهم كيف تحولتْ هي إلى هذه المرأة، موضوعًا واحد بالنسبة إليها.

في ذكرياتها الخاصة بالسنوات الأخيرة، لا تجد ما يمكن اعتباره «صور للسعادة»:

ـ شتاء ٦٩ ـ ٧٠ الذي يعود بالأبيض والأسود بسبب السماء الشاحبة والثلوج التي تساقطت بغزارة، وظلت، إلى غاية نيسان، لصيقة بالرصيف على شكل ألواح رمادية كانت تتعمد، وهي تمشي، سحقها بحذائها ذي الكعب الطويل، وبالتالي المساهمة في التخلص من هذا الشتاء المديد، الذي ارتبط بحريق مرقص «سَانِ ـ لُورَانْ-دُو-بُونْ» في محافظة «إزير» رغم أن النار لم تأت عليه سوى في الشتاء الموالي.

ـ المغني «إيف مونتان» وهو يلعب الكرة الحديدية في ميدان «سَأن-بُولْ-دُو-فُونْسْ»، مرتديًا قميصًا ورديًا، ببطن بارزة شيئًا ما. بعد كل رمية، كان يجول، وهو ينتشي بسعادة مشوبة بما تيسر من زهو، بنظره على السياح المحتشدين خلف الحواجز الموضوعة على بعد مسافة معقولة. كان هذا في الصيف ذاته الذي سُجنت فيه «غابرييل روسيي»، ثم انتحرت بعد عودتها إلى شقتها.

ـ المنتجع الصحي «سَانْتْ-أُونُورِي-لِي-بَانْ».. الحوض الذي كان يلهو فيه الأطفال بمراكب صغيرة.. الفندق الذي أقامت فيه معهم طيلة ثلاثة

أسابيع، والذي تشابه لها، فيما بعد، مع نَزْلِ رواية «شخص ما» لـ«روبير بنجيه»[١].

في الجانب الذي لا يطاق للذاكرة، توجد صورة والدها وهو يحتضر.. صورة الجثة المرتدية لتلك البدلة التي لبسها من قبل مرة واحدة، في يوم زواجها.. الجثة التي أُنْزِلَت في كيس بلاستيكي من الغرفة إلى الطبق الأرضي عبر الدُّرج الذي كان ضيقا ولا يسمح بمرور التابوت.

لم تَعْلَقِ الأحداثُ السياسيةُ بذاكرتِها سوى على شكل بضعة تفاصيل: على شاشة التلفزة، خلال حملة الانتخابات الرئاسية، المشهدُ الصادمُ للثنائي «مانديس فرانس» ـ «ديفير».. تساؤُلها آنذاك: «ولكن، لماذا لم يترشح 'بيير مانديس فرانس' لوحده؟».. تلك اللحظة التي حكَّ فيها «ألان بوهر» أنفَه وهو يلقي كلمتَه الأخيرة قُبَيْلَ الدور الثاني من الرئاسيات[٢].. شعورها أنه سيُهزم من طرف «بومبيدو» بسبب هذه الحركة التي بدرتْ منه أمامَ المشاهدين.

لم تكن تحس بثقل السنين أبدًا. بلا شك، هو غرور امرأة شابة أمام من هن أكبر منها سنا.. نوع من التعالي على من بلغن سن اليأس. من

---

(١) «روبير بنجيه» (ROBERT PINGET) كاتب فرنسي/سويسري فازت روايته «شخص ما» (QUELQU'UN) بجائزة «فيمينا» في ١٩٦٥

(٢) إشارة إلى الانتخابات الرئاسية الفرنسية التي جرت في حزيران/ يونيو ١٩٦٩ لاختيار خليفة للجنرال شارل ديغول المستقيل وقد فاز بها «جورج بومبيدو».

غير المرجح أبدًا أن تصبح واحدة منهن. لم تكن تخيفُها نبوءةٌ بأنها ستموت في الثانية والخمسين. كان يبدو لها عمرًا مقبولاً للموت.

قيل إن الربيع سيكون ساخنا، والخريف الموالي أيضًا. لم يكونا كذلك أبدًا.

لجان العمل بالثانويات، المستقلون، الإيكولوجيون، المناهضون للطاقة النووية، النسوانيات، المثليون.. باختصار كل القضايا كانت مشتعلة، ولكنها لم تكن تلتقي. ربما لأنه كانت هناك الكثير من الاضطرابات في باقي مناطق العالم.. من تشكوسلوفاكيا إلى الفيتنام الأزلية.. عملية الألعاب الأولمبية بميونخ.. طغمة عسكرية تلو الأخرى في اليونان. كانت السلطة و«مارسولان»[1] يقمعان بكل هدوء «العمليات اليسارية». ومات، بشكل مفاجئ «بومبيدو» الذي كنا نعتقد أنه يعاني فقط من البواسير. في قاعة الأساتذة، أخذت الملصقات النقابية تعلن أن الإضراب احتجاجا على «تدهور ظروف العمل» سوف «يرغم السلطة على التراجع». وصار تَخَيُّلُ المستقبل يقتصر على وضع دوائر حول أيام العطل في الأجندة، مع الدخول المدرسي في أيلول/سبتمبر.

كانت قراءة صحيفتي «CHARLIE HEBDO» و«LIBERATION» تديم لدينا الإيمان بأننا ننتمي إلى جماعة ذات توجه ثوري.. أننا نعمل، رغم كل شيء، على حدوث ماي/أيار جديد.

---

(١) «ريموند مارسولان» (RAYMOND MARCELLIN) وزير الداخلية الفرنسي ما بين ١٩٦٨ و١٩٧٤ وكان عنوانا لعودة الصرامة والنظام بعد ماي/أيار ٦٨.

بثَّ «الغولاغ»، الذي جاء به «سولجنتسين»، والذي استقبل كما يستقبل الكَشْفُ المثير، الكثيرَ من التشويش على الأفق الثوري ولطخَ سُمعتَه. ظهر على بعض الملصقات شخصٌ بابتسامة كريهة يقول للمارة: «أموالكم تهمني»[1]. انتهى بنا الأمر إلى الاعتماد على «اتحاد اليسار» وبرنامجه المشترك، وهو، على كل حال، مُسْتَجَدٌّ لم نر قط مثيلا له من قبل.

ما بين أيلول/ سبتمبر ٧٣ ـ المظاهرات التي شاركنا فيها تحت الشمس ضد «بينوشي» بعد مقتل «أليندي» في الوقت الذي كان اليمين يهلل فيه لانتهاء «التجربة الشيلية الحزينة» ـ، وربيع ١٩٧٤ ـ كنا مستلقين أمام التلفزيون نشاهد ما قُدِّمَ لنا على أنه الحدثُ الكبير: «ميتران» و«جيسكار ديستانغ» وجها لوجه في لقاء تلفزيوني ـ أقلعنا عن الإيمان بإمكانية حدوث ماي/ أيار جديد. في فصول الربيع التالية، وبسبب المطر الدافئ في آذار/مارس أو نسيان/أبريل، قد يساورنا، في مساء ما بعد الخروج من اجتماع مجلس الفصل، شعورٌ أن شيئًا ما قد يحدث، وفي الوقت ذاته، أن ذلك مجرد وهم. لم يعد يحدث شيء في فصل الربيع، لا في باريس ولا في براغ.

مع «جيسكار ديستانغ» أصبحنا نعيش في «المجتمع الليبرالي المتقدم». لم يعد ينظر إلى أي شيء على أنه سياسي أو اجتماعي، بل فقط على أنه حديث أو غير حديث. فكل شيء صار شأنا من شؤون الحداثة. وأخذ الناس يخلطون بين «الحُرِّ» و«الليبرالي».. يعتقدون بأن

---

(١) ملصق إشهاري لـ«البنك الوطني لباريس» (BNP) ظهر في شوارع العاصمة الفرنسية في ١٩٧٣ وأثار الكثير من الجدل.

المجتمع الذي يحمل هذا الوصف، هو ذاك الذي يتيح الحصول على أكبر قدر ممكن من الحقوق والأشياء.

والحق، لم يكن هناك وقت للشعور بالملل. فحتى نحن ـ الذين أطفأنا التلفزيون عشية يوم الانتخابات بعد أن سمعنا جيسكار يطلق «أحيي منافسي»، مثل طلقات من الضراط، بفمه التي يشبه وعاء الخلط ـ زَلْزَلَنا إقرارُ التصويت في ١٨ عامًا، والطلاق بالاتفاق، ومناقشة قانون الإجهاض، وكدنا نبكي غيظا ونحن نتابع «سيمون فييه» وهي تواجهُ وحيدة في الجمعية العمومية الرجالَ الثائرين الهائجين حتى في معسكرها، ورفعنا لها مكانًا في محفل العظماء الخاص بنا، إلى جانب سيمون الأخرى، «دوبوفوار»، التي أحزننا أول ظهور لها في حوار بالتلفزيون، بعمامتها وأظافرها الحمراء، مثل عرافة.. كان قد فات الأوان على هذا الظهور.. ما كان ينبغي لها فعل ذلك. ولم نعد نغضب لَمَّا يخلطُ التلاميذُ بينها وبين الفيلسوفة التي نستشهد أحيانًا بكلامها في الحصة الدراسية.

ولكننا قطعنا كل الأواصر مع هذا الرئيس الأنيق بعد أن رفض منح العفو لـ«رنوتشي»، الذي حكم عليه بالإعدام في منتصف صيف لم تتخلله ولو قطرة مطر واحدة.. صيفٍ حارقٍ.. الأولِ من نوعه منذ زمن طويل.

صارت الموضة هي الخفة، التلميح، وتلاشت الإدانة الأخلاقية. وأخذنا نتسلى بقراءة عناوين «المصاصات» و«التبان المبلل» على ملصقات السينما. وصار من المستحيل تصور أن فيلم «الراهبة» تم حظره في الماضي القريب جدًا. وكان من الصعب الإقرار بأن المشهد الذي كان

فيه الممثل «باتريك دوير» يرضع ثدي امرأة بدل رضيعها، في فيلم «الخُصْيات»، أربكنا كثيرا.

أخذنا نبتعد عن استعمال الكلمات التي لها علاقة بالأخلاق العامة، لصالح أخرى تقيس الأفعال والسلوك والمشاعر بناء على مقدار المتعة.. على مقدار «الإحباط» و«الإشباع». وكان النمط الجديد للحياة هو: «اللامبالاة».. أن يكون المرء مرتاحًا ومنسجمًا مع ذاته.. خليط من الثقة بالنفس واللامبالاة تُجاه الآخرين.

كان الناس يحلمون، أكثر من أي وقت مضى، بالبادية، بعيدا عن «التلوث».. عن المجرى الثابت لـ«الميترو ـ العمل ـ النوم».. عن الضواحي التي تشبه معسكرات الاعتقال، وعن «مجرميها». مع ذلك كانوا يواصلون التدفق على المدن الكبيرة، للسكن في «مناطق التنمية العمرانية ذات الأولوية» أو في مناطق المساكن المستقلة، حسب الاختيارات المتاحة أمامهم.

وماذا عنا نحن، الذين لم نبلغ بعد الخامسة والثلاثين، والذين تصيبنا فكرة أن «نصنع لأنفسنا مكانة» في مدينة متوسطة في «البروفانس»، حيث سنشيخ ونموت، بالكآبة.. ألن ندخل أبدًا إلى تلك المنطقة التي نتخيلها حوضًا هادرًا وهائجًا مائجًا، والتي نحس بجاذبيتها ونحن في مدينة «ديجون» حيث يتحمس القطار فجأة وينطلق كالمجنون إلى أن يصل الجدران الرمادية لمحطة «ليون».. ألن ندخل منطقة باريس؟ فهي تشكل التطورَ الحتمي للحياة الناجحة.. علامةَ الانضمام الكامل إلى الحداثة.

«سانت-جونفييف-دي-بوا»، «فيل-دافري»، «شيلي-مازاران»، «لوبوتي-كلامار»، «فيلي-لو-بيل».. كنا عاجزين عن تحديد أماكن هذه

الأسماء ـ التي لها رنة جميلة وتاريخية، وتوحي بأحداث فيلم ما، أو بمحاولة اغتيال ديغول، أو بلا شيء ـ على الخريطة، وكنا نعرف فقط أنها تقع داخل تلك الدائرة البهيجة التي يمكن، من أي نقطة منها، الوصول إلى «الحي اللاتيني»، واحتساء قهوة بالحليب بـ«سان جيرمان» تمامًا مثل الممثل «سيرج ريجياني». كان يجب فقط تجنب مناطق «سارسيل»، و«لاكورنوف»، و«سان دوني»، وأعدادها الكبيرة من «السكان الأجانب» الذين تقطنون في تلك التجمعات السكنية التي جرى التنديد بمساوئها حتى في الكتب المدرسية.

ونرحل. نستقر في مدينة جديدة على بعد أربعين كيلومترًا من الطريق الدائري، في منزل خفيف بتجمع سكني توشك فيه الأشغال على الانتهاء، ومفعم بالألوان مثل قرية سياحية، وأزقته تحمل أسماء الزهور. يحدث الباب عند إغلاقه صوتا شبيها بأصوات «البانغلوهات». إنه مكان هادئ مفتوح على سماء «إِلْ-دُو-فْرَانْسْ».. على حافة حقل يخترقه موكب من الأعمدة.

هناك في البعيد، توجد فضاءات معشوشبة.. عمارات زجاجية.. أبراج إدارية.. ممشى مبلط.. وتجمعات أخرى متصلة فيما بينها بممرات تعبر فوق الطرق. يستحيل تصور حدود المدينة. كان يداهمون شعور بأننا نسبح في فضاء شاسع جدًا. لا معنى البتة للتجول هنا.. يمكن، في أحسن الأحوال، الركض بلباس رياضي دون الالتفات إلى ما حولنا.

احتفظنا، في ثنايا أجسادنا، بأثر المدينة السابقة.. أثر الشوارع التي تعبرها السيارات.. أثر المارة على الطوار.

تسارع الزمنُ بفعل الهجرة من الـ«البروفانس» إلى الضاحية الباريسية. لم يعد امتداد الزمن هو نفسه. عند حلول المساء ينتابنا شعور بأننا لم نقم بأي شيء، اللهم إلا إعطاء بعض الدروس الفضفاضة في فصول متوترة.

الإقامة في الضاحية الباريسية يعني:

- التطويح بك في أرض تقع على جغرافيا منفلتة تخترقها شبكة متداخلة من الطرق التي لا نعبرها سوى على متن السيارات.

- العجز عن الإفلات من مشهد السلع الغازية المحتشدة على الأراضي الخلاء أو على طول الطرقات في سلسلة متنوعة من المخازن التي تنذر بالإسراف - «TOUSALON»، «MONDIAL MOQUETTE»، «CUIRCENTER» - وتضفي فجأة واقعية غريبة على الإعلانات التي تبثها الإذاعات التجارية..

- العجز عن لمس أي نظام مبهج في كل ما نرى.

لقد تم نقلنا إلى «زمكان» آخر، إلى عالم آخر، عالم المستقبل على الأرجح. لهذا كان من الصعب تحديده، يمكننا فقط عيش التجربة ونحن نعبر الممشى أسفل البرج الأزرق، وسط أناس لن نعرفهم أبدًا. كنا ندرك أننا نعيش هنا بالآلاف، وبالملايين في كل المنطقة الممتدة إلى غاية حي «لاَدِيفُونْسْ». لم نكن أبدًا نفكر في كل هؤلاء الآخرين.

شعار «هنا باريس» لم يكن له أي وجود واقعي. كنا قد تعبنا من فرط التوجه إليها الأربعاء والأحد برفقة التلاميذ لنُريهم «برج إيفيل»، ومتحف «غريفان»، ونهر «السين» على متن القوارب النهرية. لم تعد المواقع التاريخية - التي يا ما حلمنا بها ونحن أطفال، والتي نكتشف على اللافتات الطرقية أنها قريبة جدًا.. «فيرساي».. «شانتيي».. - تثير رغبتنا. في

أيام الآحاد بعد الظهر، نظل في البيت لمشاهدة برنامج «LE PETIT RAPPORTEUR»، وإنجاز بعض الإصلاحات المنزلية.

يبقى المكان الذي نرتاده كثيرًا بالضرورة هو «المركز التجاري الكبير المغلق» ذو الطوابق الثلاثة، والدافئ، والخفوت رغم الحشود الوافدة.. بسقفه الزجاجي ونافوراته ومقاعده، وممراته ذات الإضاءة الناعمة المتناقضة تمامًا مع الإنارة الحادة للواجهات والمحلات المتراصة، حيث يمكن الدخول والخروج بكل حرية، بلا حاجة لدفع الباب، ولا قول «مرحبا» أو «إلى اللقاء». لم يسبق للملابس والمواد الغذائية أن بدت بكل هذا البهاء.. في متناول اليد وبلا طقوس. كان تصغير أسماء المحلات ـ «LA froquerie»، «LA CARTERIE»، «LA DJINNERIE» ـ يضفي على فعل تقليب السلع لا مبالاة طفولية. وكان يغمرنا إحساس بدوام الشباب.

لم يعد هذا الـ«أنا» هو نفسه ذاك الذي كان يتبضع من «PRISU» أو من «LES NOUVELLES GALERIES». من متجر «DARTY» إلى متجر «PIER IMPORT»، كانت الرغبة في الشراء تتقافز داخلنا، كأن اقتناء محمصة كهربائية ومصباح ياباني سيجعلنا كائنات مختلفة، تمامًا مثلما كنا نأمل في الخامسة عشرة أن نتحول إلى شخص آخر بفضل تداول الكلمات التي كانت على الموضة، وإتقان الـ«روك أند رول».

أخذنا ننزلق إلى حاضر رخو، ولا نعرف إن كان السببَ في ذلك الرحيلُ إلى مدينة بلا ماض، أو الأفقُ اللانهائي لـ«مجتمع ليبرالي متقدم»، أو تزامنهما العرضي. ذهبنا لمشاهدة فيلم «خصلات». على متن الطائرة التي كانت تقل البطل إلى الفيتنام، فنحن من كنا، بمعية أوهامنا الخاصة بـ٦٨، في الطريق إلى الموت.

مع توالي الأسابيع، وتكرار الطواف في مسارات ثابتة، والتردد على موافق السيارات، أخذ الشعور بالغرابة ينحسر عنا. وصرنا نكتشف بدهشة أننا جزء من هذه الساكنة الهائلة والفضفاضة التي كشف لنا ضوضاؤُها الملتبس، والمنبعثُ صباح مساء من الطريق السيار، حقيقتَها اللامرئية والراسخة. أخذنا نكتشف باريس.. نحدد مقاطعاتها وشوارعها، ومحطات الميترو والرصيف الأفضل للنزول وأخذ المواصلة. وسوف نتجرأ على قيادة السيارة إلى غاية ميداني «لِيطْوَالْ» و«لاَكُونْكُورْدْ». عند مدخل جسر «جُونْفِيلْيِيه»، وأمام المشهد الهائل لباريس التي تفتح أبوابها أمامنا بغتة، يغمرنا الشعور بالانتماء إلى هذه الحياة الشاسعة والمفعمة بالحيوية.. كأننا حصلنا على ترقية. ولن تحدونا الرغبة أبدًا في العودة إلى ما صار بالنسبة إلينا، وبدون تمييز، الـ«بروفانس». وفي ليلة ما، وعلى متن القطار الذي يغوص في الظلام المزخرف بالملصقات المضيئة، الحمراء والزرقاء، للضاحية الباريسية، تبدو لنا مدينة «هُوتْ ـ سَافْوَا»، التي غادرنا قبل ثلاث سنوات، كأنها آخر نقطة في العالم.

انتهت حرب الفيتنام. كنا قد عشنا الكثير من الأشياء منذ بدايتها حتى أنها صارت جزء من حياتنا. في يوم سقوط «سايغون» انتبهنا إلى أننا لم نعتقد أبدًا بإمكانية انهزام الأمريكان. أخيرا، أدوا الثمن مقابل النابالم، ومأساة تلك الفتاة الصغيرة الراكضة وسط حقل الأرز، التي كانت صورتها تزين جدراننا. داهمنا الشعورُ بالتعب والبهجة الذي يصاحب الانتهاء من إنجاز المهام. لكن، لم يكن هناك مفر من الإصابة بخيبة الأمل. كان التلفزيون يعرض صور حشود مكدسةٍ على متن قوارب، هاربةٍ من الفيتنام الشيوعية. في الكامبودج، لم يفلح المظهر الحضاري

للملك الطيب «سيهانوك»، الذي لديه اشتراك في «LE CANARD ENCHAINE»، في إخفاء وحشية الخمير الحمر. مات «ماو»، فتذكرنا أحد صباحات الشتاء حين سمعنا ـ ونحن في المطبخ قبيل الذهاب إلى المدرسة ـ من يصرخ: ستالين مات. واكتشفنا، خلف «إله النهر ذي الألف زهرة»، وجودَ شبكة من المجرمين تهيمن عليها الأرملة «جيانغ كينغ». قريبا منا، على الحدود، كان أفراد «الألوية الحمراء» ومنظمة «بادر ماينهوف» يختطفون مديري الشركات ورجال الدولة، ليتم العثور عليهم ميتين داخل صناديق السيارات تمامًا مثل أي مافيوزي. صار التطلع إلى إحداث الثورة أمرًا مخزيًا، ولم نكن نجرؤ على القول إننا حَزِنَا لانتحار «أولريك ماينهوف» في زنزانتها. وبشكل غامض، سيتم ربط جريمة «ألتوسير» ـ الذي خنق زوجته صباح يوم أحد في السرير ـ بالماركسية التي كان يُجَسِّدُهَا، وبمشكلته النفسية على حد سواء.

أخذ «الفلاسفة الجدد» يظهرون في بلاتوهات التلفزيون، ويحاربون «الإيديولوجيات»، ملوحين بـ«سولجنتسين» والغولاغ لطمر الحالمين بالثورة. على عكس «سارتر»، الذي صار يوصف بـ«الخَرِف» ـ والذي يرفض دائمًا الذهاب إلى التلفزيون ـ و«دوبوفوار» بوتيرة كلامها السريعة، كانوا شبانا، ويتوجهون إلى الأذهان بكلمات يفهمها الجميع. ويعززون ثقة الناس في ذكائهم. كان مشهدهم وهم يعبرون عن سخطهم الأخلاقي يغري بالمتابعة، ولكننا لم نكن حقا ندرك غايتهم بالضبط، اللهم إلا ثَنْي الناس عن التصويت لـ«اتحاد اليسار».

لم يكن يحدونا أي أمل في كل هذا، نحن الذين أُفْتِيَ لنا في الصغر بأن خلاصَ أرواحنا يكمن في الأعمال الصالحة.. وطُلِبَ منا، في قسم الفلسفة، تطبيق «الحتمية الضرورية» لكانط ـ «اعمل وكأن قاعدة فعلك لا

بد أن تصير قانونا طبيعيا شاملا» ـ.. ومع ماركس وسارتر، تغييرَ العالم (اعتقدنا تحقيق هذا في ٦٨).

كانت الأصوات المأذون لها بالحديث خرساء حيال الضواحي والأسر الجديدة الوافدة، التي تقطن في «المساكن المنخفضة الكراء» بجوار من كانوا يعيشون في المنطقة قبلهم، ويؤاخذونهم بعدم إتقان لغتهم وباختلاف أكلهم. إنهم سكان مبهمون غير معروفين يعيشون دون مستوى السعادة التي يتطلع إليها المجتمع.. تجمعات من المحرومين الذين لا خيار لديهم سوى العيش في «أقفاص الأرانب» حيث لا يمكن لأي أحد، على كل حال، أن يكون سعيدا. حافظت الهجرة على صورةِ ذلك العامل المنهمك في الحفر تحت قبعته هناك في عمق حفرة ما.. صورةِ جامع الأزبال المعلق خلف شاحنة النفايات.. كان للمهاجرين وجود اقتصادي صرف.. ذلك الوجود الذي يضفيه عليهم تلامذتنا بفخر، خلال المناظرة السنوية الصريحة، وهم مقتنعون بالتوفر على أفضل حجة ضد العنصرية: نحن في حاجة إليهم للقيام بالأعمال التي يترفع عنها الفرنسيون.

وحدها الأحداث التي يبثها التلفزيون ترتقي إلى مرتبة الواقع. كان الجميع يملكون واحدا بالألوان. يشغله المسنون ابتداء من منتصف النهار مع بداية الإرسال، ويغلبهم النعاس ليلا أمام الصورة الثابتة لما بعد الإرسال. في فصل الشتاء، لا يحتاج المتدينون لشيء آخر غير مشاهدة برنامج «LE JOUR DU SEIGNEUR»، ليكون لديهم القداس في عقر الدار. وتقوم النساء بكي الملابس وهن يشاهدن المسلسل على القناة الأولى أو البرنامج النسوي «AUJOURD'HUI MADAME» على القناة

الثانية. وتعمد الأمهات إلى إلهاء الأطفال ببرنامج «LES VISITEURS DU MERCREDI» و«LE MONDE MERVEILLEUX DE WALT DISNEY». بالنسبة إلى الجميع كان التلفزيون يعني الحصول على الترفيه فورًا وبكلفة قليلة، ويعني بالنسبة إلى الزوجات الحفاظ على الأزواج بجانبهن أمام البرنامج الرياضي «SPORT DIMANCHE». كان هذا الجهازُ يَحُفُّنَا بِجَذْبٍ لا ينقطع، يلوح في الوجوه المبتسمة والمتفهمة للمنشطين («جاك مارتان»، «ستيفان كولارو») وطلعتهم اللطيفة («برنار بيفو»، «ألان ديكو»).

أخذ هذا الجهاز يجمعنا أكثر فأكثر حول نفس الفضول، والمخاوف، والإشباع.. هل سيعثرون على القاتل البغيض الذي قتل الصغير «فيليب برتراند».. قضية البارون «أومبان».. إلقاء القبض على «ميسرين»[١].. هل سينتقل «آية الله الخميني» إلى طهران؟

كان يمنحنا تلك القدرة على ذكر الأحداث والحوادث بشكل متواصل ومتجدد.. يوفر للناس معلومات طبيةً، وتاريخيةً، وجغرافيةً، وحيوانيةً... إلخ. أخذت المعرفة المشتركة تتوسع.. معرفة سعيدة، بلا عواقب.. معرفة لم نكن مطالبين، على خلاف المدرسة، باستعراضها سوى خلال الأحاديث، وتسبقها «قالوا» أو «بثوا في التلفزيون».. معرفة يمكن التعامل معها حسب الاختيار، كدليل على ضرورة أخذ مسافة مع المصدر أو كبرهان على الحقيقة.

---

(١) قضية الطفل «فيليب برتراند» (PHILIPPE BERTREND): جريمة اختطاف ومقتل هذا الطفل أثارت الكثير من الجدل في أواسط السبعينيات.
«البارون أومبان» (LE BARON EMPAIN): رجل أعمال ثري تعرض للاختطاف في ١٩٧٨ وتم تحريره بعد ٦٣ يوما من الاحتجاز.
«جاك ميسرين» (JACQUES MESRINE) مجرم فرنسي شهير في السبعينيات وقد تمكنت قوات الأمن من قتله في أواخر ١٩٧٩.

فقط الأساتذة هم الذين اتهموا التلفزيون بإبعاد الأطفال عن القراءة وإصابة خيالهم بالعقم. لم يكن هؤلاء الأطفال يأبهون بهم، وينشدون بصوت عال «هيا.. لجمع بلح البحر.. البحر.. البحر»، ويقلدون أصوات «TITI» و«GROSMINET»، ويرددون بفرح «الماموث يسحق الأسعار.. الجدة تسحق الضراط »[١]...

صار الاستيعاب المتنوع والمتواصل للعالم، يمر، مع توالي الأيام، عبر التلفزيون. أخذت تنشأ ذاكرة جديدة. ومن انصهار آلاف الأشياء الافتراضية، وتلك التي شوهدت، ونُسيت، وفُصِلَت عن التعاليق التي كانت تصاحبها، ستطفو الإعلانات الطويلة والوجوه الأكثر طرافة أو المفرطة الظهور والمشاهد الطريفة والعنيفة، في تركيبة تعطي الانطباع بأن «جون سيبيرغ» و«ألدو مورو»[٢] قد عثر عليهما ميتيْن في نفس السيارة.

كان موت المثقفين والمطربين يعمق بؤس المرحلة. بالنسبة إلى «بارث»، أقبل الرحيلُ مبكرًا جدًّا. أما موت «سارتر»، فقد فكرنا فيه، وجاء مهيبا. سار خلف النعش مليون شخص، وانزلقت عمامة «سيمون

(١) الـ«MAMMOTH» اسم أحد الأسواق التجارية الكبيرة.. العلامة اختفت بشكل نهائي في ٢٠٠٩.

(٢) «جان سيبيرغ» (JEAN SEBERG): ممثلة أمريكية عثر عليها ميتة في سيارتها بباريس في أغسطس ١٩٧٩.
«ألدو مورو» (ALDO MORO): رئيس الحكومة الإيطالية. اختطفته منظمة «الألوية الحمراء» وسط روما في آذار/ مارس ١٩٧٨، وعثر على جثته في صندوق سيارة في أيار/ماي، بعد ٥٥ يوما من الاحتجاز.

دوبفوار» عند إنزال التابوت إلى القبر. «سارتر» هذا، الذي عاش ضعفي ما عاشه «كامو» المدفون إلى جانب «جيرار فيليب» في «قبر» شتاء ٥٩ - ٦٠.

عمق فينا موت «بريل» و«براسانس» - إسوة بوفاة «بياف» في الماضي - الاضطراب، كأنه كان عليهما مصاحبتنا طيلة حياتنا، حتى وإلم نعد نستمع إليهما كثيرًا - الأول كان أخلاقيا أكثر من اللازم والثاني فوضيًا لطيفًا - وصرنا نفضل «رونو» و«سوشون». لا علاقة لهذا الرحيل بالموت السخيف لـ«كلود فرانسوا» الذي أصيب بمس كهربائي في حوض الحمام عشية الدور الأول من الانتخابات التشريعية - التي خسرها اليسار مع أن الجميع كان يتوقع فوزه - ولا بموت «جو داسان» الذي باغتته المنية في نفس عمرنا تقريبا آنذاك، ليداهمنا الشعور فجأة أننا بعيدون جدًا عن ربيع ٧٥ وسقوط «سايغون».. عن فورة الأمل التي ارتبطت بأغنية «الصيف الهندي».

في نهاية السبعينيات، أخذت الذاكرة تتقلص أكثر خلال الولائم العائلية، التي تمت المحافظة على تقليدها رغم التشتت الجغرافي لهؤلاء وأولئك.

حول محار «سان جاك»، ولحم البقر المشوي المقتنى من عند الجزار (ليس من السوق الكبير) المصحوب بـ«بطاطس الدوفين» - المجمدة لكن لها لذة البطاطس الطرية حسبما ما يقولون - كان الحديث يدور حول السيارات والمقارنة بين مختلف الماركات، ومشروع بناء بيت جديد أو شراء واحد قديم، والعطلة الأخيرة، ووتيرة استهلاك الوقت والأشياء. في خضم الحرص الغريزي على تجنب المواضيع التي توقظ

التطلعات الاجتماعية القديمة، والفوارق الثقافية، نعمد إلى جرد تفاصيل الحاضر المشترك: العبوات الناسفة في كورسيكا، الهجمات في إسبانيا وإيرلندا، ألماس «بوكاسا»، الكتيب الهجائي لـ«هازارد ديستان»، ترشيح «كوليش» للانتخابات الرئاسية، «بيورن بورغ»، المُلَوِّنُ «E123»، الأفلام، «الوليمة العظيمة» الذي شاهده الجميع باستثناء الأجداد الذين لا يذهبون قط إلى السينما، شريط «مانهاتان». وتنخرط النساء في حوارات جانبية حول الشؤون المنزلية ـ طرق طي الملاءات المجهزة.. تآكل سراويل الجينز عند الرُّكَب.. إزالة بقع النبيذ من الغطاء بالملح ـ وسط حديث يحتكر الرجالُ كلَّ مواضيعه.

غاضت ذكريات الحرب والاحتلال، وبالكاد تعود عند التحلية بالشمبانيا على لسان الشيوخ ونتابعهم بالابتسامة ذاتها التي تعلو وجوهَنا حين يستعيدون «موريس شوفاليي» و«جوزفين بيكر». لقد أخذت الروابط مع ذلك الماضي تتلاشى أكثر فأكثر. صرنا نُوَرِّثُ الحاضر فقط.

كان الأطفال محط انشغال في أحاديث الآباء الذين يقارنون أساليبَهم في التربية، وفي التعامل مع كل هذا التساهل الذي لم يعيشوه.. أساليبَهم في المنع أو الترخيص (حبوب منع الحمل، الحفلات الساهرة، السجائر، الدراجة النارية). يتحدثون عن مزايا التعليم الخاص، ومنافع تعلم الألمانية، وفوائد الرحلات اللغوية. فهم يريدون مؤسسة إعدادية جيدة، شعبة دراسية جيدة، ثانوية جيدة، أساتذة جيدين: كانوا مهووسين بذلك التميز الذي من شأنه أن يَحُفَّ بأطفالهم، ويجعلهم يتشربون، بدون ألم، ذلك النجاح الفردي الذي يشعرون أنهم، وحدهم، المسؤولون عنه.

لقد حل زمن الأطفال مكان زمن الموتى.

عند سؤالهم بحذر حول وسائل الترفيه والموسيقى المفضلة لديهم، كان المراهقون يمتثلون للرد، باختصار وتوجس، وهم مقتنعون أننا في العمق لا نهتم بأذواقهم، وحتى إن كنا مهتمين بها فلكي تكون مؤشرًا على شيء ما يحسونه غامضًا.. ربما مؤشرًا على ذواتهم الخفية التي يحرصون على عدم إطلاعنا عليها. وفي خضم القلق الذي تثيره فينا «لعب الأدوار» و«لعب الحرب» ولعبة «الخيال البطولي»، كنا نطمئن عند ذكرهم لـ«سيد الخواتم» و«البيتلز»، ولا يكتفون بالـ«بينك فلويد» والـ«سيكس بيستولز»، و«الهارد روك» الذي يفرضونه علينا طيلة اليوم. عندما ننظر إليهم وهم مؤدبون بكنزاتهم ذات الياقة «V» فوق قميص بمربعات، وبتسريحات شعرهم الهادئة، نقول مع أنفسنا إنهم قد أفلتوا، لحد الآن، من براثن المخدرات، والسكيزوفرينيا، و«الوكالة الوطنية للتشغيل».

بعد التحلية، يُطْلَب من الصغار عرض اللوحات التي أنجزوا بالمسامير والخيط، واستعراض مهاراتهم في لعبة «مكعب روبيك»، وفي عزف أغنية «الزنجي الصغير» لـ«دوبوسي» على البيانو، والتي لا يستمع إليها أي أحد، ما يثير انزعاج الآباء. وبعد أخذ ورد، يستبعد الجميع إنهاء هذا الاجتماع العائلي بلعبة مجتمعية، فالشباب لا يلعبون «البريدج»، والشيوخ يتوجسون من «السكرابل»، أما لعبة «منوبولي» فكانت طويلة جدًا.

أما نحن، وعلى حافة عقد الثمانينيات الذي سنبلغ فيه الأربعين، فنستعرض ـ وقد غمرتنا تلك العذوبة الضجرة التي تصاحب تقليدًا منجزًا

بهمة ـ الوجوه الجالسة حول هذه المائدة والتي تبدو معتمة بسبب ضوء النهار. فجأة يباغتنا بشكل خاطف إحساس بغرابة تكرار طقس صرنا نحتل فيه الآن مكانة وسطى بين جيلين. تصيبنا هذه الاستمرارية بالدوار، فكأن شيئًا لم يتغير في المجتمع. وفي خضم ضوضاء الأصوات، التي تبدو فجأة منفصلة عن الأجساد، ندرك أن الجنون يمكن أن يندلع وسط المأدبة العائلية، فنقوم بقلب المائدة ونحن نصرخ.

وفقا لرغبتنا وإرادة الدولة، التي تتولى البنوك وبرامج الادخار الخاص بالسكن تنفيذها، أفلحنا في امتلاك مسكن. هذا الحلم الذي تحقق، هذا الإنجاز الاجتماعي، يقلص الزمن.. يقرب الأزواج أكثر من الشيخوخة: فهم سيعيشون في هذا المسكن إلى أن يأتيهم الموت. الشغل، الزواج، الأطفال.. لقد ذهبوا إلى أقصى مدى على مسار إعادة إنتاج النسل. هذا المسار الذي تختمه الآن أحجارُ المسكن، بأقساط موزعة على عشرين سنة. يغرقون في دوامة الإصلاحات وإعادة الصباغة، وتركيب أقمشة الجدران. ثم تداهمهم لبرهة الرغبة في العودة إلى الماضي. فيغبطون الشباب الذين ينخرطون، وبموافقة الجميع، في «تعايش شبابي» كان محظورًا عليهم. أخذت حالات الطلاق تتكاثر حولهم. جربوا الأفلام الإيروتيكية، وشراء الملابس الداخلية المثيرة. من فرط ممارسة الجنس مع نفس الرجل، تشعر النساء بأنهن استعدنا عذريتهن من جديد. ينتابهن شعورٌ بأن المدة الفاصلة بين مواعيد العادة الشهرية تتقلص. يقارنَّ حياتهن بحياة العازبات والمطلقات، ويتابعن بحزن شابةً رَحَّالَةً، وهي جالسة أمام المحطة وحقيبتها قربها، تحتسي الحليب بكل هدوء. لتجريب قدرتهن على العيش بدون أزواج، تذهب

النساء إلى السينما لوحدهن، في حصة بعد الظهر، وهن يرتعدن في دواخلهن، لأنهن يعتقدن أن الجميع يدرك أنهن لسن في مكانهن.

يعدن إلى سوق الإغراء، ويكتشفن من جديد أنهن عرضة للمغامرات التي أبعدهن عنها الزواج والأمومة. يرغبن في الذهاب لوحدهن في عطلة بدون الزوج والأطفال، ثم ينتبهن إلى أن إمكانية السفر والوجود لوحدهن في الفندق تغمرهن بالقلق والخوف. كن، حسب الأيام، يتأرجحن بين الرغبةِ في التخلي عن كل شيء واستعادة استقلالهن، والخوفِ من ذلك.

لمعرفة رغبتنا الحقيقية والحصول على جرعة من الشجاعة، كنا نذهب لمشاهدة «امرأة خاضعة» و«تعريف امرأة».. نقرأ «المرأة العسراء»، و«المرأة الوفية»[1]. قبل اتخاذ قرار الانفصال، تمر شهور من الخصومات الأسرية والمصالحات المملة، من الكلام مع الصديقات، من التلويح الحذر للوالدين بخصوص عدم التفاهم مع الزوج.. التلويح لهما، هما اللذان رفعا تحذيرهما عند الزواج: لا وجود عندنا لشيء اسمه الطلاق. وفي مسار القطيعة، كان جرد الأثاث والتجهيزات المنزلية التي يجب

---

(١) «امرأة خاضعة» (A WOMEN UNDER INFLUENCE) فيلم أمريكي (١٩٧٤) يحكي عن سيدة تحاول التحرر من القيود الاجتماعية.
«تعريف امرأة» (IDENTIFICAZIONE DI UNA DONNA) فيلم إيطالي (١٩٨٢) يحاول سبر أغوار العلاقة بين المرأة والرجل.
«المرأة العسراء» رواية للكاتب النمساوي «بيتر هاندكه» الحاصل على نوبل الآداب في ٢٠١٩، وقد صدرت في ١٩٧٦ وهي تحكي عن امرأة تدعى «ماريان» تتأرجح بين متعة الحرية من قيود الزواج وألم العزلة.
«المرأة الوفية» رواية للكاتبة النرويجية «إنغريد أوندست» الحاصلة على نوبل الآداب عام ١٩٢٨، وقد صدرت الرواية في ١٩٣٦ وتحكي عن تقلبات الحياة الزوجية والعاطفية.

اقتسامها، يشكل، على الأرجح، نقطة اللاعودة. هكذا، نُعِدُّ قائمةً بالأشياء التي تراكمت طيلة خمس عشرة سنة:

البساط: ٣٠٠ فرنك

استريو هاي فاي: ١٠ آلاف فرنك

حوض السمك: ١٠٠٠ فرنك

مرآة من المغرب: ٢٠٠ فرانك

سرير: ٢٠٠٠ فرانك

مقاعد من طراز «إيمانويل»: ١٠٠٠ فرنك

الصيدلية المنزلية: ٥٠ فرنكا

إلخ...

كنا نتنازعها، بناء على قيمتها السوقية («لم تعد تساوي شيئًا») وقيمتها العملية («أنا أحتاج للسيارة أكثر منك»). فما كنا نرغب فيه سويا في بداية استقرارنا، وكنا راضين بالحصول عليه، وتلاشى في الديكور والاستعمالات اليومية، استعاد الآن وضعه الأصلي، المنسي، كشيء له ثمن. وكما كانت قائمةُ المشتريات ـ من الأواني المطبخية إلى أغطية السرير ـ تمثل جَمْعَ الشملِ في إطار الاستمرارية، تجسد قائمةُ الأشياء التي يجب اقتسامها، الآن، القطيعةَ. فهي تنهي بجرة قلم ذلك الفضولَ المشترك والرغباتِ الجماعية، والطلبياتِ المعدة بناء على الكتالوغات مساءً بعد العشاء، والترددَ، في متجر «DARTY»، أمام مطبخين من طرازين مختلفين، والرحلةَ المحفوفة بالمخاطر فوق سطح السيارة لكرسي تم شراؤه من بائع التحف بعد ظهر يوم صيفي. كانت هذه القائمةُ تعتبر مُصَادَقَةً على نهاية الزواج. الخطوة التالية هي استشارة محام، وتحويل قصتنا المشتركة إلى لغة قانونية تفرغ عملية الانفصال من كل عناصرها العاطفية وتحولها إلى مجرد قضية عادية بلا اسم.. قضية حول

«تقاسم الملكية المشتركة». كانت تنتابنا الرغبة في الفرار وعدم القيام بأي خطوة إضافية. ولكننا كنا نستشعر استحالة العودة إلى الوراء، مستعدات لعيش ألم الطلاق، والتعرض للتهديدات والشتائم، والدناءة.. مستعدات للعيش بنصف ما كنا نعيش به.. مستعدات لكل شيء من أجل استعادة الرغبة في عيش المستقبل.

صورة بالألوان: امرأة وطفل في الثانية عشرة ورجل، يقفون على مسافة من بعضهم بعض، راسمين مثلثًا على ساحة رملية شديدة البياض بسبب وهج الشمس، وظلالُهم بقربهم، أمام بناء لعله متحف. إلى اليمين، الرجل، مديرًا ظهره، رافعًا ذراعيه، مرتديًا بذلة سوداء من طراز «ماو»، كان يصور البناء. هناك في عمق الصورة، مشكلاً رأس المثلث، يقف الطفل مواجهًا الكاميرا، مرتديًا شورطًا وتي شورت عليه كتابة غير واضحة، يحمل شيئًا أسود اللون، بلا شك حافظة آلة التصوير. إلى اليسار، في مقدمة الصورة، تقف المرأة، مرتدية فستانًا أخضر ضيقًا يتسع ابتداء من الخصر، يتأرجح بين الطراز اليومي العادي وال«هيبي». كانت تحمل كتابا ضخما لعله «الدليل الأزرق». شعرها مشدود إلى الوراء خلف أذنيها، مبرزًا وجهًا ممتلئًا وغير واضح الملامح بسبب الإنارة. ما تحت الفستان المهلهل يوحي بثقل الجزء الأسفل للجسد. يبدو أن المرأة والطفل كان يتحركان أثناء التقاط الصورة والتفتا نحو العدسة بابتسامة في آخر لحظة، بتنبيه من ملتقط الصورة. على ظهرها: إسبانيا، تموز/يوليو ١٩٨٠.

كانت الزوجةَ والأمَ في هذه الأسرة الصغيرة التي كان عضوها الرابع، الابن البكر المراهق، هو من التقط الصورة. يوحي الشعر المشدود،

والكتفان المقوسان، والفستان المهمل، بالإرهاق وغياب أي رغبة في الإغراء، رغم الابتسامة العريضة.

هنا، تحت الشمس، وفي هذا الموقع غير المحدد على مسار سياحي، لم يكن يشغلها، بلا شك، أي شيء ما عدا هذه الفقاعة الأسرية التي كانوا يطوفون بها بين الفنادق والحانات والمواقع التاريخية ذات الثلاثة نجمات في الدليل السياحي، وهم على متن الـ«بيجو ٣٠٥» التي كانوا يخافون أن تتلف «إيتا» عجلاتها. وسط هذا «الانغلاق» بالهواء الطلق، وبعد أن تخففت مؤقتا من ذلك الهم المتعدد الذي تحمل أجندتُها آثارَه ـ تغيير الأغطية.. طلب الشواء.. مجلس القسم.. إلخ ـ ووَجَدَتْ نفسَها بالتالي أمام وعيها الحاد، بدتْ عاجزة، منذ مغادرة الضاحية الباريسية تحت أمطار غزيرة، عن التخلص من ألم حياتها الزوجية.. وقد صار كُبّة اختلط فيها الشعور بالعجز والمرارة والإهمال.

إنه ألمٌ «يُفَلْتِرُ» علاقتها بالعالم. فلم تكن تولي المناظر الطبيعية سوى اهتمام عابر، مكتفية بالانتباه، في مداخل المدن.. إلى حضور مجسمات «الماموث»، العلامة التجارية، المرفوعة في أطراف السهول.. إلى غياب مجسمات الحمير، التي غيرتها إسبانيا منذ رحيل «فرانكو». في طيراسات المقاهي، لم تكن ترى سوى النساء اللواتي تُقَدِّرُ أعمارَهن بين الخامسة والثلاثين والخمسين عامًا، باحثة في ملامحهن عن علامات الفرح أو التَّرَح، «كيف، يتدبرن أمرهن؟». ولكن، في بعض الأحيان، وهي جالسة في مكان قصي داخل إحدى الحانات، متابعةً طِفْلَيْها وهما يلعبان مع أبيهما بعض الألعاب الإلكترونية، كانت تمزقها فكرة جلب المعاناة، بطلاقها، إلى هذا العالم الهادئ.

من هذه الرحلة إلى إسبانيا بَقِيتِ اللحظاتُ التالية:

- في الساحة الرئيسية بمدينة «سلامنكا»، وهم يحتسون مشروبا في الظل، لم تستطيع الفكاك من مشهد امرأة في الأربعين - لها هيأة ربة بيت هادئة بقميصها المزين بالزهور وتنورتها التي تصل إلى الركبة، وحقيبتها الصغيرة - وهي تحاول إغواء المارة تحت الأقواس.

- في الليل، بفندق «الإيسكورال» في «طليطلة»، سارعت، بعد أن أيقظتها تأوهات، إلى الغرفة المجاورة حيث الطفلين. كانا غارقين في نوم هادئ. بعد العودة إلى غرفتهما، انتبهت، هي وزوجها، إلى أن الأمر يتعلق بامرأة بلغت ذروة النشوة، وكانت جدران الفِناء تردد صدى تأوهاتها التي تصل إلى كل الغرف المفتوحة النوافذ. لم تستطيع منع نفسها من الاستمناء بجانب زوجها النائم.

- في «بامبلونا» حيث أمضوا ثلاثة أيام في عز مهرجان «سان فيرمين»، أحست في بعد ظهر أحد هذه الأيام، وهي تتثاءب وحيدة في السرير، كأنها في الثامنة عشر بمقصورتها في دار البنات.. نفس الجسد.. نفس الإحساس بالوحدة.. نفس الرغبة في عدم القيام بأي شيء. وهي في سريرها، كانت تصلها مختلف أنواع الموسيقى التي تخترق شوارع المدينة رفقة الدمى العملاقة، دون توقف. إنه الشعور القديم بالعيش خارج العيد.

خلال صيف ٨٠ هذا، بدا لها زمن شبابها امتدادا لا نهائيا، يكتنفه الضوء، وتشغل هي كل نقطة فيه، وتشمله بنظرتها الحالية دون أن تميز منه شيئًا معينا. يداهمها الذهول عند الانتباه إلى أن هذا العالم صار خلفها. لأول مرة تستوعب، في تلك السنة، المعنى الرهيب لجملة: «أملك حياة واحدة لا غير». لعلها رأت نفسها مسبقا في عجوز فيلم

«تربية الغربان»[1] ـ الشريط الذي أثر فيها خلال صيفٍ آخر، بعيدِ الآن، صيفِ «الجفاف»، بحرارته غير طبيعية ـ المشلولة، الخرساء، التي لا تكف عن تأمل صور معلقة على الجدار، ووجهها تغزوه الدموع، بينما تتكرر نفس الأغاني. كانت الأفلام التي ترغب في رؤيتها، أو شاهدتها مؤخرا، ترسم في دواخلها مسارات خيالية تبحث في ثناياها عن حياتها الخاصة.. «واندا».. «قصة عادية»[2].. كانت تستخبر تلك الأشرطة عن ملامح مستقبلها.

بدا لها أن كتابا ما ينكتب لوحده خلفها، فقط من خلال عيش الأيام. لا شيء من هذا.

خرجنا من حالة الخمول والجمود التي كانت تغمرنا، دون أن نشعر بذلك.

صار الناس ينظرون إلى المجتمع والسياسة بالسخرية المرحة لـ«كوليش». وكان الأطفال يعرفون «ممنوعاته»، وأخذ الجميع يرددون «هذا جديد، ظهر للتو». كان تصوره لفرنسا «التي تتلوى من الضحك» يتماشى مع رؤيتنا، وقد أبهجنا قبوله الترشح للانتخابات الرئاسية، حتى وإن لم نكن نفكر في الذهاب إلى حد انتهاك حرمة الاقتراع العام

---

(١) «تربية الغربان» (CRIA CUERVOS): فيلم إسباني (١٩٧٦) يتناول موضوع العلاقة الملتبسة والشائكة بين الطفولة وسن الرشد.

(٢) «واندا» (WANDA) فيلم أمريكي (١٩٧٠) يروي حكاية امرأة تركت زوجها وأسرتها لتعيش حياة التشرد مع أحد اللصوص.
«قصة عادية» (UNE HISTOIRE SIMPLE) فيلم فرنسي ألماني (١٩٧٨) يحكي عن تقلبات حياة امرأة بسيطة.

بالتصويت له. ابتهجنا لمعرفة أن «جيسكار ديستانغ» المتعجرف حصل على الألماس من طاغية إفريقي يُعْتَقَدُ أنه يحتفظ بجثث معارضيه في ثلاجته[1]. وبفضل تحول لا يعرف أحد متى بدأ، لم يعد يجسدُ الحقيقةَ، والتقدمَ، والشبابَ. صار «ميتران» من يمثل كل هذا.. «ميتران» الذي يتبنى: الإذاعات الحرة، التعويض عن عمليات الإجهاض، التقاعد في الستين، العمل ٣٩ ساعة في الأسبوع، إلغاء عقوبة الإعدام.. إلخ. صارت تحيط به الآن هالةٌ من السلطة، تمنحها صورتُه على خلفية قرية بجرس كنيستها، قوةَ تلك البداهة المتجذرة في ذاكرة الأقدمين.

كنا نركن إلى الصمت، من باب التَّطَيُّر. فالإفصاح عن اعتقادنا الراسخ في قدوم اليسار، قد يكون منبع شؤم. صار تعبير «الانتخابات، فخ الأغبياء»[2] شعارا ينتمي إلى حقبة أخرى بعيدة.

حتى عندما رأينا وجه «فرانسوا ميتران» ينكشف على الشاشة، لم نصدق الأمر. ثم انتبهنا إلى أن كل حياتنا كراشدين كانت تحت حكومات لا تهمنا في شيء.. ثلاثة وعشرون سنة بدت، باستثناء شهر اسمه «ماي/ أيار»، مثل سيلٍ متدفق بلا أمل.. سيل لم تنبع فيه السعادة أبدًا من الشأن السياسي. شعرنا بالضغينة، كأن شيئًا من شبابنا سرق منا.

بعد كل هذا الزمن، وفي مساء يوم أحد ضبابي من «ماي/أيار» الذي يمحو إخفاقات نظيره الأسبق، ها نحن نعود إلى التاريخ، محفوفين

---

(١) المقصود هنا هو «جون بيديل بوكاسا» رئيس إفريقيا الوسطى إلى غاية نهاية السبعينيات والذي أعلن نفسه امبراطورًا.

(٢) «الانتخابات فخ الأغبياء» (ELECTIONS PIEGE A CONS) شعار رفعه الشباب الفرنسي في خضم تداعيات أيار/ ماي ١٩٦٨، بعد أن أعلن الرئيس الفرنسي «شارل ديغول» عن انتخابات سابقة لأوانها.

بجحافل من الناس: الشباب، النساء، العمال، الأساتذة، الفنانون، المثليون، الممرضات، سعاة البريد.. وداهمتنا الرغبة في إعادة كتابته مرة أخرى. إنها ١٩٣٦، و«الجبهة الشعبية» التي عرفها الآباء.. إنه التحرير.. إنها «٦٨» وقد حالفها النجاح. كنا في حاجة ماسة إلى الحماس والعواطف، إلى الوردة و«محفل العظماء»، إلى «جون جوريس» و«جون مولان»، إلى أغنية «زمن الكرز» و«بيوت المنجميين» لـ«بيير باشلي».. كلمات حماسية بدت لنا صادقة لأننا لم نسمعها منذ زمن طويل. كان يجب استعادةُ الماضي، إعادةُ انتزاع سجن «الباستيل»، السُّكْرُ حتى الثمالة بالرموز والحنين قبل مواجهة المستقبل. دموعُ الفرح التي درفها «مانديس فرانس» لما عانقه «ميتران» كانت دموعَنا. كنا نسخر من ذعر أصحاب الأملاك الذين كانوا يَخِفُّون إلى سويسرا لإخفاء أموالهم. كنا نُطَمْئِن، بنوع من التعالي، السكرتيرات اللواتي يخشين تأميم شققهن. جاءت محاولة اغتيال «يوحنا بولس الثاني»، على يد تركي، في غير وقتها تمامًا.. سننساها الآن.

كان كل شيء يبدو ممكنا. كان كل شيء يبدو مستجدًا. كنا ننظر إلى الوزراء الشيوعيين الأربعة بفضول، كأنهم من فصيلة غريبة، ونحن مستغربون من كونهم لا يشبهون السوفيات ولا يتحدثون بلكنة «مارشي» أو «لاجواني»[1]. كان قلبُنا يلين ونحن نشاهد النواب بالغليون ولحية خفيفة بلا شارب مثل طلبة الستينيات.

---

(١) «جورج مارشي» (GEORGES MARCHAIS) رجل سياسة فرنسي والأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي من ١٩٧٢ إلى ١٩٩٤.
«أندري لاجواني» (ANDRE LAJOINIE) من الوجوه البارزة في الحزب الشيوعي الفرنسي ترشح باسم الحزب في رئاسيات ١٩٨٨.

كان الجو العام يتسم بالخفة، والحياة تبدو أكثر شبابا. كانت تتواتر كلمات بعينها.. البورجوازية، الطبقة الاجتماعية. أخذت اللغة تتحرر. على الطريق السيار خلال العطلة، كنا نحس، ونحن نطلق أشرطة الكاسيط لفرقة «IRON MAIDEN» بأعلى صوت وننصت لمغامرات «دافيد غروسيكس» على أمواج إذاعة «CARBONE 14»، أن زمنا جديدا ينفتح أمامنا.

لم يحدث قط ـ وإلى أقصى ما تستطيع الذاكرة بلوغه ـ أن تحققت كل هذه المكاسب العديدة في ظرف شهور معدودة (الأمر الذي سننساه سريعًا، ونحن لا نتصور أبدًا العودة إلى الوضع السابق): إلغاء عقوبة الإعدام، إقرار التعويض عن الوقف الإرادي للحمل، تسوية وضعية المهاجرين السريين، إقرار حق المثلية، تمديد العطلة السنوية بأسبوع، تقليص ساعات العمل الأسبوعية.. إلخ. بيد أن هذه الطمأنينة أخذت تتعكر. شرعت الحكومة في البحث عن المال. وصارت تقترضه منا.. تخفض من قيمة العملة.. تمنع الفرنك من الخروج من البلاد مشددة مراقبة عمليات الصرف. وأخذ نوع من التشدد يزحف على الأجواء، وصار الخطاب ـ غلبت عليه ألفاظ «الصرامة»، «التقشف» ـ يتحول إلى نوع من العقاب، كأنَّ الحصولَ على مزيد من الوقت والمال والحقوق أمرٌ غير مشروع، ويجب العودة إلى وضعٍ طبيعيٍ يحدده الاقتصاديون. لم يعد «ميتران» يتحدث عن «شعب اليسار». لم نكُن نلومه كثيرًا حينذاك، فهو ليس «تاتشر» التي تركت «بوبي ساندس» يموت وأرسلت الجنود ليُقْتلوا في جزر «المالوين». ولكن العاشر من ماي/أيار صار ذكرى محرجةً، عديمة الأهمية تقريبا. بدت عمليات التأميم، والرفع من الأجور، وتقليص مدة العمل.. باختصار بدا كلُّ ما كنا نعتقده تحقيقا للعدالة وبوادر مجتمع جديد، جزءً من احتفال كبير بذكرى «الجبهة الشعبية».. جزءً من طقس شعائري يقام لتلك المُثُلِ المطمورة والتي لم

يؤمن بها حتى المشاركون في الاحتفال، على ما يبدو. لم يحدث ما كان مأمولا. من جديد، أخذت الدولة تبتعد عنها.

أَخَذَتْ تَتَقَرَّبُ من وسائل الإعلام. وشرع رجالُ السياسة في الظهور على شاشة التلفزيون ـ في إخراج احتفالي تضفي عليه الموسيقى طابعا مسرحيا ـ حيث يتظاهرون بالخضوع للاستجواب وبقول الحقيقة. عند الاستماع إليهم وهم يسردون كل تلك الأرقام بكل ثقة، ولا يربكهم أي شيء، كنا نتكهن بأنهم يعلمون بطبيعة الأسئلة مسبقا. كما يحدث في حصص «تقديم العروض»، كان الهدف هو «الإقناع». كهذا أخذوا يمرون الواحد بعد الأخر، مع توالي الأسابيع.. مساء الخير السيدة «جورجينا دوفوا».. مساء الخير السيد «باسكوا».. مساء الخير السيد «بريس لالوند». لم نكن نحتفظ بأي شيء من تلك اللقاءات، اللهم إلا «جملة صغيرة» لم نكن لنلاحظها لو لم يروج لها الصحافيون اليقظون.

صارت الوقائع، والحقيقة المادية واللامادية تصلنا على شكل أرقام ونسب مائوية.. البطالة، مبيعات السيارات والكتب، احتمالات الإصابة بالسرطان والموت، الآراء «المؤيدة» و«المعارضة».. خمسة وخمسون في المائة من الفرنسيين يعتقدون أن عدد العرب أكثر من اللازم.. ثلاثون في المائة يملكون جهاز الفيديو.. مليونان من العاطلين عن العمل. لم تكن الأرقام تقول شيئًا آخر غير الموت والحتمية.

لا نستطيع تحديد متى صارت «الأزمة» ـ هذا العنصر المبهم والملتبس ـ بالنسبة للجميع أصلَ العالم ومبررَ ما يحدث فيه.. الشرَّ المطلق المؤكد. ولكنها، على كل حال، كانت كذلك حين أوضح لنا «إيف مونتان»، وهو يرتدي بدلة من ثلاث قطع، محفوفًا بدعم

«LIBERATION» ـ التي لم تعد، يقينا، جريدة «سارتر» ـ أن البلسم الخارق للأزمة هو «المقاولة»، التي ستتجسد جاذبيتها، بعدئذ، في صورة وصوت «كاثرين دونوف» التي كانت في خدمة «بنك سويز»[(١)] لمدح الانفتاح على الرساميل الخاصة، بينما تنفتح بتريُّث الأبوابُ العالية الباذخة لمخازن المال، على عكس تلك المذكورة في «محاكمة» كافكا، والتي توحي بها.

كانت المقاولة هي القانون الطبيعي، هي الحداثة، هي الذكاء. هي منقذة العالم. (لم نكن نستوعب كيف كانت بعض المعامل تسرح العمال وتغلق أبوابها). لا شيء يُرجى من «الإيديولوجيات» و«لغتها الخشبية». أخذت تعابير «الصراع الطبقي»، «الالتزام»، التعارض بين «رأس المال والعمل» تثير ابتسامة الشفقة. صارت بعض الكلمات بلا معنى من فرط قلة الاستعمال، بينما دخلت أخرى وفرضت نفسها بقوة لتقييم الأفراد والسلوك: «الأداء»، «التحدي»، «الربح». ارتقت لفظة «النجاح» إلى مرتبة «القيمة السامية»، أخذت تحدد «فرنسا الرابحة»، من «بول-لو سوليتزر» إلى «فيليب دوفيليي»، وتمجد كائنا «انطلق من لا شيء»: «برنارد طابي». إنه زمن الثرثارين المحتالين.

لم نصدقهم. أمام رصيف محطة «قطار الضاحية» في «نانتير»، قرب الجامعة، كانت الحروف الكبيرة «ANPE»[(٢)]، المثبتة على بناية إسمنتية رمادية، تجمد الدم في عروقنا. وصار العديد من الرجال، ومن النساء الآن، يتسولون حتى أننا قد نظن أنها حرفة جديدة. ومع «البطاقة الزرقاء» صار المال خفيا.

---

(١) الإشارة هنا إلى إعلان شاركت فيه الممثلة الفرنسية الشهيرة «كاثرين دونوف» في ١٩٨٧ للترويج لخصخصة «بنك سويز» الفرنسي.

(٢) «الوكالة الوطنية للتشغيل» (AGENCE NATIONALE POUR L'EMPLOI).

وفي ظل غياب الأمل، لم يكن هناك مفر من «إطلاق العنان لصرخات القلب» من خلال حمل البادجات.. المسيرات.. تنظيم الحفلات.. وإصدار الأسطوانات ضد الجوع.. ضد العنصرية.. ضد الفقر.. من أجل السلام في العالم.. دعم نقابة «صولدانوشك» البولندية.. «مطاعم القلب».. إطلاق سراح «مانديلا» و«جون بول كوفمان»[١].

كانت أحياء الضواحي تحتل الخيال على شكل كتل خرسانية، وأراض خلاء موحلة عند نهاية سير خطوط الباصات وقطارات الضواحي في الشمال، وسلالم عمارات عفنة تنبعث منها رائحة البول، ونوافذ مهشمة ومصاعد معطلة، وحقن مرمية في الأقبية. أما «شباب الضواحي» فَيشكلون فئة مختلفة عن الشباب الآخرين ـ فهم غير متحضرين، مخيفون بشكل مبهم، وليسوا فرنسيون سوى بنسبة قليلة جدًا رغم ولادتهم هنا ـ ينبري أساتذةٌ رائعون ورجالُ شرطة ومطافئ لـ«مواجهتهم» ببسالة في منطقتهم. وكان «حوار الثقافات» يختزل في تبني «لغتهم» وتقليد لكنتهم، وقلب مواقع الحروف والمقاطع اللفظية مثلهم، قول «MEUF» و«TARPE». أطلق عليهم اسم جماعي يعني في الآن نفسه أصولهم ولون بشرتهم وطريقة كلامهم: BEURS[٢]. من باب السخرية ننسب إليهم عبارة «أتحدث فرنسا». كان عددهم كبيرًا. لم نكن نعرف عنهم أي شيء.

---

(١) «جون بول كوفمان» (JEAN PAUL KAUFMANN) صحافي فرنسي كانت مختطفا في لبنان من ١٩٨٥ إلى ١٩٨٨.

(٢) «BEURS»: الـ«بُوز».. لفظة فرنسية عامية جاءت من قلب المقاطع الصوتية لكلمة «ARABE» (عرب).

.. وعاد كائن من اليمين المتطرف للظهور من جديد.. «جون ماري لوبين»، الذي نتذكر أننا شاهدناه في الماضي بعصابة على العين مثل «موشي ديان».

في محيط المدن، أنشئت مخازن ضخمة تفتح حتى يوم الأحد وتعرض آلاف الأحذية، والآليات وقطع الأثاث. أخذت الأسواق الكبيرة تتوسع أكثر، وتم تعويض عربات التسوق القديمة بأخرى أكبر بالكاد نلمس باطنها عند الانحناء. وصرنا نغير التلفزيون للحصول على آخر مجهز بمَنْفَذ «سكارت»، وجهاز الفيديو. كان ظهور الجديد يجعل الناس هادئين، وكان اليقين في استمرار التقدم يبعد الرغبة في تخيله. يستقبلون كل هذه الأشياء بدون انبهار أو رهبة، فقط كمزيد من الحرية الفردية ومن الترفيه. مع ظهور القرص المدمج لم تعد هناك حاجة للنهوض كل ربع ساعة لقلبه، وأتاحت «الريموت كنترول» إمكانية البقاء على الكنبة طيلة المساء. وحققت أشرطة الفيديو الحلم العزيز بالتوفر على السينما في البيت. على شاشة الـ«مينيتل»، صرنا نتصفح دليل الهاتف ومواعيد القطارات، ونطلع على الأبراج، وعلى المواقع الإيروتيكية. صار متاحًا القيامُ بكل شيء في البيت دون الحاجة إلى طلب أي شيء من أي كان.. مشاهدةُ الأعضاء التناسلية والمني في لقطات مقربة بالبيت وبلا أدنى حرج. توارت الدهشة. ونسينا أنه لم نكن لنصدق أننا سنعيش هذا في يوم من الأيام. ها نحن نعيشه. ماذا بعد؟ لا شيء. فقط ذلك الارتياح الناجم عن التمتع، دون أي عقاب، بملذات كانت، إلى ماض قريب، محظورة.

بفضل الـ«ووكمان»، نفذت الموسيقى لأول مرة إلى الجسد، وبات بالإمكان العيش في ثناياها، ونحن معزولون كليا عن العالم.

كان الشباب متعقلين، ويفكرون عموما مثلنا. لا يثيرون الصخب في الثانوية، ولا يحتجون على المناهج الدراسية، ولا على القوانين أو السلطة، ويقبلون بضجر الدروس. بالخارج يقبلون على الحياة. يلعبون على «البلايستيشن»، وجهاز «ATARI»، يتحمسون للحواسيب الصغيرة، يطلبون الحصول على أول نموذج منها، «ORIC 1». كانوا يشاهدون برامج «LES ENFANTS DU ROCK»، و«LES NULS»، و«BONSOIR LES CLIPS».. يقرؤون روايات «ستيفان كينغ» و، لإرضائنا، مجلة المراهقين «PHOSPHORE».. يستمعون لـ«الفانك» والـ«هارد روك» والـ«روكابيلي».. يعيشون في ثنايا الموسيقي وهم يتأرجحون بين الأسطوانات والـ«ووكمان».. يستمتعون في الحفلات.. يدخنون الحشيش بلا شك.. يراجعون دروسهم.. قليلاً ما يتحدثون عن مستقبلهم. كانوا يفتحون الثلاجة والدواليب وقتما شاؤوا لتناول «دانيت».. الـ«بولينوس».. «نوتيلا». ينامون مع صديقاتهم عندنا في البيت. لم يكن لديهم الوقت الكافي للقيام بكل شيء.. الرياضة.. الرسم.. الذهاب إلى النادي السينمائي.. الرحلات المدرسية. لم يكونوا يلوموننا على أي شيء. أطلق عليهم الصحافيون «جيل البوف»[١].

كان الأولاد والبنات، الذين دأبوا على الاختلاط منذ الحضانة، يكبرون معًا بهدوء، محفوفين بنوع من البراءة والمساواة في نظرنا.

---

(١) الـ«BOF GENERATION» (جيل اللامبالاة)

صاروا يتكلمون جميعا نفس اللغة الفظة والبذيئة.. يتبادلون الكلام النابي. كنا نجدهم «طبيعيين».. «منسجمين مع ذواتهم» في علاقتهم بكل ما كان يعذبنا لما كنا في عمرهم.. الجنس.. الأساتذة.. الوالدان. نسألهم بحذر خوفًا من اتهامنا بأننا «ثقال على القلب» و«نثير أعصابهم». نتركهم في حضن حرية كنا نتمنى التمتع بها، مع مواصلة مراقبة سلوكهم وفترات صمتهم خلسةً.. تلك المراقبة الخاصة بالذُّرِّيَّة، والتي تورثها الأم لابنتها. كنا ننظر إلى استقلالهم بتعجب مشوب بالرضا: كأنه مكسب في تاريخ الأجيال.

كانوا يتكرمون علينا بالدروس حول التسامح، مناهضة العنصرية، الدعوة إلى السلام، البيئة. لا يهتمون بالسياسة ولكنهم يتبنون جميعا مواقف نبيلة.. شعارهم.. «لا تقرب من صديقي».. يشترون الأسطوانة الخاصة بالأغاني المناهضة للجوع في إثيوبيا.. يتابعون مسيرة «أبناء المهاجرين». يحرصون كثيرًا على «الحق في الاختلاف». كانت لديهم نظرة أخلاقية إلى العالم. كانوا مبعث رضانا.

في مآدب الأعياد، صار من النادر الحديث عن الماضي. فلا طائل من وراء نبش تلك الأحداث الكبرى التي واكبت دخولنا إلى العالم أمام الضيوف الشباب. وكنا نكره، مثلهم تمامًا، الحروب ونشر الكراهية بين الشعوب. كذلك لم نكن نأتي على ذكر الجزائر ولا الشيلي ولا الفيتنام، ولا «ماي/أيار ٦٨»، ولا النضال من أجل حرية الإجهاض. لم نكن معاصرين لأي شيء آخر غير أطفالنا.

أخذ الزمن السابق ينسحب من الموائد العائلية.. ينحسر عن أجساد وأصوات الشهود. انتقل إلى شاشة التلفزيون، على شكل وثائق من الأرشيف يعلق عليها صوت من اللامكان. أصبح «واجب الذاكرة» التزاما

مدنيًا، مؤشرًا على الضمير القويم، حسًا وطنيًا جديدا. فبعد أربعين سنة من التوافق على التعامل بلا مبالاة مع إبادة اليهود ـ لا يمكن ادعاء أن فيلم «الليل والضباب»[1] قد جذب الحشود، ولا كتب «بريمو ليفي» و«روبير أونتيلم» ـ بدأنا نعتقد أننا نشعر بالعار، ولكنه عار متأخر. فقط بعد مشاهدة «المحرقة»[2] وقف الضمير برعب على المدى الذي يمكن أن تبلغه وحشية المرء.

ألمت بالناس حمى البحث عن شجرة أنسابهم. كانوا يفدون على مقرات العمادات في مناطق ولادتهم.. يجمعون عقود الولادة والوفاة، وهم مندهشون ومستاؤون أمام الأرشيفات الخرساء، حيث لا تظهر سوى الأسماء والتواريخ والمهن: «جاك-نابوليون تويليي» المولود في ٣ تموز ١٨٠٧، عامل مياوم.. «فلوراستين-بيلاجي شوفاليي»، عاملة نسيج. نتعلق بأشياء وصور العائلة، ونستغرب، ونحن نفتقدها اليوم، كيف كنا نضيعها دون أي شعور بالحزن في السبعينيات. كنا في حاجة إلى «استعادة الجذور». كان مطلب العثور على «الجذور» يتصاعد من كل مكان.

صارت الهويةُ، التي لم تكن سوى بطَاقة بصورة في حافظة الأوراق، همًّا طاغيا. لا أحد يعرف ماذا تعني بالضبط. ولكنها كانت، في كل

---

(١) «الليل والضباب» (NUIT ET BROUILLARD) فيلم وثائقي فرنسي أنجز في ١٩٥٦ ويدور حول معسكرات إبادة اليهود في ألمانيا النازية وعنوانه مستوحى من اسم عملية أطلقها الأمن النازي الألماني ضد المعارضين في ١٩٤١.

(٢) «المحرقة» (SHOAH) فيلم وثائقي ظهر عام ١٩٨٥ يتناول موضوع إبادة اليهود خلال الحرب العالمية الثانية، وهو شريط طويل مدته ٦ ساعات من إخراج «كلود لانزمان».

الحالات، شيئًا ينبغي امتلاكه.. استعادته.. السيطرة عليه.. تأكيده.. التعبير عنه. إنها متاع ثمين وسامِ.

هناك في العالم، صارت النساء يغطين أجسادهن من قمة الرأس إلى أخمص القدمين.

كان الجسد ـ الذي يحافظ الركضُ والرياضةُ والأيروبيك على «قوامه»، ويضمن ماءُ «إيفيان» والزبادي صفاءَه الداخلي ـ يواصل الارتقاء. فهو الذي يفكر فينا.. ينبغي للحياة الجنسية أن تكون متفتحة. كنا نقرأ «دليل المداعبات» للدكتور «لولو» لتحسين وتطوير مستوانا. عادت النساء إلى ارتداء الجوارب الطويلة والمشدات، مصرحات بأنهن يفعلن ذلك «من أجل أنفسهن» أولا. كان مطلب «الاستمتاع» يَهُبُّ من كل جانب.

كان الأزواج الذين في الأربعين يشاهدون الأفلام الإباحية على قناة «CANAL +». أمام الأعضاء التناسلية الذكورية التي لا تتعب والفروج الحليقة المصورة عن قرب، تداهمهم رغبةٌ تقنية.. شرارةٌ لا علاقة لها بتلك النار التي كانت تدفع بعضهم نحو بعض قبل عشر أو عشرين سنة، حين كانوا لا يجدون حتى الوقت لنزع أحذيتهم. وفي لحظة بلوغ النشوة يقولون «ها هو قادم» كما يفعل الممثلون. كانوا ينامون بعدها بارتياح لكونهم «طبيعيون».

أخذت الآمال والانتظارات تتحول من الأشياء نحو الجسد وضرورة الحفاظ عليه.. نحو شباب سرمدي. صارت الصحة حقا، والمرض ظلما يجب رفعه بأسرع ما يمكن.

لم يعد الأطفال يشتكون من الديدان، ونادرا ما يموتون. وصار من

الشائع ولادة أطفال الأنابيب، وتعويض القلوب والكُلى المتعبة للأحياء بمثيلاتها لدى الأموات.

كان ينبغي أن يختفي البراز والموت عن الأنظار.

كان الناس يفضلون تجنب الحديث عن الأمراض الوافدة حديثًا والتي لا علاج لها.. ذلك المرض ذو الاسم الجرماني.. ألزهايمر الذي يرمي بالمسنين في دوامة التيه ويتسبب لهم في نسيان الأسماء والوجوه.. المرض الآخر، الذي ينتقل عن طريق الجنس من الدبر، أو عن طريق الحقن، وهو عقاب للمثليين والمدمنين، أو قد يكون سوء حظ فقط لبعض الخاضعين لعملية نقل الدم.

انسحب الدين الكاثوليكي من إطار الحياة اليومية بلا ضوضاء. لم تعد الأسر تورث معارفها عنه ولا ممارستها له. وباستثناء بعض الطقوس المعدودة، لم يعد الناس في حاجة إليه كعلامة على التقدير. كأنه اسْتُعْمِلَ أكثر من اللازم.. أُنْهِكَ بسبب ملايير الصلوات، والقُدَّاسَات والمواكب، طيلة ألفي عام. أصبحت الخطيئة العرضية والخطيئة المميتة، ووصايا الرب والكنسية، وكل الفضائل اللاهوتية تنتمي إلى معجم غامض، وإلى نمط فكري عفا عليه الدهر. فقد تجاوزت الحريةُ الجنسية، الفجورَ والحكايات الخليعة حول الراهبات وأغنية «راهب بلدة كماري». لم تعد الكنسية ترهب خيال المراهقين البالغين، أو تقنن العلاقات الجنسية، وأفلتت بطون النساء من قبضتها. وبفقدانها لحقل نشاطها الرئيسي، أي الجنس، خسرت كل شيء. وخارج درس الفلسفة لم تكن فكرة «الرب» مقبولة ولا جديرة بالنقاش. على إحدى الطاولات بالإعدادية، كتب أحد التلاميذ: «الرب موجود.. فقد دُسْتُ عليه».

لم تغير شهرة البابا البولندي الجديد من الأمر شيئًا. كان البطلَ السياسيَ للحرية الغربية.. نوعا من «ليش فاليسا» ولكن على الصعيد العالمي. كانت لكنته «الشرق ـ أوروبية»، ورداؤه الأبيضُ الناصع، وعبارته «لا تخافوا»، وطريقتُه في تقبيل الأرض عن النزول من الطائرة، تشكل جزء من العرض، تمامًا مثل رمي الألبسة الداخلية في حفلات «مادونا».

(إذا كان آباء التلاميذ بالمدارس الخاصة قد احتشدوا للتظاهر يوم أحد حار من شهر آذار/ مارس، فالجميع كانوا يعلمون أنه لم تكن للرب أي علاقة بالمظاهرة. لم يكن الأمر يتعلق بالإيمان الديني بل بالإيمان الدنيوي.. باليقين أنهم يوفرون لأبنائهم أفضل سبيل للنجاح)[1].

---

(١) الإشارة هنا إلى المسيرة الضخمة التي جمعت المدافعين عن التعليم الخاص في ٤ مارس ١٩٨٤ ببلدة «فيرساي» غرب باريس، وذلك ردا على مخطط لوزير التعليم آنذاك «آلان سفاري».

إنه شريط فيديو مدته ثلاثون دقيقة تم تصويره داخل قسم الأولى ثانوي بإحدى ثانويات بلدة «فِيتْرِي-سُورْ-سِينْ» في شباط/ فبراير ١٩٨٥. هي المرأةُ الجالسةُ خلف طاولة من ذلك الطراز السائد في كل المؤسسات التعليمية منذ الستينيات. أمامها، التلاميذ جالسون على الكراسي بشكل غير منظم، الأغلبية من الفتيات، العديد منهن إفريقيات أو من منطقة «الآنتي»، أو مغاربيات، بعضهن يضعن المكياج، يرتدين كنزات مفتوحة الصدر، ويضعن أقراطًا غجرية. كانت تتحدث عن الكتابة والحياة، وعن وضع المرأة بصوت، مرتفع قليلاً، مع بعض التردد، بعض الانقطاعات، خاصة لما يطرح عليها سؤال ما. تبدو غارقةً وسط شعورها بضرورة أخذ كل شيء بعين الاعتبار، كأنها تتعرض لمداهمةِ «شُموليةٍ» لا يلمحها أحد غيرها، ثم تتفوه بجملة ما لا أصالة فيها. كانت تحرك يديها الكبيرتين، تمررهما غالبا في كتلة شعرها الأصهب، ولكن لا شيء من ذلك التوتر وتلك الحركات الفوضوية التي كانت لها في الشريط المنزلي المصور قبل ثلاثة عشر عامًا. مقارنة بصورة رحلة إسبانيا، تبدو الوجنتان أقل نتوءا، ودورةُ الوجه والفكان أكثر بروزا. تضحك، ضحكة خفيفة ـ علامة على الخجل أو بقايا منفلتة من مُرَاهَقَةٍ شعبيةٍ ساخرةٍ.. بقايا سلوك تلميذة تقر بتفاهتها ـ لا تتناسب البتة مع هدوء

وصرامة وجهها عادة. كان مكياجها خفيفا، بلا بودرة (بشرتها تلمع). تضع وشاحًا أحمر دسَّت طرفَه في فتحة القميص الأخضر الواسع. لا يظهر أسفل الجسد بسبب الطاولة. لا ترتدي أي مجوهرات.

من بين الأسئلة: لما كنتِ في سننا، كيف كنتِ تتصورين حياتكِ؟ ماذا كانت تطلعاتكِ؟

الجواب (بنبرة بطيئة): يجب التفكير.. للعودة إلى سن السادسة عشر.. لكي نكون على يقين.. يجب على الأقل ساعة من الزمن. (يصير الصوت، فجأة، حادا متوترا) أنتم، تعيشون في ١٩٨٥.. النساء لهن الخيار في أن يكون لهن أطفال.. متى شئن.. خارج الزواج. قبل عشرين سنة، كان هذا الأمر مستحيلا!

بلا شك أنها أحست، في خضم هذه «الوضعية التواصلية» بالإحباط وهي تقف على عجزها عن نقل تجربة شاسعة لامرأة ـ تمتد من السادسة عشر إلى الأربعين ـ بطريقة أخرى غير الكلمات المتداولة والصور النمطية (يجب عليها الغوصُ من جديد وطويلاً في صورها وهي في الأولى ثانوي.. استعادةُ عدد من الأغاني والدفاتر.. إعادةُ قراءة يومياتها).

في هذه الفترة من حياتها، كانت مطلقة، تعيش لوحدها مع ابنيها، ولَدَيْها عشيق. باعت البيتَ الذي تم اقتناؤه قبل تسع سنوات والأثاثَ، بلا مبالاة أثارت دهشتها. تتمتع بالحرية في خضم الحرمان المادي. فكأن حقبة الزواج لم تكن سوى فاصل، إذ داهمها الانطباع بأنها عادت إلى مراهقتِها حيث تركتها، مستعيدة نفس اللهفة.. نفس الجري إلى المواعيد الغرامية بالكعب العالي.. نفس الإحساس بالأغاني العاطفية.. نفس الرغبات ولكن بدون ذلك الإحساس بالعار لإشباعها بشكل كامل.. قادرة على أن تقول لنفسها: أرغب في ممارسة الجنس. صارت «الثورة

الجنسية» وارتدادات قيم ما قبل ٦٨، تتحقق الآن في الرضا الملحاح لجسدها، وهي واعية كل الوعي بالنضارة الهشة لسِنِّها. فهي خائفة من الشيخوخة.. من افتقاد رائحة الدم. مؤخرا، شُدِهَت أمام رسالة إدارية تخبرها أنها عينت في منصبها إلى غاية سنة ٢٠٠٠. إلى حدود تلك اللحظة، لم يكن لهذا التاريخ أي وجود ملموس.

لم يكن لابنيها ذلك الحضور الدائم في تفكيرها، تمامًا مثلما لم يكن لوالديها وهي طفلة أو مراهقة. فهما جزء منها. وبما أنها لم تعد زوجة، فإنها لم تعد تلك الأمَ ذاتَها، بل صارت خليطًا من الأخت والصديقة والمدربة والمشرفة على تنظيم حياة يومية تخففت منذ الانفصال: كل واحد يتناول طعامه متى شاء، في صينية يعضها على الركبتين أمام التلفزيون. كثيرًا ما تنظر إليهما باندهاش.. هكذا إذن، فكل ذلك الترقب لكي يكبروا.. عصائد الحبوب المخلوطة بالعسل.. اليوم الأول في المدرسة، ثم اليوم الأول في الإعدادية.. كل هذا أفضى إلى هذين الشابين اللذين لا تعرف عنهما الكثير. من دونهما، يستحيل عليها التموقع في الزمن. لما تشاهد أطفالاً يلعبون في ساحة ما، يغمرها الاندهاش لأنها تتذكر طفولة ابنيها وتحسها بعيدة جدًا.

اللحظات المهمة في حياتها الحالية تتمثل في لقاءاتها مع عشيقها بعد الظهر في غرفة فندق يقع في زقاق «دانييل-كازانوفا»، وعيادةِ والدتها في المستشفى حيث تُمضي إقامة طويلة الأمد. واللحظتان مترابطتان بشكل يخيل إليها أنهما مخصصتان لكائن واحد وليس اثنين. كأن لمسَها لبشرة وشَعْرِ أمِّها التائهة في مرضها، وتصرفاتِها الإيروتيكية مع عشيقها، لهما نفس الطبيعة. تغالب النوم بعد ممارسة الجنس، وهي منحشرة في حضنه الضخم، مع أصوات السيارات في خلفية المشهد، وتطفو في ذاكرتها

تلك المرات السابقة التي داهمها فيها النوم وسط النهار: يوم الأحد بـ«إيفيتو» حين كانت طفلة، وهي تقرأ متكئة على ظهر أمها.. لما كانت مساعدة لعائلة بإنجلترا، وهي متدثرة بغطاء قرب السخان الكهربائي.. في فندق «ميزوناف» في مدينة «بامبلونا». في كل مرة، كان عليها الخروج من هذا السبات العذب.. النهوض.. القيام بواجبتها.. النزول إلى الشارع.. العمل.. الحرص على وجودها الاجتماعي. في تلك اللحظات، تتصور حياتها على شكل محورين متقاطعين. الأول أفقي يضم كل ما حدث لها، كل ما رأت وسمعت في كل حين.. الثاني، وهو عمودي، فيشتمل فقط على بضعة صور، ويغوص عميقا في الظلام.

ولأنها اكتشفت، في عزلتها المستعادة هذه، أفكارا وأحاسيس طمرتها الحياة الزوجية، خطرت لها فكرةُ كتابة «شيء شبيه بمصير امرأة»، ما بين ١٩٤٠ و١٩٨٥.. شيء يشبه «حياة» لـ«موباسان»، لكي ترصد أثرَ مرور الزمن فيها وخارجها.. انسيابَ الزمن في التاريخ.. «رواية شاملة» ستنتهي بالتخلي عن الكائنات والأشياء.. الأبوان، الزوج، الأبناء الذين سيغادرون البيت، الأثاث الذي سيباع. خافت أن تتيه في خضم فيض أشياء الواقع الذي تسعى للقبض عليه. كيف يمكنها تنظيم هذه الذاكرة التي تتراكم فيها الأحداث والحوادث، وآلاف الأيام التي أفضت بها إلى اليوم؟

من هذه المسافة الزمنية، لم يتبق من ٨ أيار/ ماي ١٩٨١[١] سوى صورة سيدة ناضجة أخذت كلبها في نزهة بالشارع المهجور، بينما سيتم بعد دقيقتين بالضبط الإعلان، في كل القنوات التلفزيونية والإذاعات،

---

(١) التاريخ الصحيح للانتخابات التي تتحدث عنها الكاتبة هو ١٠ أيار/ ماي ١٩٨١.

عن اسم الرئيس المقبل للجمهورية.. سوى صورة «روكار»[1] وهو يطفو على شاشة التلفزيون.. «هيا، جميعا إلى الباستيل!».

ومن الماضي القريب جدًا لم يتبق سوى:

ـ وفاة «ميشيل فوكو» بسبب «تعفن الدم» حسب صحيفة «LE MONDE»، في نهاية حزيران/ يونيو، قبل أو بعد المظاهرة الضخمة لأنصار المدارس الخاصة، التي ضمت عددا لا يحصى من التنانير المجعدة والمشدات البيضاء.. قبلها بعامين، وفاة «رومي شنايدر»، ذات الجمال الباهر في شريط «أشياء الحياة»، والتي شاهدتْها لأول مرة، بشكل متقطع، في فيلم «شباب ملكة»، لأن الشاشة كانت تختفي خلف رأس الفتى الذي كان يُقَبِّلُها في الصف الأخير للسينما، المخصص عادة لهذا الأمر

ـ سائقو الشاحنات وهم يقطعون الطرق، عشية عطلة شباط/فبراير

ـ عمال الصلب ـ الذين تَخْلِطُ بينهم وبين عمال مصنع «ليب» للساعات ـ وهم يحرقون الإطارات على السكة، بينما تقرأ «الكلمات والأشياء»[2] في مقصورة القطار الفائق السرعة المتوقف

كنا نستشعر أن اليمين سيعود حتما في الانتخابات.. أن قدر استطلاعات الرأي لا راد له، وأن الوضع غير المعروف، الذي أطلق

---

(١) «ميشيل روكار» (MICHEL ROCARD) سياسي فرنسي من القادة الكبار للحزب الاشتراكي الفرنسي وسبق له أن كان وزيرا أول في الولاية الثانية للرئيس الأسبق «فرانسوا ميتران».

(٢) «الكلمات والأشياء» (LES MOTS ET LES CHOSES) كتاب للمفكر «ميشيل فوكو» أصدره في ١٩٦٦.

عليه اسم «التعايش»[١]، قادم لا محالة، مثل رغبة كامنة، تتسلى وسائل الإعلام بتأجيجها.

إقرار «الأعمال النافعة للجماعة» بالنسبة إلى الشباب.. «فابيوس» الأنيق يتعرض لتوبيخ قاس من طرف «جاك شيراك».. استقبال «ياروزيلسكي»، بنظاراته المافيوزية السوداء، في «الإيليزي».. تخريب سفينة «RAINBOW WARRIOR».. في كل المناسبات، كانت الحكومة تتصرف بشكل أخرق. فحتى اختطاف الرهائن في لبنان، في خضم نزاع لا نفهم فيه شيئًا، جاء في الوقت غير المناسب بالمرة. كانت الدعوةُ كل مساء إلى عدم نسيان أن «جون-بول كوفمان» و«مارسيل كارتون» و«مارسيل فونتين» مازالوا رهائن، تثير الحنق.. ماذا عسانا نفعل؟. حسب انتمائهم، كان الناس يظهرون غضبهم الشديد أو يكتفون بالاستياء. حتى الشتاءات، التي كانت أكثر قسوة مع سقوط الثلوج بباريس وتسجيل خمس وعشرين درجة تحت الصفر في «نييفر»، كانت تنذر بالأسوأ. صرنا محاطين بالذين يموتون في صمت بـ«الإيدز» والذين يذبلون بسببه. كنا نتخبط في الإحباط والأسى. في كل مساء، ونحن نستمع إلى «بيير ديبروج» منهيا فقرته الإذاعية «يوميات الحقد» بـ: «فيما يخص آذار/مارس، وأقولها بدون أي خلفية سياسية خفية، فلا أتوقع أن يبقى حيا إلى ما بعد الشتاء»، كنا نفهم أن اليسار هو الذي لن يبقى إلى ما بعد الشتاء.

عاد اليمين. أخذ يفكك كل شيء بحزم.. أخذ يكرس الخصخصة.. يلغي ضرورة الحصول على ترخيص إداري لتسريح العمال.. يلغي

---

(١) في عام ١٩٨٦ فاز اليمين في الانتخابات التشريعية بفرنسا فاضطر الرئيس اليساري «فرانسوا ميتران» إلى تعيين «جاك شيراك» وزيرا أول والذي شكل حكومة يمينية. وسمي هذا الوضع في الأدبيات السياسية الفرنسية بالـ«COHABITATION» (التعايش).

الضريبة على الثروات الكبيرة. كل هذا لم يسعد عددا كافيا من الناس. عادوا من جديد إلى حب «ميتران».

ماتت «سيمون دوبوفوار»، و«جان جونيه». فعلا، لم نكن لنحب شهر «نيسان/أبريل» هذا، فحتى الثلج كان يواصل تساقطه في جهة «إِيلْ-دُو-فْرَانْسْ». ولا شهر «أيار/ماي»، حتى وإن لم تزعجنا كثيرًا تلك المحطة النووية التي انفجرت في الاتحاد السوفياتي.. كارثة لم يفلح الروس في إخفائها، والتي ينبغي ردها إلى انعدام الكفاءة لديهم، وإلى وحشيتهم ـ تمامًا كما هو الغولاغ ـ وإن كان «غورباتشيف» يبدو لنا لطيفا.. كارثة لم تصل إلينا.

عند الخروج من امتحانات الباكالوريا، بعد ظهر يوم ثقيل من حزيران/يونيو، علم التلاميذ أن «كوليش» قُتل للتو وهو يقود دراجته النارية على طريق هادئ.

كانت حروب العالم تواصل مسارها، ودرجة الاهتمام بها تسير عكس طول مدتها وبُعْدِها عنا.. وكان هذا الاهتمام رهينًا بوجود غربيين بين المتحاربين. لم يكن بوسعنا قول منذ متى انخرط الإيرانيون والعراقيون في قتل بعضهم بعض.. منذ متى يحاول الروس سحق الأفغان، فبالأحرى أن نعرف دوافعهم، متيقنين أنهم لا يدركونها هم أنفسهم. وأخذنا نوقع بلا اقتناع عرائض حول نزاعات نسينا أسباب اندلاعها. كانت تختلط علينا الفصائل المتحاربة في لبنان.. الشيعة، السنة، والمسيحيون فوق ذلك. التناحر من أجل الدين كان أمرا يتجاوزنا، وفي هذا برهان على أن هؤلاء الناس ظلوا حبيسي مرحلة أدنى.

أما نحن فقد حسمنا الأمر مع فكرة الحرب. لم نعد نصادف أطفالاً

ببزة عسكرية، ونعتبر الخدمة في الجيش مهمة ثقيلة نحاول الإفلات منها. وفقدت معاداة النزعة العسكرية مبرر وجودها، وتوحي أغنية «الهارب من الخدمة» لـ«بوريس فيان» بزمن تلاشى تمامًا. ولعلنا رأينا القبعات الزرق في كل مكان لتحقيق السلم الأبدي. صرنا متحضرين، منشغلين أكثر فأكثر بالنظافة والعناية بالجسد، ونستعمل منتوجات لإزالة الروائح الكريهة من الجسد، والبيت. كنا نضحك: «الله مات، وماركس كذلك، وأنا بدوري لست على ما يرام». كنا مرحين.

كانت تقع بعض العمليات الإرهابية المعزولة، التي يتلاشى منفذوها في العالم، مثل «كارلوس»، وتثير قليلاً من التعاطف. بلا شك، لم نكن لنتذكر العملية الأولى التي وقعت في أيلول/سبتمبر، مباشرة بعد الدخول المدرسي، لو لم تنفجر قنابل أخرى، بفارق أيام، وفي نفس الأماكن العامة، دون أن تتيح لنا الوقت الكافي للخروج من الذهول، ولا تركت للتلفزيون ما يكفي من الزمن لاستنفاذ العملية السابقة. فيما بعد، لما سنتساءل في أي لحظة خطرت لنا فكرة أن عدوا خفيا قد أعلن الحرب علينا، سنتذكر «زقاق رين»[1]، بعد ظهر ذلك الأربعاء الحار.. الاتصالات الهاتفية التي أجرينا فورا مع العائلة والأصدقاء للاطمئنان أنهم لم يكونوا هناك لما قَتَلَتِ القنبلةُ، التي أُلْقِيَتْ من سيارة «مرسيدس» أمام متاجر «تاتي»، المارة.

واصل الناس استقلال الميترو وقطارات الضواحي، ولكن الجو العام أخذ يصير ثقيلا في صمت داخل المقصورات. عندما نهم بالجلوس،

---

(١) الإشارة هنا إلى عملية التفجير التي حدثت في باريس بتاريخ ١٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٦ وخلفت ٧ قتلى.

نراقب الحقائب الرياضية «المشبوهة» الموضوعة عند أقدام الركاب، خصوصًا أولئك الذين يمكن وضعهم ضمن المجموعة المتهمة بالوقوف وراء الهجمات، أي: العرب. فجأة، وفي خضم الوعي بموت وشيك، يداهمنا شعورٌ قوي وحاد بالجسد وبالزمن الحاضر.

صرنا نتوقع مجازر أخرى، واثقين من أن الحكومة لا تملك القدرة على منع وقوعها. لم يحدث شيء. مع مرور الأيام توقفنا عن التوجس وفحص ما تحت المقاعد. توقفت سلسلة التفجيرات فجأة دون أن نعرف لماذا، كما لم نعلم أبدًا لماذا ابتدأت أصلا. وعلى كل حال، غمرنا ارتياح كبير لدرجة لم نعد معها ننشغل بهذا الأمر بتاتا.

لم تشكل هجمات ما أصبح يسمى «الأسبوع الدامي لأيلول/سبتمبر» حدثا، فهي لم تغير حياة غالبية الناس.. كانت فقط نوعا من العيش خارج البيت في خضم شعور بالقلق والخوف من شبح الموت، سرعان ما تلاشى عند ابتعاد الخطر. لم نكن نعرف أسماء الموتى والجرحى الذين يشكلون فئة مبهمة: «ضحايا هجمات أيلول/سبتمبر».. مع فئة فرعية: «ضحايا زقاق رين»، لأنهم كانوا الأكثر عددا، ولأن موتَ المرء في زقاق وهو مجرد عابر، أكثرُ فظاعة. (بالطبع، سنسمع أكثر باسمي الرئيس المدير العام لـ«رونو»، «جورج بيس»، والجنرال «أودران» اللذين بطش بهما تنظيم صغير يدعى «العمل المباشر»، كنا نرى أنه أخطأ الحقبة بالسير في أثر «الألوية الحمراء» وعصابة «بادر»).



لأن حدثًا شبيهًا وقع في الماضي، وسبق لنا أن عشناه، اعتقدنا أن نزولَ الطلبة والتلاميذ إلى الشارع بعد شهرين للتظاهر ضد «قانون

دوفاكي»[1]، حدثٌ حقيقيٌ. كنا قد فقدنا الأمل. أخذنا نتابع الأمر بإعجاب.. «أيار/ماي ٦٨» في الشتاء.. غمرتنا نفحة من الشباب. ولكنهم سرعان ما كانوا يعيدوننا إلى مكاننا. كانوا يكتبون على اللافتات: «٦٨ بال وعتيق..٨٦ أفضل وأنيق». لم نكن نغضب منهم. كانوا مهذبين. لا يرشقون بالحجارة. يتحدثون برزانة في التلفزيون. ويرددون أناشيد ممتعة علـــــى وزن نــــشــــيـــد «LE PETIT NAVIRE» و«PIROUETTE CACAHOUETE». كـان يـجـب عـلـى الـمـرء أن يـكـون «بُـووِيـلْـسْ»[2] وصحيفة «LE FIGARO» لنعتهم بالمصابين «بالإيدز العقلي». لأول مرة نرى الجيل الذي جاء بعدنا ونقف على حقيقته ككتلة هائلة ومذهلة.. الفتيات في الصفوف الأولى إلى جانب الفتيان.. العرب.. الجميع بسراويل الجنيز. جعلهم حجمهم الهائل كبارا، على اعتبار أننا قد صرنا مسنين. توفي شاب في الثانية والعشرين، يبدو على الصور مثل طفل، تحت ضربات عناصر «وحدة قمع العنف المتنقلة» بزقاق «موسيو-لو-برانس». خرج الناس بالآلاف في مسيرات خلف لافتات تحمل اسمه، «مالك أوسكين». سحبت الحكومة مشروع القانون، وعاد المتظاهرون إلى كلياتهم وثانوياتهم. كانوا براغماتيين. لم يكن هدفهم تغيير المجتمع، فقط، لا يقبلون بأن توضع العصي في عجلات مسيرتهم صوب مكانة محترمة فيه.

أما نحن، وإن كنا ندرك جيدا أن التوفر على «مهنة آمنة» وعلى المال

(١) «مشروع قانون دوفاكي» تقدم به «آلان دوفاكي» الوزير المنتدب المكلف بالتعليم العالي في حكومة «جاك شيراك» في خريف ١٩٨٦ وقد لقي معارضة شديدة من الطلبة الفرنسيين، فاضطرت الحكومة إلى سحبه.

(٢) «لويس بوويلس» (LOUIS PAUWELS) صحافي فرنسي أثار ضجة كبيرة حين نعت الطلبة المتظاهرين في خريف ١٩٨٦ بالمصابين بـ«الإيدز العقلي».

لا يضمن بالضرورة السعادة، فلم نكن نتمنى لهم شيئًا آخر غير هذا النعيم، أولا وقبل كل شيء.

واصلتِ المدنُ التمددَ والتوغلَ أكثر في البادية التي أخذت تمتلئ بقرى جديدة ووردية اللون، بلا بساتين الخضر ولا أقنان الدجاج، ويمنع فيها تسكع الكلاب بكل حرية. صارت الطرق السيارة تخترق المشهد في كل الاتجاهات، وتتشابك حول «باريس» مُشَكِّلَةً ما يشبه، من الفضاء، رقم ثمانية. صار الناس يقضون مزيدا من الساعات على متن سيارات صامتة ومريحة لها نوافذ واسعة، تحفهم الموسيقى. لقد غدت مسكنا مؤقتا، له طابع فردي وعائلي أكثر فأكثر، لا مكان فيه للغرباء (اختفى تقليد التوصيلة المجانية) يغنون فيه، ويتخاصمون، ويتبادلون الأسرار وهم مركزون على الطريق.. يستحضرون فيه الذكريات.

إنه مكان مفتوح ومغلق في الآن ذاته، حيث يقتصر وجود الآخرين، داخل السيارات التي نتجاوز، على ملامح جانبية تمرق سريعًا.. إنهم كائنات بلا أجساد تصبح حقيقتها القاسية في حوادث السير مرعبة حقا، وهي منهارة مثل الدمى فوق المقاعد.

حين نقود السيارة طويلاً لوحدنا وبالسرعة نفسها، تُفْقِدُنَا تلك الحركات الآلية التي نقوم بها منذ زمن طويل، الإحساس بأجسادنا.. كأن السيارة تتحرك من تلقاء نفسها.. تنساب الوديان والسهولُ فخمةً ومتماوجة. نصير مجرد نظرة ـ داخل مقصورة شفافة ـ ترنو إلى عمق الأفق المتحرك.. مجرد وجدان هائل يغمر هذا الفضاء وكل العالم، ونقول مع أنفسنا، أحيانًا، يكفي انفجارُ عجلة.. عائقٌ ما مثلما حدث في فيلم «أشياء الحياة»، حتى يختفي إلى الأبد.

أخذ الزمن المحموم لوسائل الإعلام يرغمنا على التفكير في الانتخابات الرئاسية، ويقلص شيئًا فشيئًا عدد الشهور، والأسابيع التي تفصلنا عنها. كان الناس يفضلون مشاهدةَ دمى «BEBETE SHOW» على قناة «TF1»، باستثناء الأكثر تعليما (الأوفياء لبرنامج «LES NULS» على «CANAL+».. البرنامج «الفج، ولكنه لا ينزلق أبدًا إلى البذاءة» حسب مقياس التقييم الجاري به العمل).. يفضلون تخيلَ العطلِ المقبلة وهم يستمعون للمغنية «ديزيرليس» وهي تغني «VOYAGE VOYAGE». فيكفي الناس همّا أنهم اليوم يخافون من ممارسة الجنس، مع رواج «الإيدز» الذي لم يعد مرضًا يصيب المثليين والمدمنين فقط كما كانوا يعتقدون. والحق أنه بين نهاية الخوف من الحمل، والهلع من الإصابة بالإيدز، وجدنا أن مهلة الإحساس بالأمان كانت قصيرة.

وعلى كل حال، ومقارنة بـ٨١، كنا محبطين، ولم تكن لدينا انتظارات ولا آمال، فقط كانت تخالجنا الرغبةُ في الاحتفاظ بـ«ميتران» بدل رؤية «شيراك». إنه «الخال»، الذي يبعث على الاطمئنان.. رجل الوسط، المحاط بوزراء ذوي ميول برجوازية، لم يعد أصحاب اليمين يخشون منهم شيئًا. أما الحزب الشيوعي فقد نال منه الإنهاك، إذ جعلته الـ«بريسترويكا» والـ«كلاسنوست»، اللذان رفعهما «غورباتشيف»، يبدو عتيقا باليا. لقد توقف عند عهد «برجينف». بات «لوبين» شخصية «لا محيد عنها»، محاطًا بانبهار الصحافيين وهلعهم. بالنسبة إلى نصف الناس، هو «من يقول جهرا ما يؤمن به الفرنسيون سرا»، أي: هناك الكثير من المهاجرين.. أكثر مما ينبغي.

أرجعَ إلينا انتخابُ «ميتران» الطمأنينةَ. فالعيش دون انتظار أي شيء من اليسار أفضل من التوتر المستمر مع اليمين. في ظل استحالة تغيير

مسار الأيام، لن تكون تلك الانتخابات الرئاسية حدثًا مؤثرًا، فقط شكلت خلفية لفصل ربيع، علمنا فيه بوفاة «بيير ديبروج»[١] بسبب السرطان، وضحكنا فيه بطريقة لم نعهدها منذ زمن طويل، مع آل «غروزيل» وآل «دي كينوا»[٢] في فيلم يبدو أنه أنجز عمدا لحشد التصويت على «ميتران». بالكاد سنحتفظ من تلك الفترة بذكرى الأحداث الموازية لتلك الانتخابات ـ تحرير الرهائن بلبنان، هذه الحكاية التي بدت بلا نهاية.. تقتيل المنتمين إلى «الكناك» في كهف «أوفيا» بـ«كاليدونيا» ـ وكذلك ذكرى المناظرة التلفزيونية التي طالب فيها «شيراك» «ميران» أن يؤكد له، والعين في العين، حقيقة يعتبرها المرشح اليميني كذبا. ساورنا القلق، ثم غمرنا الارتياح ونحن نرى أن «ميتران» لم يرف له جفن، كما هي عادته.

بالفعل، لم يحدث شيء، غير تخفيف الفقر بسن قانون «الدخل الأدنى الخاص بالاندماج»، والتعهد بإعادة طلاء أدراج بنايات أحياء المهاجرين، وإعادة تنظيم حياة ساكنة عددُها كبير إلى الحد الذي تستحق معه وصف «الإقصاء». أخذت الصَّدَقَة تتمأسس. خرج التسول من المدن الكبرى، ليبلغ أبواب الأسواق الكبيرة في الضواحي، والشواطئ في الصيف. وصار يبتكر تقنيات جديدة ـ الجثو ورفع الذراعين على شكل صليب، استجداء قطعة نقدية خلسة وبصوت خافت ـ وخطابات جديدة تفقد بريقها بطريقة أسرع من كيس البلاستيك الذي غدا شعارا للهجران. صار «المشردون» جزء من ديكور المدينة مثل اللوحات الإشهارية. أصبح

---

(١) «بير ديبروج» (PIERRE DESPROGES) فكاهي فرنسي مشهور بالسخرية السوداء.

(٢) العائلتان اللتان يدور حولهما الشريط السينمائي الفكاهي «الحياة نهر طويل هادئ» (LA VIE EST UN LONG FLEUVE TRANQUILLE) الذي ظهر في القاعات السينمائية الفرنسية في ١٩٨٨.

الناس محبطين ـ هناك الكثير من الفقراء ـ ويغضبهم الإحساس بالعجز ـ لا يمكن أن نعطي للجميع ـ ويتخففون من هذا الشعور بإسراع الخطى أمام الأجساد النائمة في ممرات محطات الميترو. على أمواج إذاعة الدولة، كانت المجموعات الصناعية تبعث برسائل بهية.. «مرحبا بكم في عالم 'رون-بولانك'، عالم التحدي». كان الناس يتساءلون: إلى مَنْ تتوجه بالضبط؟.

أخذنا ننظر إلى جهات أخرى. الحكم بالموت الذي أصدره الخميني في حق كاتب من أصول هندية، «سلمان رشدي»، فقط لاتهامه بالمس بمحمد في كتاب، طافَ الأرضَ كلَّها وأصابنا بالذهول. (أصدر البابا بدوره حكما بالموت بمنعه لاستعمال العازل الطبي، ولكن هؤلاء الأموات مجهولون ومؤجلون).

فجأة، أصبحت ثلاث فتيات، أصررن على القدوم إلى الإعدادية بالوشاح، يمثلن طلائع الأصولية الإسلامية، الظلامية والمعادية للنساء، الأمر الذي أتاح الفرصة أخيرًا للاعتقاد ـ والتلويح ـ بأن العرب ليسوا مثل المهاجرين الآخرين. اكتشف الناس أنهم طيبون أكثر من اللازم، وأراح «روكار» عددا لا يحصى من الضمائر حين صرح بأنه «لا يمكن لفرنسا استضافة كل بؤس العالم».

كان الجديد يأتي من الشرق. لم نكن نتعب من الإعجاب بالكلمتين السحريتين: «البريسترويكا» و«الكلاسنوست». وأخذ خيالنا حول الاتحاد السوفياتي يتغير، وشرعنا في نسيان الغولاغ والدبابات في شوارع «براغ».

ورحنا نعدد مؤشرات الشبه معنا ومع الغرب.. حرية الصحافة، «فرويد»، الروك والجينز، قصة الشعر والبدلات الأنيقة والمسايرة للموضة لـ«الروس الجدد». كنا نتطلع إلى.. نأمل في نوعٍ من الانصهار بين الشيوعية والديمقراطية.. بين السوق والتخطيط اللينيني.. نوعٍ من «ثورة أكتوبر» التي تأخذ المسار السليم. كنا نتحمس لرؤية الطلبةَ الصينيين بنظاراتهم المستديرة الصغيرة، وهم محتشدون بميدان «تيان أنمين»[1]. آمنا بنجاحهم، إلى أن انبثقت الدبابات ـ دائمًا هي ـ وتقدم أمامها شاب، وحيدا ضئيلا ـ هذه الصورة التي سنشاهد عشرات المرة، كأنها اللقطة الأخيرة، الرائعة، لأحد الأفلام ـ في ذلك الأحد ذاته الذي فاز فيه «مايكل تشانغ»، على ملاعب «رولان غاروص» بالمباراة النهائية، حتى أن طالب «تيان أنمين» ولاعب التنس، المزعج بتكراره لعلامة الصليب، يكادان يتداخلان في ذهننا.

مساء الـ١٤ تموز/يوليوز ٨٩، عند نهاية يوم حار ورمادي، ونحن مستلقون على الكنبة نشاهد الاستعراض الذي أعده «جون بول غود»[2]، مصحوبا بتعليق «فريديرك ميتران»، خالجنا الإحساس بأن كل ما حصل من ثورات في العالم مِنْ صُنْعِنا: من إلغاء العبودية إلى أوراش «غدانسك»، إلى ميدان «تيان أنمين». كانت أمام أنظارنا شعوبُ العالم.. النضالاتُ السابقة والحاضرة والمستقبلية.. كلها خرجت من رحم الثورة الفرنسية. وعندما رددت «جيسي نورمان» الـ«مارسييز»، وهي في فستانها

---

(١) احداث «تيان أنمين»: احتجاجات الطلبة الصينيين في ساحة «تيان أنمين» في يونيو ١٩٨٩.

(٢) «جون بول كود» (JEAN PAUL GOUDE) مخرج إعلانات فرنسي، كلفته الحكومة الفرنسية في ١٩٨٩ بإعداد الاستعراض الخاص بالذكرى المائوية الثانية للثورة الفرنسية التي تم إحياؤها في ١٤ تموز/ يوليوز ١٩٨٩.

الثلاثي الأولوان، الأزرق والأبيض والأحمر، والذي كانت تُهَفْهِفُهُ رياحٌ مصطنعة، داهمنا شعور قديم ومدرسي.. غمرنا من جديد إحساس بالمجد وبعظمة التاريخ.

كان الألمان الشرقيون يخترقون الحدود، ينظمون مواكب حول الكنائس وهم يحملون الشموع لإسقاط «هونكر». سقط جدار برلين. كانت حقبة سريعة، جرى فيها إعدام طغاة بعد محاكمة دامت ساعة واحدة فقط، وتم فيها كشف مقابر جماعية بجثث متربة. كانت الأحداث تتجاوز الخيال ـ كنا، إذن، نعتقد أن الشيوعية خالدة ـ ولم تكن عواطفنا قادرة على مواكبة ما يجري على أرض الواقع. كنا نشعر أننا تحت مستوى الأحداث، ونغبط أبناء الشرق لأنهم يعيشون هذه اللحظات. ثم شاهدناهم وهم يتسابقون إلى المتاجر في برلين الغربية، فأثاروا في أنفسنا الشفقة بملابسهم الرثة وأكياس الموز التي يحملون. تأثرنا لقلة خبرتهم في الاستهلاك. ثم أخذ هذا الجوع الجماعي للأشياء المادية، بدون أي تحفظ أو تمييز، يثير حَنَقَنَا. لم يكونوا في مستوى الحرية، الخالصة والمجردة، التي صنعنا لهم. أخذ الأسى الذي كنا نشعر به عادة اتجاه الشعوب التي ترزح تحت «نير الشيوعية»، يتحول إلى متابعة فيها الكثير من اللوم للطريقة التي يوظفون بها حريتهم. كنا نحبهم أكثر لما كانوا ينتظمون في الطابور للحصول على السُجُق والكتب، محرومين من كل شيء، حتى نتلذذ بسعادة وتفوق الانتماء إلى «العالم الحر».

أخذ الطابع الضبابي لعالم «ما وراء الستار الحديدي» يترك مكانه لأمم قائمة الذات. فقد توحدت ألمانيا، التي قال عنها «مورياك» يومًا إنه يحبها لدرجة إنه سعيد بوجود اثنتين منها. وتصاعدت شائعات تنذر بيوم قيامة سياسي. وجرى الإعلان عن قدوم «نظام عالمي جديد». أوشكت

نهاية التاريخ، وستعم الديمقراطية كل ربوع الأرض. لم يسبق للإيمان بالجديد في مسار العالم أن بلغ هذا المستوى.

في عز الحرارة، اهتز السبات الهادئ للعطلة. وذَكَّرَنا العنوانُ الهائل الذي احتل واجهات الصحف ـ «صدام حسين يغزو الكويت» ـ بِآخَرَ في نفس التاريخ قبل واحد وخمسين سنة، والذي تكرر كثيرًا: «ألمانيا تغزو بولندا». في ظرف حفنة من الأيام، دفعت حالة من الاستنفار الحربي القوى الغربية للوقوف خلف الولايات المتحدة، وشرعت فرنسا في استعراض حاملة الطائرة «كليمونسو»، والتفكير في إعادة استدعاء الجنود المسرحين كما كان الأمر إبان أزمة الجزائر. كانت الحرب العالمية الثالثة أمرا حتميا إن لم ينسحب «صدام حسين» من الكويت.

كانت هناك حاجة إلى الحرب. كأن الناس افتقدوا الأحداث الجسيمة منذ مدة طويلة، ويغبطون تلك التي لم يكن بإمكانهم سوى متابعتها كمتفرجين على شاشة التلفزيون. إنها الرغبة في استعادة المأساة القديمة. بإرادة من الرئيس الأكثر كآبة بين كل الرؤساء الأمريكان، سنحارب «هتلر الجديد». أما دعاة السلام فتمت إحالتهم على اتفاقات «ميونيخ»[(١)].

في خضم ذلك السحر الذي يغمر الأشياءَ التي تُمْعن وسائلُ الإعلام في تبسيطها، ساد بين الناس الاعتقادُ في الدقة التكنولوجية للقنابل.. آمنوا بـ«الحرب النظيفة»، بـ«الأسلحة الذكية»، وبـ«الضربات الجراحية».. بـ«حرب صقيلة» كما كتبت صحيفة «LIBERATION». وهبَّ هواءٌ مشبع بالنزعة الحربية والأخلاقية: «دحر صدام» كان «حربا عادلة» و«حربًا من أجل إحقاق الحق»، وفرصة مشروعة ـ دون الحاجة للإفصاح عن ذلك ـ

---

(١) الإشارة هنا إلى «اتفاقات ميونيخ» التي وقعت بين ألمانيا هتلر وفرنسا وبريطانيا بوساطة «موسوليني»، في أيلول/ سبتمبر ١٩٣٨، والتي أكدت، على ضرورة حل الخلافات بالطرق السلمية، وهو الأمر الذي لم يحترمه هتلر.

للتخلص من هذا العالم العربي المعقد، الذي يزعجنا أبناؤه في الضواحي وفتياتُه المحجبات من وقت لآخر، ولكنهم، من حسن الحظ، ركنوا هذه المرة إلى الهدوء.

أما نحن، الذين قطعنا العلاقة مع «ميتران» لما شاهدناه على الشاشة وهو يهدد بصوت خال من أي نبرة: «ستتكلم الأسلحة!».. الذين لم نكن نتحمل البروباغندا الحماسية الداعمة لـ«عاصفة الصحراء»[1]، فلم يكن لدينا من وسيلة لرفع المعنويات سوى برنامج الدمى «LES GUIGNOLS DE L'INFO» كل مساء وبرنامج «LA GROSSE BERTHA» كل أسبوع. كانت الشوارع مهجورة وقاعاتُ السينما والمسارح فارغة في هذا الكانون الثاني/يناير الغائم والبارد.

توعد صدام بـ«أم المعارك» المُبْهَمة. لم تحدث. أخذ الغموض يلف أهداف الحرب. خلفت القنابل آلاف القتلى في بغداد.. لا يراهم أحد. توقفت المواجهات بشكل مخجل يوم أحد من شباط/فبراير، بدحر الجنود العراقيين الذين هاموا في الصحراء. انتهى كل هذا الصخب دون أن ينتهي. ظل «الشيطان» صدام حسين في مكانه، وفُرِض الحصار على العراق. داهمنا شعورٌ بالعار لأننا خُدِعنا.. إحساسٌ بالإهانة لأننا منحنا فكرنا ومشاعرنا طيلة أيام لشيء خيالي نسجته بروباغندا «سي إن إن». لم نعد نطيق سماع أي حديث عن «النظام العالمي الجديد».

أيقظ الاتحاد السوفياتي، الذي لم يعد يبالي به أحد، الصيفَ

---

(١) «عاصفة الصحراء» (DESERT STORM) هو الاسم الذي أطلقه الأمريكان على العملية العسكرية الرامية لإخراج قوات صدام حسين من الكويت في بداية ١٩٩١.

بانقلاب فاشل من تدبير بعض قدماء الستالينية العنيدين. تمت شيطنة «غورباتشيف»، وأخذت نذر الفوضى تلوح قبل إن يتم تبديدها في بضع ساعات بفضل «فُتُوَّة» ذي عينين ضيقتين انبثق بأعجوبة وهو على متن دبابة، واسْتُقْبِلَ بحفاوة جديرة ببطل التحرير. تم إنجاز المهمة بسلاسة وفعالية، وشرع الاتحاد السوفياتي في التلاشي، وتحول إلى الفيدرالية الروسية، رئيسها هو «بوريس يلتسين». واستعادت «لينينغراد» من جديد اسمها السابق: «سان بطرسبورغ». هذا أفضل لتفادي التيه في ثنايا كتابات «دوستويوفسكي».

صارت النساء، أكثر من أي وقت مضى، تحت المراقبة، وتشكل تصرفاتُهن وأذواقُهن ورغباتُهن موضوع خطاب دؤوب.. موضوع اهتمام قلق وظافر. يشاع أنهن حصلن على «كل شيء»، ويوجدن «في كل مكان»، ويحققن «نتائج أفضل من الذكور في المدرسة». كما العادة، كان يتم تلمس علامات تحررهن في أجسادهن، في جرأتهن في الملبس والجنس. كونهن يقلن «نغازل الرجال»، ويكشفن عن رغباتهن الجنسية، ويتساءلن في مجلة «ELLE» إن كن يُعتبرن «فرصة جنسية جيدة»، فذلك برهان على حريتهن وعلى مساواتهن للرجال. ويجب النظر إلى العرض الدائم لأثدائهن وأفخاذهن في الإعلانات كإشادة بالجمال. وباتت النسوية إيديولوجيا عتيقة ذات ميول انتقامية ويعوزها حس الدعابة.. لم تعد النساء الشابات في حاجة إليها.. وينظرن إليها بتعال، وهن واثقات من قوتهن ومن مساواتهن للرجل (بيد أنهن مازلن يقرأن روايات أكثر من الرجال، كأنهن في حاجة ماسة إلى منح شكل خيالي لحياتهن). «شكرا لكم أيها

الرجال على حبكم للنساء» عنونت مجلة خاصة بالمرأة. أخذ النسيان يلف نضالاتهن.. الذاكرة الوحيدة التي لم يتم إحياؤها بشكل رسمي.

مع ظهور حبوب منع العمل، غدت النساء سيدات الحياة. لكن هذا الأمر لا يشاع.

أما نحن، من قمنا بالإجهاض في المطابخ.. نحن المطلقات.. نحن اللواتي اعتقدن أن الجهود التي بذلنا للتحرر ستفيد الأخريات، فقد نال منا تعب هائل. لم نعد ندري إن كانت ثورة النساء قد حدثت بالفعل. واصلنا رؤية الدم بعد الخمسين، لم يعد له نفس اللون ولا نفس الرائحة.. نوع من الدم الزائف. ومع ذلك، فهذا التقطيعُ المنتظمُ للزمن، الذي قد نحتفظ به إلى غاية الموت، يغمرنا بالاطمئنان. كنا نرتدي الجينز والتَّبَابِين، و«التيشورتات» مثل بنات الخامسة عشرة، ونقول مثلهن «صاحبي» عند الحديث عن عشيقنا. ومع تقدمنا في السن صرنا نفقد الإحساس بالعمر. عند سماعنا أغنية «ONLY YOU» أو «CAPRI C'EST FINI» على إذاعة «NOSTAGIE»، تغمرنا عذوبة فَتِيَّة، ويتسع الحاضر ليشمل سنواتنا العشرين. مِقارنة مع أمهاتنا، اللواتي يتصببن عرقا وهن منغلقات في سن اليأس، كان ينتابنا الشعور بأننا نسيطر على الزمن.

(كانت النساء الشابات يحلمن بالارتباط برجل، واللواتي توغلن في الخمسين ولديهن واحد، فلم تعد لهن رغبة فيه).

أما الأبناء، وبالخصوص الذكور، فكانوا يجدون صعوبة في مغادرة بيت الأسرة.. الثلاجة المليئة.. الغسيل النظيف.. وصدى أشياء الطفولة. فصاروا يمارسون الجنس بكل براءة في الحجرة المجاورة لغرفتنا..

«يستقرون» في شباب طويل الأمد، فالعالم لا ينتظرهم. وكان يخالجنا، ونحن نطعمهم ونواصل الانشغال بأمورهم، الشعور بأننا مازلنا نعيش امتدادا للزمن الماضي، دون انقطاع.

الصورة لامرأة أمام الكاميرا إلى حد الخصر في حديقة غير مشذبة. شعرها الطويل الأصهب متناثر على ياقة المعطف الأسود الواسع والفاخر. على الكتف الأيسر طرف وشاح وردي باهت يبدو رقيقا جدًا مقارنة مع حجم المعطف. تحمل قطًا أبيض وأسود من ذلك الصنف المنتشر كثيرًا، وتبتسم وهي تنظر إلى العدسة، رأسها مائل قليلاً، في وادعة مغرية. تبدو الشفتان ورديتان جدًا، بلا شك بسبب ملمع للشفاه يتماشى مع لون الوشاح. ويشي مفرق الرأس البارز بنمو خصلات جديدة. ويتمايز شبابُ الوجه البيضاوي الممتلئ والوجنتان العاليتان، عن الجيوب أسفل العينين وشبكة التجاعيد الدقيقة على الجبهة. لا يسمح المعطف الواسع بتحديد حجم الجسم ولكن اليدين والمعصمين الخارجين من الكمين لحمل القط، يبدوان نحيلين، ومفاصلهما بارزة. إنها صورة شتوية.. ضياء شمس شاحبة ينعكس على بشرة الوجه واليدين.. على كتلةِ الأعشاب الجافة.. على الأغصان العارية، وهناك خلفية معشوشبة غير واضحة، مع مجموعة بعيدة من البنايات. على ظهر الصورة: «سيرجي»، ٣ شباط/فبراير ٩٢.

إنها توحي بنوع من الهجران المتحكم فيه، بـ«الامتلاء» كما تقول المجلات النسائية عن النساء ما بين الأربعين والخامسة والخمسين. التقطت الصورة في الحديقة أسفل المنزل حيث تعيش وحيدة مع هذا

القط، في الحقيقة هي قطة عمرها عام ونصف العام. قبل عشر سنوات، كان يعيش هنا زوجها، ومراهقان، وأمها من حين لآخر. كانت هي مركزَ دائرة يستحيل أن تدور بدونها.. من قرار تنظيف الأغطية إلى عملية حجز الفندق لقضاء العطلة. زوجُها صار بعيدا، تزوج من جديد ولديه طفل، والدتُها توفيت، ابناها يعيشان في مكان آخر. كانت تتأمل بروية تجريدها من كل هذا، كأن الأمر يتعلق بمسار حتمي. حين تقصد متجر «AUCHAN» للتسوق لم تعد في حاجة إلى العربة الكبيرة. تكفيها السلة الصغيرة. لا تستعيد وظيفتها كـ«مربية» سوى في نهايات الأسابيع لما يعود ابناها إلى البيت. بغض النظر عن التزامات العمل والدروس وتصحيح الفروض، فإن وقتها الباقي تخصصه لتدبير اهتماماتها الشخصية ورغباتها.. القراءة.. الكتابة.. الهاتف.. المراسلة.. والمغامرات العاطفية. فقد انحسر عنها هَمُّ الآخرين الضاغط، المادي والمعنوي، الذي كان يطغى على حياتها الزوجية والأسرية. عَوّضَه الاهتمامُ بالقضايا الإنسانية، الأقل ضغطا. في خضم تلاشي الإكراهات وانفتاح أفق الإمكانات، كانت تشعر بأنها منسجمة مع متطلبات الحقبة كما تم تحديدها ـ على صفحات «ELLE» و«MARIE CLAIRE» ـ للنساء المنتميات للطبقة الوسطى والعليا اللواتي تجاوزن الثلاثين.

يحدث أن تتأمل نفسها عارية في مرآة الحمام.. جدع ضامر وثديان صغيران، الخصر نحيف جدًا، والبطن منتفخ قليلاً، فخذان تعوزهما الرشاقة مع انتفاخ فوق الركبتين. عضوها التناسلي بارز الآن بعد أن خفت كثافة العانة، فتحة صغيرة مقارنة مع تلك التي تعرض في الأفلام الإباحية، خطان أزرقان عند التقاء الحوض بالفخذين، وهما من آثار التمددات والحمل. داهمها الاستغراب: إنه الجسد ذاته منذ أن توقفت عن النمو، وهي في حدود السادسة عشر تقريبا.

في اللحظة التي كانت تنظر فيها بوادعة إلى عدسة الكاميرا ـ بلاشك، رجل ما هو الذي التقط الصورة ـ كانت تفكر في نفسها كامرأة عاشت قبل ثلاث سنوات حبًا جارفًا مع رجل روسي. تلاشى ولعها وألمها الآن. ما زالت تشعر بشكل جسد ذلك الرجل، ولكن ملامحه أخذت تبتعد وتثير الحسرة أكثر فأكثر. تتمنى استعادة كيف كانت تتذكره لما غادر فرنسا.. تتمنى أن تتذكر تدفق الصور التي كانت تغمرُها، وتجعلُ حضورَه مسيجا في ثناياها كأنه داخل خزانة القربان المقدس.

من أمها، تتذكر العينين، اليدين، الهيئة، ولكن ليس الصوت، أو أنها تتذكره مجردا، بلا رنة. ضاع الصوت الحقيقي، وليس لديها منه أي أثر مادي. ولكن غالبا ما تأتي على شفتيها تلقائيا عباراتٌ كانت والدتُها تستعملها في سياق مماثل.. تعابير لا تتذكر أنه سبق لها استعمالها من قبل.. «الجو رخو».. «حَمَلَ وعاء البصق من أجلي».. «لكل واحد دوره كما هو الحال مع كرسي الاعتراف».. إلخ. كأن أمَّها تتحدث على لسانها، ومعها سلالة كاملة. في مناسبات أخرى تنبثق عبارات قالتها أمها وهي مريضة بـ«ألزهايمر»، ويكشف طابعُها الناشز تدهور قدراتها العقلية.. «اجلبي معك خرقا لمسح مؤخرتي». وفي ومضة يأتيها جسدُ والدتها وحضورُها. وعلى عكس عبارات سابقة، ذات الاستعمال المتكرر، فإن هذه التعابيرَ الأخيرة فريدةٌ.. تعود لشخص واحد في العالم وبشكل حصري: أمُّها.

لا تفكر في زوجها تقريبا، ومع ذلك فهي تحمل أثر حياتهما المشتركة وأثر الأذواق التي زرع فيها.. «باخ» والموسيقى الدينية.. عصير

البرتقال الصباحي.. إلخ. لما تعبرها صور تلك الحياة ـ مثل صورها في مدينة «أنسي» وهي تبحث بشكل محموم في متاجر الأحياء العتيقة عما يمكن أن تحيي به ليلة رأس السنة.. كانت في الخامسة والعشرين وكان هذا أول احتفال بأعياد الميلاد صحبة طفلها ـ تتساءل «هل أتمنى أن أكون هناك من جديد؟». ترغب في الرد بـ«لا»، ولكنها تدري جيدا أن السؤال في حد ذاته لا معنى له.. لا معنى لأي سؤال عندما يتعلق الأمر بأشياء الماضي.

يحدث أن تفكر، وهي تنتظر دورها عند صندوق الأداء بالسوق الكبير، في كل المرات التي وقفت فيها في طابور بعربة مليئة إلى هذا الحد أو ذاك، بالمواد الغذائية. وتستعيد هيئات نساء، وحيدات أو بصحبة أطفال يدورون حول عربات التسوق.. نساء بلا وجوه، فقط بتسريحات مختلفة (كعكة الشينيون.. شعر قصير.. متوسط الطول.. تسريحة مربعة) وملابس متباينة (معطف ـ ماكسي موضة الستينيات.. معطف أسود موضة الثمانينيات) كأنهن صورٌ لها هي.. صور منفصلة عن بعضها بعض مثلما تفصل الدمى الروسية عن بعضها. تتخيل نفسها هنا، بعد عشر أو خمس عشرة سنة، وعربتها مليئة بالحلويات واللُّعَب لحفدتها الذين لم يولدوا بعد. تبدو لها هذه المرأة مستحيلةً مثلما بدت، بالنسبة لفتاة الخامسة والعشرين التي كانَتْهَا، المرأةُ التي ستكونها في الأربعين والتي لم تكن آنذاك قادرة حتى على تَخَيُّلِهَا، ولكن ها هي قد تجاوزتها الآن.

حين تأتيها نوبات الأرق، تحاول تذكر، وبشكل دقيق، الغرف التي

نامت فيها.. الغرفة التي كانت تقتسم مع والديها إلى أن بلغت الثالثة عشر.. تلك التي كانت في الحي الجامعي.. تلك التي كانت في شقة مدينة «أنسي»، أمام المقبرة. تجعل الباب نقطة انطلاقها ثم تطوف على الجدران بشكل منظم ودقيق. كانت الأشياء التي تنبثق في ذاكرتها مرتبطة دائمًا بحركة ما، بواقعة فريدة:

في غرفة المخيم الصيفي حيث كانت مدربة: المرآة المثبتة فوق الحوض والتي كتب عليها بمعجون الأسنان الأحمر «EMAIL DIAMANT»: «عاشت القحاب»..

المصباح الأزرق في غرفة روما الذي كان يصعقها كلما أنارته.

في كل تلك الغرف، لم تكن ترى نفسها واضحة كما في صورة فوتوغرافية، بل تبدو مشوشة كأنها في فيلم على قناة مشفرة: مجرد هيئة.. تسريحة شعر.. حركات.. تطل من النافذة.. تغسل شعرها.. جالسة إلى مكتب أو نائمة على سرير. بل يصل بها الأمر في بعض الأحيان إلى حد الإحساس بجسدها السابق، ولكن ليس كما في الحلم، بل تحسه مثل الجسد المصطفى.. الجسد المذكور في الديانة الكاثوليكية، الذي يفترض فيه أن ينبعث بعد الموت، ولا يحس بالألم ولا اللذة، لا يشعر بالبرد ولا الحرارة، ولا بالحاجة إلى التبول.

لا تعرف بالضبط ماذا تروم من وراء كل هذا الجرد.. لعلها تسعى، بمراكمة الذكريات والأشياء، إلى أن تصير من جديد تلك التي كانتها في هذه الفترة أو تلك.

تود جمع مختلف صورها، المتفرقة، غير المتجانسة، بخيط حكاية.. حكاية حياتها.. منذ ولادتها إبان الحرب العالمية الثانية إلى غاية اليوم. هي حياة فريدة ولكنها منصهرة كذلك في حركية جيل كامل. عند الشروع في المهمة، كانت دائمًا تتعثر في نفس المعضلات: كيف يمكن، في

الآن ذاته، تجسيد مرور الزمن التاريخي، وتبدل الأشياء والأفكار والعادات، وحميمية هذه المرأة..'كيف يمكن الملاءمة بين فسيفساء خمسة وأربعين سنة والبحث عن «أنا» خارج التاريخ.. «انا» اللحظات المعلقة التي كانت تحولها إلى قصائد لما كانت في العشرين.. مثل قصيدة «العزلة».. وغيرها. كان همها الأساس يتمثل في الاختيار بين ضمير المتكلم «أنا» وضمير الغائب «هي». في ضمير المتكلم الكثيرُ من الانتظام والثبات، فيه نوع من الضيق، نوع من الخنق.. في ضمير الغائب الكثيرُ من الانفصال، الكثير من التغريب. الصورة التي كوَّنَتْها عن كتابها، وهو غير موجود بعد.. الانطباع الذي تأمل أن يُخَلِّفَه في النفوس هو ذاك الذي احتفظت به، من قراءة «ذهب مع الريح» وهي في الثانية عشر.. من قراءة «البحث عن الزمن المفقود».. ومؤخرا، من قراءة «الحياة والمصير»[1].. سيلٌ من الضوء والظلال على الوجوه. ولكنها لم تهتد بعد إلى السبيل المفضي إلى كل هذا. وتتطلع، ليس بالضرورة إلى وحي، بل على الأقل إلى أمارة تجود بها الصدفة، مثل تلك «المادلين» المنقوعة في الشاي بالنسبة إلى «بروست».

لم يكن المستقبل يتجسد لها في هذا الكتاب بالمقام الأول، بل في الرجل المقبل الذي سيجعلها تحلم.. تُقْبِل على شراء ملابس جديدة.. تنتظر رسالةً، مكالمةً، كلمةً على المجيب الآلي.

---

(١) «الحياة والمصير» رواية ألفها الكاتب الروسي «فاسيلي غروسمان» في بداية الستينيات، ويتحدث فيها عن معركة «ستالينغراد» خلال الحرب العالمية الثانية وينتقد فيها نظام ستالين، وقد تم حظر الرواية في الاتحاد السوفياتي بل وحجزت مسوداتها من طرف الأمن السوفياتي، ولكن غروسمان نجح في تهريب نسخة منها إلى الغرب حيث ستنشر لأول مرة في ١٩٨٠ بسويسرا.

فَتُرَت حُمَّى الأحداث العالمية. فـ«المفاجئ» ينهك. وأخذ شيء غير محسوس يجرفنا معه. وصارت مساحة التجربة تفقد حدودها المعتادة. ومع تراكم السنين، أخذت تلك التي كانت تعتبر بالنسبة إلينا معالم ـ ٦٨ و٨١ ـ تتلاشي. صار سقوط الجدار هو لحظة القطيعة الجديدة، دون الحاجة إلى تحديد تاريخها. لم يكن هذا السقوط يعني نهاية التاريخ بل فقط نهاية التاريخ الذي يمكننا حكي أحداثه.

بدت بلدان وسط أوروبا وشرقها ـ الغائبة إلى حد ذلك الزمن عن خيالنا الجغرافي ـ كأنها تتكاثر من خلال انقسامها المتواصل، إلى «إثنيات». هذا المصطلح الذي يجعلها مختلفة عنا وعن الشعوب الجادة، ويحمل في طياته تَخَلُّفًا بُرْهَانُه البارز هو عودة الأديان والتعصب.

كانت «يوغسلافيا» غارقةً في النار والدم. كان رصاص الرماة المختبئين ـ القناصة ـ يخترق الشوارع. ولكن، رغم أن القذائف كانت تواصل قتل المارة كأنها في سباق محموم للفتك وتحويل جسور عمرها آلاف السنين إلى أنقاض وغبار، ورغم توبيخ «الفلاسفة الجدد» القدامى وتحملهم عناء تكرار أن «سراييفو توجد على بعد ساعتين فقط من باريس» لجعلنا نشعر بالخزي، فالتعب كان قد نال منا، فقد استنزفْنا عواطفَنا خلال حرب الخليج، في الزمن الخطأ. أخذ الضمير ينحسر. صرنا نلوم «الكرواتيين» و«أهل كوسوفو» وغيرهم على اقتتالهم مثل المتوحشين بدل استنساخ ما فعلنا. لم نعد نشعر أننا وأياهم ننتمي إلى «أوروبا» ذاتها.

تحولت الجزائر إلى حمام دم. خلف الوجوه المقنعة لعناصر «الجماعة الإسلامية المسلحة» كنا نرى وجوه أعضاء «جبهة التحرير

الوطني». هم كذلك، هؤلاء الجزائريين، لم يحسنوا التعامل مع حريتهم، ولكن هذا هو حالهم منذ زمن طويل. كأننا قررنا منذ الاستقلال نسيان هذا الأمر بالمرة. كانت تحدونا رغبة أقل في الاهتمام بما يجري في «رواندا» لأننا لا نستطيع التمييز، فيما يخص «الهوتو» و«التوتسي»، بين الأخيار والأشرار. على أي، كان التفكير في إفريقيا دائمًا ما يغمرنا بنوع من الفتور. كان هناك اتفاق ضمني على أنها مازالت في زمن متأخر عن زماننا، لها تقاليد وحشية، ويحكمها طغاة يملكون قصورا في فرنسا، ولا نهاية لآلامها. إنها قارة مُخيبة للآمال.

كان التصويت مع «ماستريخت»[1] أو ضدها فعلا مجردا كدنا ننسى القيام به رغم تعليمات جماعة ـ أطلق عليها اسم «الشخصيات» ـ لم نكن نرى ماذا يجعلها أكثر دراية منا بالمسألة. صار من العادة أن يملي الناسُ المعروفون ما يجب التفكير فيه والقيام به.

سيهزم اليمينُ اليسارَ في الانتخابات التشريعية لشهر مارس[2]، وسيعود للتعايش مع «ميتران». إنه شيخ منهك بعيون غائرة شديدة اللمعان، وصوتٍ لا رنة فيه.. مجرد بقايا رئيس دولة تؤشر اعترافاته بالإصابة بالسرطان وكشفه عن ابنته السرية، على ابتعاده عن السياسة، وتجعلنا لا نرى فيه، بغض النظر عن تسوياته ودسائسه، سوى التجسيد الرهيب لـ«الزمن المتبقي». مع ذلك، كان يجد الوقت لوصف الصحافيين بـ«الكلاب» لما أطلق وزيرُه الأول «بيريغوفوا» رصاصةً على رأسه على

---

(١) «معاهدة ماستريخت» التي وقع عليها القادة الأوروبيون في ١٩٩١، وهي الاتفاقية المؤسسة للاتحاد الأوروبي الحالي. وقد جرى استفتاء بخصوصها في فرنسا في ٢٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٢.

(٢) الإشارة هنا إلى الانتخابات التشريعية الفرنسية التي جرت في مارس ١٩٩٣.

ضفاف نهر «لوار». والحال أننا كنا ندرك جيدا أن «الروسي الصغير» لم ينتحر بسبب شقة بل لأنه خان أصلَه ومُثُلَه وهو في دواليب السلطة.. وقَبِلَ بكل خنوع تحمل كل الإهانات للبقاء فيها.

أخذ انعدام القانون يسود. واتسع اغتراب اللغة الذي صار علامة على التميز الفكري. وصارت مصطلحاتُ «التنافسية»، «الهشاشة»، «التشغيل»، «المرونة» منتشرةً على نطاق واسع. أصبحنا نعيش في ثنايا خطابات صقيلة. بالكاد كنا نستمع إليها، فجهاز التحكم عن بعد اختزل كثيرًا أَمَدَ الضجر.

جرى تفتيت تمثيلية المجتمع وتوزيعها بين فاعلين عديدين، لهم طابع جنسي أساسا: تبادل الأزواج، المتحولون جنسيا، زنا المحارم، البيدوفيليا، الأثداء العارية على الشواطئ.. كانت قاعدة «مع أو ضد» تضع أمام عيون الناس وقائع وأصناف من السلوك لم تكن لهم في الغالب أي تجربة شخصية معها، ويفترضون ـ بقبولها أو رفضها ـ أنها منتشرة في كل مكان، أو أنها المعيار.

غادرت الاعترافات الحميمية الرسائل المجهولة للقارئات، وأصوات الليل في برنامج «ALLO MACHA» لتتجسد في أجساد ووجوه تظهر في لقطات مقربة لا نستطيع رفع أبصارنا عنها، ونحن مستغربون من كون كل هذا العدد من الأفراد يجرؤون على حكي قصصهم الحميمية لآلاف المشاهدين، المسرورين بمعرفة كل هذا عن حيوات الآخرين.

صار الواقع الاجتماعي همسًا خافتًا يحجبه ازدهار الإعلانات واستطلاعات الراي وأسعار البورصة.. «الاقتصاد عاد للسير بشكل جيد».

من العالم الثالث والمعسكر الشرقي سابقا، كان يأتينا، بالضرورة، مَنْ يَتِمُّ جَمْعُهم تحت اسم يحمل في طياته تهديدا ـ «المهاجرون السريون» ـ والذين يتم احتجازهم في فندق «أركاد» بمنطقة «رواسي» بضواحي باريس، وترحيلهم قدر الإمكان وفقا لقانون «باسكوا». نسينا شعارات «لا تلمس صديقي»، «الهجرة.. ثروة فرنسا». يجب الآن «مكافحة الهجرة المتوحشة».. «الحفاظ على اللحمة الوطنية». كانت جملة «ميشيل روكار» حول «بؤس العالم» تروج مثل حقيقة ساطعة، وقد استوعب الجميع المعنى المبطن في طياتها: لدينا ما يكفي من المهاجرين.

من الأفكار المرفوضة، تلك التي تقول إننا دخلنا عهد مجتمع الهجرة. فلسنين طويلة جدًا، دأب الناس على الاعتقاد بأن الأسرَ القادمة من إفريقيا السوداء ومن المغرب الكبير، والمكدسة في حواشي المدن، عابرةٌ فقط، وستعود يومًا ما، رفقة أطفالها، إلى بلدانها، تاركة وراءها شيئًا من الغرائبية وبعضا من الأسى، تمامًا مثل المستعمرات المفقودة. ها هم يدركون اليوم أن تلك الأُسَر باقيةٌ. وبدا «الجيل الثالث» من أبنائها مثل موجة جديدة من الهجرة، هجرة داخلية، تتضخم، تطوق المدن، وتكتسح ثانويات الضواحي، و«الوكالة الوطنية للشغل»، وقطار الضاحية الشمالية لباريس، وشارع «شانزيلزي» في الـ٣١ من كانون أول/ ديسمبر. إنهم يشكلون ساكنة خطيرة، كان وجودُها محط تجاهل دائم وتحت مراقبة مستمرة.. مراقبة تمتد حتى إلى خيالها ـ الذي يثير غيظنا لأنه متوجه صوب الجزائر أو فلسطين ـ وتُسَمَّى رسميا «شباب الهجرة»، وفي الحياة اليومية «العرب» و«السود»، وفي صيغة أكثر تعففًا الـ«BEURS» والـ«BLACKS».. هم متخصصون في الإعلاميات أو سكرتيرات أو حراس أمن.. ويبدو ادعاؤهم بأنهم فرنسيون أمرًا سخيفًا، كأن هذا مجدٌ مسروقٌ لا يستحقونه بعد.

أخذت الفضاءات التجارية تتوسع وتتكاثر حتى في البوادي، على شكل مستطيلات من الإسمنت تعلوها علامات يمكن رؤيتها من الطريق السيار.. أماكن للاستهلاك الفظ يجري فيها فعل الشراء من خلال التقليب المتقشف للسلع.. مجمعات مشيدة على الطريقة السوفياتية يضم كل واحد منها، وبكميات هائلة، كل ما هو متوفر من صنف معين من السلع، الأحذية، الملابس، أدوات الإصلاحات المنزلية.. و«ماكدو» كمكافأة للأطفال. إلى جانب كل هذا، هناك السوق الكبير الذي يبسط أمامنا ألفي متر مربع من الأغذية والمنتوجات، كل واحد منها معروض في عشرات الماركات. صار التسوق يتطلب وقتا أطول وتكتنفه تعقيدات عدة خصوصًا بالنسبة إلى الذين لا يملكون سوى الحد الأدنى من الأجور للإنفاق في الشهر بكامله. كان الثراء الغربي الوفير يعرض نفسه أمام الأنظار والأيادي في ممرات هائلة متوازية مليئة بالسلع، يتيه فيها البصر؛ غير أنه نادرا ما نرفع رؤوسنا.

إنه مكان للعواطفِ السريعة والفريدة، الفضول، الانبهار، التردد، الاشتهاء، النفور.. للصراعاتِ السريعة بين الغرائز والعقل. في وسط الأسبوع، يصير هذا المكان فضاءً لنزهة بعد الظهر، فرصةً للخروج بالنسبة إلى الأزواج المتقاعدين الذين يأتون إليه لملء عرباتهم على مهل. يوم السبت، تقصده أسر بكاملها للاستمتاع، في جو من اللامبالاة، بوجود كل ما هو مرغوب في متناول اليد.

سواء كان ذلك بمتعة أو نرفزة.. بمزاج رائق أو تحت وطأة الإرهاق، حسب ما تجود به الأيام، صار فعلُ اقتناء الأشياء ـ التي نقول فيما بعد إنه يستحيل الاستغناء عنها ـ يتحكم أكثر فأكثر في الحياة. وعندما نستمع إلى الأغنية الأخيرة لـ«سوشون»، «FOULE SENTIMENTALE»، فكأننا نتأمل أنفسها بعد مائة سنة، تمامًا كما سينظر إلينا ناس تلك الحقبة، فيعترينا إحساس حزين بعجزنا الكامل عن تغيير هذا المد الذي يجرفنا.

مع ذلك، نتبرم من شراء جهازٍ جديد ـ «لقد عشت طويلاً من دونه» ـ سينبغي تَحَمُّلُ ضجر قراءة طريقة استعماله وتَعَلُّمُ كيفية تشغيله. وينتهي بنا الأمر إلى بذل كل هذا الجهد بضغط من الآخرين الذين لا يكفون عن مدح مزاياه («إنه سيغير حياتك.. سوف ترين») واعتبار الأمر تكلفة إضافية يجب تحملها للتقدم نحو حرية أكثر وسعادة أكبر. يصيبنا الاستعمال الأول بالخوف، ثم تداهمنا أحاسيس مبهمة، سرعان ما تختفي، ليطويها النسيان بعد تعودنا على الجهاز: الارتباك الذي يعترينا عند سماع أصوات على جهاز الرد الآلي، يمكن تخزينها وإعادة سماعها عشر مرات.. الانبهار ونحن نتابع كلماتِ حب كُتِبَت للتو وهي تظهر على الورقة البيضاء للفاكس.. الحضور المذهل لأشخاص غائبين، هذا الحضور الطاغي لدرجة نحس معها بالذنب عندما لا نرفع السماعة ونترك الجهاز الآلي يرد، وقد شلنا خوف خيالي من أن يسمعنا المتصل عند أي حركة.

رغم التبشير بأن الجميع «سيأتون إلى الإعلاميات»، لم تكن لدينا النية في اقتناء حاسوب. إنه أول شيء نحس أمامه بأننا صغار. نتركه للآخرين ونحن نغبطهم.

من بين كل المخاوف التي تم تحديدها، كان الخوف من «الإيدز» هو الأقوى. كانت الوجوه النحيلة والمشوهة للمشاهير المحتضرين، من «هرفي غيبير» إلى «فريدي ميركوري» ـ الذي كان في كُلِيبُه الأخير أكثر وسامة من تلك الفترة التي كانت فيها أسنانه بارزة مثل أسنان أرنب ـ تكشف الطابع الخارق لهذه «الطامة»، التي تعتبر علامةً على لعنة ضربت نهاية الألفية، علامةً على قرب القيامة. أخذنا نَنأى بأنفسنا عن المصابين

بالفيروس ـ ثلاثة ملايين على الأرض ـ وكانت الدولة تسعى جاهدة، من خلال وصلات أخلاقية، إلى إقناعنا بعدم التعامل معهم كـ«منبوذين». لقد عوض عار الإيدز عارا آخر صار منسيا.. عار الفتاة الحامل بدون زواج. وكانت شبهة الإصابة به تعني الإدانة.. هل أصيبت «إزابيل أدجاني» بالإيدز؟ مجرد الخضوع للفحص كان مبعثًا للشكوك.. إقرارا بذنب لا يمكن إفشاؤه. كان المرء يخضع له خفية بالمستشفى، تحت رقم، دون الالتفات إلى الجالسين في قاعة الانتظار. وحدهم المصابون عن طريق تحاقن الدم قبل عشر سنوات كانوا يحظون بالتعاطف، وكان الناس يخففون عن أنفسهم وطأة الخوف من دم الآخرين، وهم يُحَيُّونَ مثولَ وزراء وطبيبٍ أمام المحكمة العليا بتهمة «التسميم». ولكن، في نهاية المطاف، تأقلمنا مع الوضع، وصرنا نأخذ معنا عازلا طبيا في حقائبنا. لم نكن نخرجه. فجأة تبدو فكرة استعماله بدون جدوى.. تبدو سُبَّة في حق الشريك.. ثم يعترينا الندم، فنسارع إلى إجراء الفحص، ننتظر النتيجة ونحن في خضم اليقين بأننا سنموت لا محالة. عند إخبارنا بسلبية النتيجة، تكتسي الحياة والمشي في الشارع جمالا وثراء لا اسم لهما. كان يجب الاختيار بين الوفاء والعازل الطبي. غدت الحرية الجنسية مستحيلة في الوقت الذي صار فيه بلوغ النشوة بكل الطرق ضرورة.

كان المراهقون يستمعون إلى الثنائي «DOC» و«DIFOOL»[١] على أمواج «FUN RADIO». كانوا يعيشون في خضم الجنس، محتفظين بأسرارهم.

كان عدد العاطلين في فرنسا يعادل عدد المصابين بالإيدز في الكرة

---

(١) اسمان فنيان لمنشط وطبيب كانا يشرفان على برنامج إذاعي اسمه «LOVIN FUN» في التسعينيات على أمواج إذاعة «FUN RADIO».

الأرضية بأسرها. في الكنائس، وعلى صفحات الاسترحام الموضوعة أسفل التماثيل، يمكن قراءة: «رحماك ربي، يَسِّرْ السبلَ لأبي كي يجد عملاً». كان الجميع يطالبون بوضع حد للبطالة، هذه «الآفة» الأخرى، ولكن لا أحد يؤمن بإمكانية ذلك. أصبح هذا الأمر رجاءً غير عقلاني، غايةً مثاليةً لا تتحقق أبدًا في هذا العالم.

توالت الإشارات «القوية» (على السلام، على الانتعاش الاقتصادي، على تراجع عدد طالبي العمل) التي يتم تقديمها لنا بمصافحات حارة (مصافحة عرفات وإيهود بارك). سواء كانت حقيقة أم مزيفة، فلم نكن نلقي إليها بالا. إذ لا شيء يعادل تلك السعادة التي تغمرنا مساء ـ بعد التدافع لنكون سباقين إلى الصعود على متن عربة قطار الضاحية المكتظة، والتحرك في الممر للاقتراب أكثر ما يمكن من المقاعد، ثم الانتظار وقوفًا مرور ثلاث محطات ـ عندما نجلس أخيرًا على مقعد، ونغمض عيوننا أو نتسلى بملء شبكة الكلمات المُسَهَّمَة.

أخيرًا، تم الاهتداء إلى شغل عديم الفائدة للمشردين، ما أثار ارتياحًا كبير لدى الناس: بيع نسخ «LA REVERBERE» و«LA RUE»، وهما مجلتان بمضمون رث مثل ملابس المكلفين ببيعها، نرميهما دون قراءتهما.. نشاطٌ مزيفٌ يتيح الفرز بين المشردين الصالحين، الراغبين في العمل، والآخرين المستسلمين لثمالة لا نهاية لها على مقاعد الميترو أو هناك بالخارج رفقة كلابهم. في الصيف يهاجرون نحو الجنوب. ويحظر عليهم عُمَد المدن التمدد في الأزقة المُعدّة للمارة والمخصصة للرواج التجاري. كان الكثير منهم يهلكون من شدة البرد شتاء، وشدة الحرارة صيفا.

ها هي الانتخابات الرئاسية تقترب. لم نكن نتوقع منها أن تغير الحياة. فقد استنفذ «ميتران» كل الأمل. الوحيد الذي كان سيرضينا هو «جاك دولور»[1]. انسحب دون أن يثير فينا الكثير من التشويق. لم تعد الرئاسيات حدثًا يستحق هذا الاسم. غدت فاصلاً ترفيهيًا، استعراضًا، كان الأكثرَ ظهورًا فيه على التلفزيون ثلاثةُ أشخاص متوسطو المستوى، اثنان منهما كئيبان ـ «بلادور» المتجهم، و«جوسبان» العبوس ـ وثالث غريب الأطوار، لا يهدأ: «شيراك». فكأن سمو وهِيبَةَ الانتخابات الرئاسية قد ذهبت بدورها مع أفول «ميتران». ولن نتذكر فيما بعد المرشحين وخطبهم بقدر ما سنستحضر دُمَاهُم كل مساء على قناة «CANAL+»: «جوسبان» على هيئة «يويو» مسالم داخل سيارة صغيرة على طريق متعرج في بلاد عجيبة؛ «شيراك» على هيئة «الأب بيير» برداء ديني رث؛ «ساركوزي» على هيئة خائن ماكر، وهو ينحني تملقا أمام «بلادور» ورقبتِه المنتفخة؛ «روبير هو»[2]، الذي يحمل على كتفه حقيبة تعود إلى الستينيات، وينعته الشباب بـ«المهرج». وستعود إلى مسامعنا تلك الأغنية التي كانت ترقص على إيقاعها بشكل محموم دمى وَصْلَةٍ ترفيهية أخرى

---

(١) «جاك دولور» (JACQUES DELORS) أحد أبرز وجوه الحزب الاشتراكي الفرنسي وكان كثير من المحللين يرشحونه لخلافة «فرانسوا ميتران» في الانتخابات الرئاسية الفرنسية لـ١٩٩٥.

(٢) «إدوارد بلادور» (EDOUARD BALLADUR) أحد قادة اليمين الجمهوري الفرنسي وكان من المرشحين لرئاسيات ١٩٩٥.

«لونيل جوسبان» (LIONEL JOSPIN) أحد الوجوه البارزة في الحزب الاشتراكي الفرنسي في التسعينيات وهو من سيمثل هذا الحزب في رئاسيات ١٩٩٥، وسيواجه «جاك شيراك» في الدور الثاني.

«روبير هو» (ROBERT HUE) قائد الحزب الشيوعي الفرنسي من ١٩٩٤ إلى ٢٠٠٣ وترشح باسمه في رئاسيات ١٩٩٥ و٢٠٠٢.

من برنامج «LES GUIGNOLS».. أغنية «THE RHYTHM OF THE NIGHT».

لم نكن نؤمن بأي شيء، ولكن عندما خمَّنا، من الملامح المبتهجة للصحافيين، أن «شيراك» قد فاز.. عندما شاهدنا الشباب المترفين ونساء الأحياء الراقية يصرخون فرحا، استوعبنا أن الزمن الجميل قد ولى. كان الجو صيفيا، والأسر تأخذ كل وقتها على شرفات المقاهي، فاليوم الموالي كان عطلة. كأن الانتخابات لم تجر.

كان ينبغي بذل جهد كبير عند الاستماع إلى «شيراك» لندرك أنه صار الرئيس.. للتخلص من تعودنا على ميتران. فقد تحول التعاقب غير المحسوس للسنوات معه إلى كتلة متجمدة. أربعة عشر عامًا.. لعلنا لم نشخ بكل هذا القدر من السنوات. أما الشباب فلم يهتموا أبدًا بحسابها.. لم تكن لديهم مشاعر اتجاهه. ف«ميتران» هو «ديغول» هُم، لقد شبوا في ظل عهده.. أربعة عشر عامًا تكفي وتزيد.

في منتصف التسعينيات، لم يكن الماضي يكتسي أية أهمية على المائدة التي أفلحنا في أن نجمع حولها، ظهر يوم الأحد، الأبناء الذين يشارفون على الثلاثين رفقة أصدقائهم وصديقاتهم ـ مختلفون عن السنة التي قبلها.. عابرون وعابرات في دائرة عائلية يخرجون منها فور دخولهم إليها ـ من أجل مأدبة من فخذ الضأن ـ أو أي طبق آخر نعرف أنهم لا يتناولونه خارج البيت، بسبب قلة الوقت أو المال أو الجهل بطريقة تحضيره ـ ونبيذ «SAINT JULIEN» أو «CHASSAGNE-MONTRACHET»، لتهذيب ذوق هؤلاء المعتادين على الكوكا والجعة. كان الحديث، الذي يهيمن عليه الذكور، يدور أساسًا حول مؤهلات

«الآلة» ـ المصطلح الذي كنا نجد صعوبة في ربطه بـ«الحاسوب»، لأن معناه ظل عندنا مرتبطًا بالدراجة الهوائية ـ والمقارنة بين الحاسوب الشخصي و«الماك»، وحجم «الذاكرة»، وخصائص «برامج التشغيل». كنا ننتظر، بكل طيبة، أن يغادروا لغتهم المعقدة التي لا نرغب بتاتا في توضيحها، ويعودوا إلى التداول معنا في الأمور المشتركة. يستحضرون آخر غلاف لـ«CHARLIE HEBDO»، آخر حلقة من برنامج «ARRET SUR IMAGES»، سلسلة «X-FILES»، يذكرون الأفلام الأمريكية واليابانية.. يحثوننا على مشاهدة «حَدَثَ بجوارنا» و«كلاب المستودع»[1]، اللذين يَرْوُونَ المَشْهَدَ الأول منهما بحماس كبير.. يسخرون بحنان من أذواقنا الموسيقية.. السيئة.. ويقترحون علينا آخر ما أصدره «أرتور. ه». كانوا يعلقون على الأحداث بسخرية برنامج «LES GUIGNOLS» الذي تبثه «CANAL+»، مصدرهم اليومي للأخبار إلى جانب صحيفة «LIBERATION».. يرفضون الشفقة على المآسي الفردية بترديد «لكل فرد همومه» بنبرة حاسمة. كانوا يُعْرِضون عن العالم بسخرية. كانت ردودهم الحيوية ورشاقتهم اللغوية تبهرنا وتذهلنا، صرنا نخشى أن نبدو أمامهم ثقالا وبلهاء. عند الاختلاط بهم كنا نجدد رصيدنا من الكلمات والألفاظ الرائجة بين الشباب، ويلقنوننا استعمالها السليم، ويتيحون لنا بالتالي ضَمَّ عبارات جديدة إلى مُعْجَمِنا.. التَلَفُّظَ بالأشياء مثلهم تمامًا.

كنا نتابعهم وهم يأكلون من كل الأطباق أكثر من مرة بارتياحِ مربيةٍ عابرة. ثم، تحضرهم، عند احتساء الشمبانيا، ذكريات بعض البرامج

---

(١) «حدث بجوارنا» (C'EST ARRIVE PRES DE CHEZ NOUS) فيلم بلجيكي شهير أنتج عام ١٩٩٢.
«كلاب المستودع» (RESERVOIR DOGS) أول فيلم طويل للمخرج الأمريكي «كوينتن تارانتينو»، أخرجه في ١٩٩٢.

التلفزيونية، والمنتوجات والإعلانات، والموضة التي كانت سائدة في طفولتهم ومراهقتهم. ويعددون أقنعة البرد، وواقيات الركب لحماية السراويل من التآكل.. «التونة يا سلام».. المرحاض الطحان SFA.. تورتة «باركيت» ماركة «LES TROIS CHATONS».. سلسلة «LES FOUS DU VOLANT».. «كيري» المهرج.. المنشط الإذاعي «زيكوت».. صور «لوريل» و«هاردي».. إلخ. كانوا يتبارون على الاقتباسات في سباق محموم على استعادة أشياء ماض مشترك.. ذاكرة لا حصر لها ومبتذلة تسبغ عليهم هيأة طفولية.

تغيرت إضاءة ما بعد الظهر. أخذت موجات الحماس المتتالية تتباعد. اسْتُبْعِدَتْ لعبةُ «سكرابل» منطقيا، لأنها مصدر العديد من المشاجرات. في خضم رائحة القهوة والسجائر ـ هناك اتفاق ضمني على عدم إظهار الحشيش ـ نستشعر عذوبة طقس يا ما أثقل علينا، لدرجة كنا نسعى الابتعاد عنه بلا رجعة، وصرنا نضمن استمراره ـ بغض النظر عن انفصام العلاقة الزوجية، ووفاة الأجداد، والتباعد العام ـ بغطاء مائدة أبيض، وأطباق فضية، وقطعة لحم في هذا الأحد من ربيع ٩٥. ونحن نشاهد ونستمع إلى هؤلاء الأطفال الذين باتوا راشدين، نتساءل عما يربطنا بهم.. ليس الدم ولا الجينات.. بل حاضرٌ من آلاف الأيام.. أحاديث وأفعال.. أطعمة.. رحلات على متن السيارة.. عدد من التجارب المشتركة التي تاه أثرها عن البال.

يغادرون بعد طبع أربع قبلات على خدودنا. في المساء، نستعيد تلك المتعة التي كانت تغمرهم وهم يتناولون الطعام في بيتنا رفقة أصدقائهم، السعادة تلفنا لقدرتنا على تلبية أقدم حاجاتهم وأكثرها حيوية: الطعام. وفي خضم القلق السحيق الذي نشعر به اتجاههم، والذي يرسخه ذلك الاعتقاد بأننا كنا أقوى ونحن في سنهم، يداهمنا الشعور بهشاشتهم وهم في مستقبل بلا ملامح.

ونحن وسط حرارة نهاية تموز/ يوليو، علمنا أن قنبلة انفجرت في محطة «سان ميشيل». لا محالة، ها قد عادت التفجيرات مع شيراك. واستعدنا ذلك الاندفاع نحو الاتصال بالأقارب، ونحن نعتقد، قبل أن نسمع صوتهم، أن الصدفة اختارت في تلك اللحظة بالذات، أن تضعهم ـ من بين كل الأماكن حيث يمكن أن يكونوا ـ في تلك العربة بقطار الضواحي «B». كان هناك موتى وجرحى.. سيقان ممزقة. ولكن رحلات أغسطس كانت على الأبواب، ولم تكن لدينا أي رغبة في القلق والخوف. صرنا نمشي في ممرات الميترو محفوفين بصوت يهيب بنا أن نخبر عن أي طرد متخلى عنه، وبات مصيرنا رهينا بالإجراءات الأمنية.

بعد مرور بضعة أسابيع، وبعد أن غادرت تفجيرات «سان ميشيل» الذاكرة، تم إحباط هجمات اعتمدت على خليط عجيب جمع بين طنجرة الضغط والمسامير وقنينات الغاز، وتابعنا، كأننا نشاهد فيلما، مطاردةَ شاب من ضاحية مدينة «ليون»، «قلقال الغامض»[١]، وموتَه تحت رصاص رجال الأمن قبل أن ينطق أي كلمة.

استمر التوقيت الصيفي لأول مرة إلى غاية نهاية تشرين أول/ أكتوبر. كان خريفًا حارًا وساطعًا.

مَنْ ـ خارج آباء الضحايا، والناجين ـ يتذكر موتى محطة «سان ميشيل»، الذين لم تُكتب أسماؤهم في أي مكان؟ بلا شك لتفادي ترويع الركاب المتوترين أصلا بسبب التأخيرات «الناجمة عن عطل تقني»، و«الحوادث الخطيرة».. موتى نَسِيَّهُم الجميع أسرع من موتى «زقاق رين»، مع أن هؤلاء أقدم بتسع سنين، بل وأسرع حتى من موتى شارع

---

(١) الإشارة هنا إلى «خالد قلقال»، وهو شاب جزائري ينتمي إلى «الجماعة الإسلامية المسلحة». اتهمته فرنسا بالضلوع في سلسلة الهجمات الإرهابية التي هزت البلاد في صيف ١٩٩٥.

«لي روزيي»[1] الأبعد في الزمن. أخذت الأحداث تتوارى قبل أن تبلغ مرتبة الحكي.

كانت اللامبالاة تتصاعد.

أخذت عوالم السلع، والإعلانات، والخطب السياسية تتعايش على شاشة التلفزيون دون أن تلتقي أبدًا. في واحد من هذه العوالم تسود السهولة والدعوة إلى الاستمتاع، في الآخر يهيمن الحديثُ عن التضحيات والإكراهات، وتعابيرُ ذات نبرة تهديدية أكثر فأكثر.. «عولمة المبادلات»، «العصرنة الضرورية».

تطلب منا الأمر وقتا غير يسير لنفلح في ترجمة «مخطط جوبي»[2] إلى صور من الحياة اليومية، ونستوعب أنهم كانوا يخدعوننا. ولكننا سئمنا من اتهامهم لنا، وبتلك الطريقة المتعجرفة والمتعالية، بأننا «لسنا براغماتيين». كان التقاعد والضمان الاجتماعي، آخر عهدة تنهض بها الدولة.. نوعا من النقطة المحورية لأي مد جارف.

توقف عمال السكة الحديد والبريد عن العمل.. والأساتذة، وكل الخدمات العمومية. وأخذت الاختناقات المرورية الرهيبة تسيج باريس والمدن الكبيرة، وصار الناس يشترون درجات هوائية للتنقل، ويتحركون في طوابير مسرعة في ليل كانون أول/ديسمبر. كان إضرابا شتويا.. إضرابا

---

(١) إشارة إلى الهجوم الذي تعرض له مطعم يهودي بباريس في ١٩٨٢ اتهمت منظمة «فتح ـ المجلس الثوري» بالوقوف وراءه.

(٢) «مخطط جوبي» (LE PLAN JUPPE) هو الاسم الذي أطلق على الإجراءات التي تقدم بها الوزير الأول الفرنسي «آلان جوبي» لإصلاح أنظمة التقاعد والحماية الاجتماعية بالبلاد في خريف ١٩٩٥.

للكبار.. كئيبا وهادئا، بلا عنف أو حماس زائد. استعدنا الزمن المفكك للإضرابات الكبرى، ومعه عاد التأخُر كقاعدة.. استعدنا زمن الشطارة في تدبير الحياة.. زمن الترتيبات العابرة. كان هناك شيء من الميثولوجيا في الأجساد والأفعال.. كان السير بإصرار في باريس، بلا ميترو ولا حافلة، فعلا لإحياء الذاكرة. في محطة «ليون»، كان صوت «بيير بورديو» يعمل على وصل ٦٨ بـ٩٥. عاد إلينا الإيمان القديم. صارت كلمات جديدة تثير الحماس بهدوء: «عالم مختلف»، خلق «أوروبا اجتماعية». كان الناس يرددون أنهم لم يتبادلوا الحديث هكذا منذ سنوات. يندهشون للأمر. كان الإضراب كلاما أكثر منه فعلا. سحب «جوبي» مخططه.

كانت أعياد الميلاد وشيكة. ويجب العودة إلى الذات والهدايا، العودة إلى التحلي بالصبر. أخذ الناس يطوون أيام كانون أول/ ديسمبر. لم تكن كافية لتشكيل حكاية. بقي منها فقط صورة حشد يتقدم بعناء وسط الليل. لم نكن ندري إن كان الأمر يتعلق بآخر إضراب كبير في القرن العشرين أم ببداية صحوة جديدة. بالنسبة إلينا شيء ما انطلق. أخذنا نتذكر أبيات «إلوار»:

بضعةَ أفراد كانوا
قلةً على أديم الأرض..
وحيدًا ظنَّ كلُّ منهم
حشدًا فجأة صاروا..

بين ما لم يكن بعد وما هو كائن، يجد الوعي نفسه خاليا للحظة قصيرة. حدقنا دون أن نستوعب، في العنوان العريض على الصفحة الأولى لـ«LE MONDE»: «مات فرانسوا ميتران». احتشد الناس من جديد ليلا في ميدان «الباستيل»، كما جرى في كانون أول/ديسمبر. مازلنا في

حاجة لأن نكون معا.. كنا نتخبط في العزلة. واستحضرت الذاكرةُ أن ميتران همس، مساء العاشر من أيار/ماي ٨١ لما علم أنه انتخب رئيسًا للجمهورية، وهو في مقر عمادة بلدة «شَاطُو ـ شَينُو»: «يا لها من حكاية!».

صارت عواطفنا سريعة الاشتعال. أخذت موجات من الخوف، والاستهجان، والنشوة، تتوج من حين لآخر المجرى العادي للأيام. لم نعد نتناول اللحم بسبب مرض «جنون البقر» الذي أودى بحياة الآلاف في السنوات العشر الموالية. أثارت صورة الفأس وهي تحطم باب الكنيسة حيث لجأ عدد من المهاجرين بلا أوراق إقامة، سخطَنَا الشديدَ. كان الإحساسُ بغتة بالظلم، أو أيُّ فوران للعاطفة أو الضمير يُخْرِجُ الناسَ في مواكب إلى الشارع. تظاهر مئة ألف شخص في جو من المرح ضد مشروع قانون «دوبري»[1] الذي يسهل طرد الأجانب، ووضعوا على حقائب الظهر التي كانوا يحملون بادجات عليها صورة حقيبة سوداء، وهذا السؤال: «على من سيأتي الدور؟».. تلك البادجات سيضعونها عند عودتهم في أحد الأدراج كتذكار. كنا نوقع عرائض سرعان ما ننسى سبب تحريرها.. بل ننسى حتى أننا وقعناها.. من يكون هذا الـ«أبو جمال»[2]؟ تعسر علينا الإجابة. كان التعب ينال من الناس بين ليلة وضحاها. صار

---

(١) «جون لوي دوبري» (JEAN LOUIS DEBRE) وزير الداخلية بفرنسا ما بين ١٩٩٥ و١٩٩٧.

(٢) «موميا أبو جمال» (MUMIA ABU-JAMAL) مواطن أمريكي أسود حكم عليه بالإعدام في ١٩٨٢ بتهمة قتل شرطي أمريكي، وقد أثارت قضيته جدلا واسعا في أمريكا والعالم.

الفوران والخمول يتعاقبان. تمت شيطنة كلمة «النضال» واعتبرت نفحة من نفحات الماركسية التي أصحبت محط السخرية، أما كلمة «الدفاع» فأصبحت مرتبطة، أولا وقبل أي شيء آخر، بحقوق المستهلكين.

صارت مجموعة من المشاعر بالية.. لم نعد نشعر بها.. من العبث الشعور بها.. هي مخصصة لعصور أدنى وللشعوب المخدوعة، مثل «الوطنية» و«الشرف». أما الخزي، العار، الذي يتردد على الألسن في كل مناسبة، فلم يعد ذلك الشعور الذي كان، هو مجرد استياء مؤقت، مجرد جرح زائل للأنا. أصبح الاحترام هو، قبل كل شيء، الإصرار على اعتراف الآخرين بهذه الأنا. أما «الطيبة» و«الناس الطيبون» فلم يعد يُسْمَعُ لهم صوتٌ. والافتخارُ بما ينجزه المرءُ عَوَّضَهُ التباهي بما هو عليه: امرأة، مثلي، ابن منطقة معينة، يهودي، عربي... إلخ.

كان الشعور الذي يحظى بالتشجيع أكثر من غيره هو الإحساس بخطر مبهم يجد تجسيده الضبابي في «الروماني»، وابن الضواحي المتوحش، والنشال، والمغتصب والبيدوفيل، والإرهابي ذي البشرة الداكنة.. وتتحدد فضاءاته في ممرات الميترو، محطة «الشمال» ومحافظة «سِينْ-سَانْ-دُونِي» بالضاحية الشمالية لباريس.. شعور كانت برامجُ قناتي «TF1» و«M6» وإعلاناتُ مُكبراتِ الصوت ـ «تحذير.. النشالون ينشطون بهذه المحطة»، «رجاء الإبلاغ عن الأمتعة المتخلى عنها» ـ تُرَسِّخُ حقيقتَه: انعدام الأمان.

لم يكن هناك اسم محدد لهذا الإحساس بالركود والتحول في الآن ذاته. في ظل العجز عن استيعاب ما يحدث، أخذت كلمةٌ تنتقلُ من فم إلى فم.. «القِيَّمُ» ـ دون تحديد طبيعتها ـ كوسيلة إدانة حالة الشباب،

وأوضاع التعليم، والبورنوغرافيا، ومشروع الـ«باكس»[1]، والحشيش، وضعف الإملاء. انبرت أفواه أخرى للتهكم على هذا «النظام الأخلاقي الجديد»، هذا «المقبول سياسيا»، هذا «النظام الجاهز للتفكير»، وتدعو إلى خرق الحدود المرسومة، وتصفق لفظاظة «هويلبيك». على بلاتوهات التلفزيون، كانت اللغات تشتبك فيما بينها دون أن تتهشم.

كنا ننتقل بين تفسيرات الذات المقدمة، بلا كلل، من طرف المنشطة التلفزيونية «ميريل دوما» وزميلها «دُولاَرُو»، والمجلات النسائية والمجلة الشهرية «PSYCHOLOGIES».. عِلْمٌ لا ينفع كثيرًا ولكنه يبيح لكل واحد محاسبة والديه.. عِلْمٌ يحمل في طياته بعض العزاء لأنه يجيز للمرء صهر حياته في حياة الآخرين.

بفضل البدعة المسلية لـ«شيراك» والمتمثلة في حل «الجمعية الوطنية»، فاز اليسار بالانتخابات وأصبح «جوسبان» وزيرًا أول. إنه استدراك لذلك المساء الخائب في أيار/ماي ٩٥.. إنه استعادة للوضع الأقل ضررًا، ولإجراءات كان لها طعم الحرية والمساواة، والسخاء، والتي كانت تتلاءم مع رغبتنا، جميعا، في الحصول على أشياء الحياة الجميلة.. الصحة مع نظام «التأمين الصحي الشامل».. الوقت مع نظام الـ٣٢ ساعة في الأسبوع. أما الباقي فلم يتغير. وفوق هذا وذاك لن نبلغ عام ألفين تحت حكم اليمين.

---

(١) الـ«PACS» (PACTE CIVIL DE SOLIDARITE..) الميثاق المدني للتضامن) هو نوع من «الزواج» بين شخصين في فرنسا، وهو أدنى من الزواج المدني. وتم اعتماده رسميا في ١٩٩٩.

أخذت وطأة نظام السوق تشتد، وصار يفرض وتيرته المحمومة. كانت المشتريات ذات الرمز الشريطي تنتقل بسرعة متزايدة من الشريط المتحرك إلى العربة برنة خفيفة تطوي الثمن بخفة. صارت لوازم الدخول المدرسي تظهر في الرفوف قبل حتى أن يحصل الأطفال على العطلة الصيفية، وتظهر لعب أعياد الميلاد غداة عيد القديسين، وألبسة السباحة في شهر شباط/فبراير. صار زمن الأشياء يجرفنا ويرغمنا على العيش دائمًا بشهرين مقدما عن زمننا الطبيعي. كان الناس يَخِفُّونَ إلى «الافتتاحات الاستثنائية» للمتاجر يوم الأحد، وتلك التي تحدث في بعض المساءات وتستمر إلى الحادية عشر ليلا. وصار اليوم الأول من موسم التخفيضات يشكل حدثًا يحظى بتغطيات وسائل الإعلام. كان «الفوز بصفقة مربحة».. «الاستفادة من التخفيضات» مبدأ لا جدال فيه، واجبًا لا يناقش. وصار المركز التجاري، بسوقه الكبير ومتاجره العديدة، الفضاءَ المركزي للحياة.. مكانًا للتأمل اللامحدود في الأشياء.. مكانًا للانتشاء الهادئ، البعيد عن كل عنف، المحمي بحراس مفتولي العضلات. كان الأجداد يأخذون الحفدة إليه لرؤية الماعز والدجاج المعروض في أقفاص نظيفة لا رائحة فيها، تحت الأَضواء الاصطناعية، تلك الحيوانات التي يتم تعويضها في اليوم الموالي بأكلات من منطقة «بروطون»، أو قلائد وتماثيل يطلق عليها اسم «الفن الإفريقي».. كل ما تبقى من التاريخ الاستعماري.

كان المراهقون ـ خصوصًا أولئك الذين لا يملكون أي وسيلة للتميز للاجتماعي ـ يستمدون قيمتهم الشخصية من ماركات الملابس.. «لوريال.. لأنني أستحقه» يقول الإعلان. أما نحن، منتقدي مجتمع الاستهلاك الذين يصعب إرضاؤهم، فكنا نستسلم للرغبة في اقتناء حذاء برقبة طويلة، يمنحنا ـ كما كان الأمر في الماضي مع أول نظارات شمسية.. مع تنورة قصيرة فيما بعد.. مع السروال الجرس ـ الوهمَ الزائل

بالجِدَّةِ. هذا الإحساسُ هو الذي يسعى وراءه الناس ـ أكثر من فعل التملك في حد ذاته ـ في أروقة ورفوف «ZARA» و«H&M»، ويتأتى لهم فورا، وبدون أي جهد، بشراء الأشياء: إنه مكمل من مكملات الوجود.

ولا شيء يشيخ. ولا واحدٌ من كل الأشياء المحيطة بنا يدوم بما يكفي لبلوغ الشيخوخة. كان يتم تغييرها، وإعادة تأهيلها بسرعة كبيرة. ولم يكن للذاكرة ما يكفي من الوقت لربط تلك الأشياء بلحظات معينة من الوجود.

من بين كل الأشياء الجديدة، كان «الهاتف النقال» الأكثر إبهارا، الأكثر إرباكا. لم نتخيل قط أن يكون بمقدورنا في يومًا ما التجول بهاتف بالجيب، والاتصال من أي مكان وفي أي وقت. كنا نستغرب من كون الناس يتكلمون لوحدهم في الشارع، والهاتف على آذانهم. كنا ننتفض في المرة الأولى التي يرن فيها الهاتف داخل حقيبتنا ونحن على متن قطار الضاحية أو أمام صندوق الأداء في السوق الكبير، ونبحث بشكل محموم عن زر «OK» وقد داهمنا نوع من العار، نوع من الارتباك، ويصير جسدنا فجأة محط أنظار الآخرين ونحن نجيب «ألو، نعم» ونتفوه بكلام ليس موجها لهم أصلا. على العكس من ذلك، لما يرتفع بقربنا صوت شخص لا نعرفه وهو يرد على مكالمة من المكالمات، يعترينا الانزعاج لأننا صرنا رهائن حياة تلغي وجودنا وتفرض علينا شؤونها اليومية العادية، ومشاغل ورغبات مبتذلة كانت إلى ذلك الحين مستورة في مقصورة الهاتف أو بين جدران البيت.

كانت الشجاعة التكنولوجية الحقيقية تكمن في «اقتناء» الحاسوب الذي كان التعامل معه يوحي بدرجة أعلى من الحداثة، بذكاءٍ مختلف، ذكاءٍ جديد. إنه آلةٌ مستبدة تفترض ردود أفعال سريعة، وحركات يدوية لها دقة غير معهودة، وتقترح باستمرار، في إنجليزية غير مفهومة، «خيارات» يجب الامتثال لها فورا.. إنه آلةٌ صارمة وشيطانية تخفي في عمق أحشائها الرسالةَ التي حررنا للتو.. تطوح بالمرء في دوامة تيه متواصل.. آلةٌ مُهينةٌ.. نحتج عليها.. «ماذا دهى هذا الحاسوب مرة أخرى!». ثم ننسى كل هذا الاضطراب. ونشتري «مُودِيمًا» ليكون لدينا الإنترنيت وبريد إلكتروني، ويغمرنا الانبهار من قدرتنا على «الإبحار» في كل العالم على موقع «ALTA VISTA».

كان لهذه الآلات الجديدةِ قدرٌ من القسوة على الجسد والروح، سرعان ما يمحوها الاستعمال. فتصير خفيفةً. (كالعادة، كان الأطفال والمراهقون يستعملونها بكل سلاسة وبلا عوائق تذكر).

صارت الآلة الكاتبة، وطقطقتها ولوازمها، تنتمي إلى حقبة غابرة، لا يمكن حتى تخيُّلُهَا. ومع ذلك، فحين نستعيد صورنا، ونحن نتصل، قبل بضع سنوات، بشخص ما من الهاتف المعلق قرب مرحاض المقهى، أو ونحن نرقن رسالة إلى «ب» على الآلة الكاتبة «OLIVETTI»، كنا حتما نقر بأن غيابَ الهاتفِ النقال والبريدِ الإلكتروني لم يكن له أي أثر على سعادة الحياة أو تعاستها.

على خلفية سماء زرقاء شاحبة وشاطئ شبه مهجور حَوَّلَتْهُ بعض الآليات إلى ما يشبه حقل محروث، تبرز مجموعة صغيرة تتكون من امرأتين ورجلين. كان جزء من الوجوه الأربعة المتقاربة مظللا بينما الجزء الآخر تغمره أشعة الشمس المنبعثة من اليسار. الرجلان، في الوسط، يتشابهان.. في الثلاثينيات من العمر، لهما نفس الطول والبنية الجسدية، صلعة ناشئة عند أحدهما، بينما متقدمة عن الآخر، لهما نفس اللحية الخفيفة. الذي في اليمين يحضن كتفي فتاة شابة، قصيرة القامة، بشعر أسود يحيط بالعينين والوجنتين الممتلئتين. المرأة الأخرى، في أقصى اليسار، تبدو في عمر ناضج غير محدد ـ تجاعيد على الجبهة المضاءة بأشعة الشمس، بقع وردية، بفعل أحمر الخدود، على الوجنتين، محيط الوجه رخو ـ قصة شعر مربعة، كنزة بيج مع وشاح معقود بارتخاء، لؤلؤة في الأذن، وحقيبة كتف توحي بأنها من بنات المدينة الثريات اللواتي يأتين لقضاء نهاية الأسبوع على شواطئ منطقة «نورماندي».

لها ابتسامة عذبة ومتحفظة.. ابتسامة أولئك ـ من والدين أو أساتذة ـ الذين تُلْتَقَطُ لهم صورٌ وهم وحيدون وسط مجموعة من الشباب (تلك طريقتهم في التأكيد على أنهم واعون حق الوعي بالهوة الجيلية).

كان الأربعة ينظرون إلى العدسة. الوجوه والأجساد ثابتة في وضعية تم تحديدها منذ بدايات التصوير، للبرهنة على أنهم كانوا هنا معا، في

نفس المكان ونفس اليوم، وقد تم تصويرهم وهم في خضم ذلك الغياب المشترك لأي انشغال آخر غير «الاستمتاع». على ظهر الصورة: «تْرُوفِيلْ»، آذار/ مارس ١٩٩٩.

هي تلك المرأةُ بأحمر الخدود. الشابان الثلاثينيان هما ابناها، الفتاة الشابة صديقة الأكبر بينهما. صديقة الآخر هي التي التقطت الصورة. بفضل سنوات من المداخيل المادية المريحة كأستاذة «خارج التصنيف»، فهي التي تكفلت بمصاريف قضاء نهاية الأسبوع على شاطئ البحر، رغبةً منها في مواصلة دورها كمانحة للسعادة المادية لابنيها.. رغبةً منها في تعويضهما عن أي وجع محتمل في الحياة تحس أنها مسؤولةٌ عنه، بما أنها السبب في مجيئهما إلى هذا العالم. فهي لم تجد بدا من الاستسلام لحقيقة كونهما يكسبان حياتهما ـ رغم مستواهما الدراسي العالي ـ من عقود العمل محدودة الأجل.. من تعويضات البطالة.. من العمل بالقطعة، حسب الشهور. وهذا كله في حاضر محفوف بالموسيقى والمسلسلات الأمريكية وألعاب الفيديو، كأنهما يواصلان إلى ما لا نهاية الحياة الطلابية أو حياة الفنانين المعدمين، في جو من البوهيمية العامة، بعيدا جدًا عن فكرة «الاستقرار» التي كانت تؤرقها وهي في عمرهما (لا تدري إن كانت لا مبالاتهما الاجتماعية حقيقية أم مصطنعة).

تمشَّوْا إلى غاية فندق «روش نوار»، والدُّرج الذي يحمل اسم «مارغريت دوراس»، وعادوا. لعلها ـ في خضمِّ المشيء ببطء.. التأملِ الشارد وسط نزهة جماعية.. التنسيقِ الفوضوي للخطوات ـ شَعَرَتْ، وهي تنظر إلى ظهري وسيقان ابنيها اللذين يسبقانها بمعية صديقتيهما وتسمع صوتيهما الجهوريين، بنوع من عدم التصديق. كيف يعقل أن

يكون هذان الرجلان ابنيها؟ (حَمْلُهما في بطنها بدا لها تبريرًا غير كاف). ألم تكن في الحقيقة تسعى بشكل مبهم إلى استنساخ حياة والديها.. إلى أن ترى أمامها ما كان خلفها، حتى يتحقق لها نفس الرسوخ في هذا العالم.

ولعلها استحضرت، وهي على هذا الشاطئ، اندهاش والدتها التي كانت تصرخ، وهي تنظر إليها متقدمةً نحوها وسط ابنيها المراهقين، «يا لهذين الشابين الطويلين!» بدهشة مفعمة بكثير من الإعجاب، كأنها لا تصدق أن ابنتَها أمٌ لشابين يفوقانها طولا.. كأنه من غير اللائق أن ينشأ في بطن من كانت تعتبرُها دائمًا طفلتَها، ذكران بدل اثنين.

حتما، كانت تحس ـ كما يحدث لها في المناسبات المتفرقة لما تلتقيهما، وتتقمص من جديد دور الأم الذي لم تعد تنهض به سوى من حين لآخر ـ بأن رابط الأمومة لا يكفي، بأنها في حاجة إلى عشيق، إلى حميمية مع شخص آخر لا تتحقق سوى في الوصال الجنسي، و تكون عزاءَها خلال الخصومات العابرة معهما. كان الشاب الذي تلتحق به في نهايات الأسابيع الأخرى، يصيبها بالممل ويثير غيظها بإصراره على مشاهدة برنامج «TELEFOOT» صباح الأحد، ولكن التخلي عنه كان يعني التوقفَ عن تجاذب أطراف الحديث مع شخص آخر حول الأفعال والوقائع المبتذلة لكل يوم.. التوقفَ عن تحويل الحياة اليومية إلى كلمات. كان يعني كذلك التوقفَ عن الانتظار.. التطلعَ إلى الملابس الداخلية المصنوعة من الدانتيل والقول إنها لم تعد تصلح لأي شيء.. الاستماعَ إلى «SEA SEX AND SUN» والشعورَ بالإقصاء من عالم كامل من الأفعال والرغبات والتعب.. الحرمانَ من المستقبل. في هذه اللحظة،

يجعلها هذا الحرمانُ ـ لما تخيلته ـ متمسكةً أكثر بهذا الشاب، كأنها تتشبث بـ«حب أخير».

حين تفكر مليا في الأمر، تدرك أن العنصر الأساسي في علاقتهما لم يكن، فيما يخصها، جنسيا: هذا الشاب يتيح لها أن تعيش من جديد ما لم تتخيل أبدًا أن تعيشه مرة أخرى. حينما كان يأخذها إلى مطعم «JUMBO».. لما يستقبلها على إيقاعات أغاني «THE DOORS».. أو عندما يمارسان الحب فوق مرتبة موضوعة على الأرض مباشرة في شقته الباردة جدًا، كان ينتابُها الإحساس بأنها تعيدُ مشاهد من حياتها الطلابية.. تُكَرِّرُ لحظاتٍ سابقة.

طبعا، تلك المشاهد لم تعد حقيقية، وفي الوقت ذاته، فهذا التكرار هو الذي يضفي طابع الحقيقة على شبابها، على تجاربها الأولى، على «المرات الأولى» التي لم تكتس، في خضم الذهول الذي رافق حدوثها، أي معنى. ولم تكتسبه حتى الآن أيضًا. والتكرار يملأ الفراغِ ويمنحُ وهمَ التحقق. كَتَبَتْ في يومياتها: «انتزعني من جيلي، دون أن أَلِجَ جيلَه. لا أحتل أي موقع في الزمن. إنه الملاك الذي يحيي الماضي.. يمنحُ الخلود».

غالبا ما كانت تغمرها حالة خاصة وهي ملتصقة به، تغالب ذلك النُّعَاسَ الذي يلي ممارسةَ الجنسِ، يوم الأحد بعد الظهر. يختلط عليها الأمر ولا تعرف من أين، من أي مدن، تنبعث أصوات السيارات والخطوات ويأتي صدى الكلام المتردد بالخارج. كانت تحس، وبشكل ملتبس، أنها في مقصورَتِها بدار الطالبات.. في غرفةِ أحد الفنادق (بإسبانيا في صيف ١٩٨٠، بمدينة «ليل» مع «ب» في فصل الشتاء).. في السريرِ، وهي طفلةٌ، منكمشة قرب أمها النائمة. كانت تحس أنها في لحظات متعددة من حياتها، يطفو بعضها فوق بعض. إنه زمان مجهول

ذاك الذي يستولي على وعيها وعلى جسدها.. زمن يتداخل فيه الحاضر والماضي دون أن ينصهرا.. زمن تشعر أنها استعادت فيه بشكل عابر كل أشكال الكائن الذي كانته في السابق. إنه إحساسٌ سبق لها أن شعرت به بشكل عرضي ـ ربما تحفزه المخدرات ولكنها لم تتناولها قط، مُفَضِّلَةً نشوةَ الصحو ـ وتقبضُ عليه الآن في لقطات مكبرة وبطيئة. أَطْلَقَتْ عليه اسمًا: «الإحساسُ الطِرْسِي» رغم أن هذا الوصف ـ الطرس يعني إن صدق تعريف المعاجم: «الرَّقُّ الذي يُمحى لإعادة الكتابة عليه» ـ لا يفي بالمعني تمامًا. هي ترى فيه أداة للمعرفة، ليس لها فقط، بل أداة عامة.. علمية تقريبا. معرفة ماذا؟ لا تدري.

في مشروعها الخاص بالكتابة عن امرأة عاشت منذ ١٩٤٠ إلى غاية هذا اليوم ـ الذي يغمرها الأسفُ بل والإحساس بالذنب لعدم إنجازه ـ كانت تتمنى، بتأثير من «بروست» بلا شك، أن تفتتحه بهذا الإحساس، لأنها تحتاج إلى بلورته انطلاقا من تجربة واقعية.

إنه إحساس يأخذها، بالتدريج، بعيدا عن الكلمات، عن أي لغة، إلى تلك السنوات الأولى التي لا ذكريات لها.. إلى الدفء الوردي للمَهْدِ، عبر سلسلة من الفجوات ـ مثل التي في لوحة «عيد الميلاد» لـ«دوروثي تانينغ» ـ تلغي أفعالَها وكلَّ الأحداث.. كلَّ ما تعلمت.. كلَّ ما فكرت فيه.. كلَّ ما رغبت فيه، وتفضى بها، عبر السنين، إلى هنا، إلى هذا السرير مع هذا الشاب. إنه شعور يلغي تاريخَها. والحال أنها ترغب في إنقاذ كلِّ شيء في كتابها.. كلِّ ما كان حولَها باستمرار.. إنقاذ «شرط وجدها». أليس هذا الإحساس جزءً من التاريخ.. جزءً من التغييرات التي مست حيوات النساء والرجال.. بل ألا ينبع من إمكانية إدراكه في الثامنة والخمسين وهي بجانب شاب في التاسعة والعشرين من دون أي شعور بالذنب، ولا بالفخر أيضًا. ليست على يقين من كون هذا «الإحساس الطِّرْسِي» له قدرة استكشافية أقوى من إحساس آخر، سائدٍ هو الآخر:

الإحساسُ بأن حياتَها، «أنا» واتِها، شخصياتٌ خارجةٌ من الكتب والأفلام.. الإحساسُ بأنها المرأةُ في شريطي «سُو التائهة في منهاتن» و«كلير دولان»، اللذين شاهدتهما مؤخرا فقط، أو بأنها «جين إير» أو «مولي بلوم»[١].. أو «دليدا».

في العام المقبل، ستحال على التقاعد. وقد شرعت في رمي بعض الدروس، والملاحظات التي دونتها عن بعض الكتب والمراجع التي استعانت بها لإعدادها، متخلصة بذلك مما كان يطوق حياتها. كأنها تريد فسح المجال بشكل كامل لمشروعها في الكتابة، فلم يعد لديها أي عذر لتأجيله. وهي ترتب مكتبها، وقعت على جملة جاءت في مستهل «حياة هنري برولار»[٢]: «ها أنا أشارف الخمسين، لعل الوقت حان لأعرف نفسي». حين دَوَّنَتْها، كانت في السابعة والثلاثين، وها هي الآن قد أدركت سن «ستندال» بل وتجاوزته.

أخذ عام ٢٠٠٠ يقترب. لم نكن نصدق أن الحياة منحتنا حظ معرفة هذا الزمن. تأسفنا لموت الناس قبل هذا. لم نكن نتخيل أن هذا العام سيمر بشكل طبيعي. فقد تم الإعلان عن احتمال حدوث «عطل» في أنظمة المعلوميات، عطل على مستوى الكوكب بأكمله.. شيء يشبه ثقبا أسود ينذر بأن نهاية العالم وشيكة.. ينذر بالعودة إلى وحشية الغرائز. كان

---

(١) «مولي بلوم» (MOLLY BLOOM) هي زوجة «ليوبولد بلوم» الشخصية الرئيسية في رواية «عوليس» للكاتب الإيرلندي «جيمس جويس».

(٢) «حياة هنري برولار» (LA VIE DE HENRY BRULARD) سيرة ذاتية ألفها الكاتب الفرنسي «ستندال» ونشرت بعد وفاته.

القرن العشرون ينغلق خلفنا على وقع الحصائل. فكل شيء يتم جرده وترتيبه وتقييمه.. الاكتشافات.. الأعمال الأدبية والفنية.. الحروب.. الإيديولوجيات.. كأنه من اللازم استهلال القرن الواحد والعشرين بذاكرة بيضاء.. إنه زمن مهيب، ذو نبرة متهمة ـ نحن مدينون بكل شيء ـ يطل علينا ويسلبنا ذكرياتنا.. يسلبنا هذا الشيء الذي لم يكن قط بالنسبة إلينا وحدة كاملة ـ القرن ـ بل مجرد انسياب لسنوات، أقل أو أكثر إثارة، حسب التحولات الطائرة على حياتنا. في القرن المقبل، سيكون كل الذين عرفنا خلال طفولتنا قبل أن يرحلوا ـ أي الآباء والأجداد ـ قد ماتوا بشكل نهائي.

لم تكتس سنوات التسعينيات، التي عبرنا للتو، أي صبغة مميزة.. كانت سنوات خيبةِ الأمل. وبالنظر إلى ما كان يجري في العراق ـ الذي تُجَوِّعُه الولايات المتحدة وتهدده بتنفيذ «ضربات»، والذي يموت فيه الأطفال جراء غياب الأدوية ـ وفي غزة والضفة الغربية، وفي الشيشان، وفي كوسوفو، وفي الجزائر.. إلخ، فمن الأفضل نسيان المصافحة بين «عرفات» و«كلينتون» بـ«كامب ديفيد».. «النظام العالمي الجديد».. و«يلتسين» على دبابته. لا شيء يستحق الذكر في الواقع.. ربما المساءات الضبابية لكانون أول/ دجنبر ٩٥، والتي تبدو بعيدة الآن.. بلا شك كانت آخر الإضرابات الكبيرة في القرن. يمكن إضافة الأميرةِ ديانا الجميلةِ التعيسةِ التي قُتِلَتْ في حادثة بنفق «ألما».. الفستانِ الأزرقِ لـ«مونيكا لوينسكي» الملطخ بمني «بيل كلينتون».

فوق هذا كله، هناك كأس العالم لكرة القدم. كان الناس يتمنون عودة أسابيع الانتظار تلك، التجمع أمام شاشات التلفزيون في المدن الصامتة التي يجوبها باعة البيتزا.. الأسابيعُ التي أفضت ـ مباراة بعد مباراة ـ إلى

ذلك الأحد وتلك اللحظة التي كان يمكن ـ في جو من الصخب والنشوة العارمة ـ أن نموت فيها معًا من السعادة الغامرة (سوى أن ما عشناه كان النقيض الكامل للموت).. كانوا يتمنون استعادة ذلك الاستسلام الهائل لرغبة واحدة، لصورة واحدة، لحكاية واحدة.. استعادة تلك الأيام المبهرة التي كانت إعلاناتُ «EVIAN» و«LEADER PRICE» الحاملة لوجه «زيدان» على جدران الميترو، بقايَاهَا الزائلة.

لم يكن أمامنا أي شيء.

كان الصيف الأخير ـ كل شيء صار «أخيرًا» ـ وشيكًا. أخذ الناس يحتشدون من جديد. يسارعون على متن سياراتهم صوب أجراف «المانش» لرؤية القمر وهو يغطي الشمس في عِزِّ النهار. يتجمعون في حدائق باريس. تهب نسمة باردة، ينزل الظلام. كنا نتلهف إلى ظهور الشمس من جديد، ونتمنى في الآن ذاته أن يدوم هذا الليل العجيب.. كان يداهمنا إحساس بأننا نعيش بالعرض السريع انقراض البشرية. كانت ملايين السنين الكونية تعبر أمام عيوننا المتخفية وراء نظارات سوداء. كأن الوجوه العمياء المشرئبة نحو السماء تنتظر قدوم إله ما أو فارس يوم القيامة على جواده الأبيض. عادت الشمس إلى الظهور وأخذ الناس يصفقون لها. سيحدث الكسوف المقبل في ٢٠٨١، لن نحضره.

عبرنا إلى العام ٢٠٠٠. باستثناء الشهب الاصطناعية والحماس المعتاد لسكان المدن، لم يكن هناك شيءٌ يستحق الذكر. انتابنا إحساس بخيبة الأمل، فالعُطْل المعلوماتي المتوقع كان مجرد خدعة. أما الحدث الذي يستحق هذا الاسم فقد وقع قبل ستة أيام، مع قدوم ما سمي «العاصفة الكبرى»، التي انبثقت من العدم. في بضع ساعات من الليل، اقْتَلَعَتْ

آلافَ الأعمدة، واجْتَثَّتْ غاباتٍ، ونَزَعَتِ الأسقفَ عن المنازل، وهي في طريقها من الشمال نحو الجنوب، ومن الغرب صوب الشرق، ولكنها لم تؤد سوى إلى وفاة حوالي عشرة أشخاص كانوا في المكان الخطأ. في الصباح أشرقت الشمس على مشهد مشوه، له ذلك الجمال الخاص الذي يكتسيه الخراب. من هنا بدأت الألفية الثالثة (الفكرة نابعة من اعتقاد في انتقام غامض للطبيعة).

لم يتغير شيء باستثناء تعويض رقم ١ بـ٢ الذي كان يحول قلم الحبر إلى مبراة عند تحرير التاريخ أسفل الشيكات. في ظل استمرارية فصل شتاء لطيف وماطر مثل سابقيه، وفي ظل التذكير بـ«التوجيهات الأوروبية» لبروكسيل، و«تكاثر المقاولات الناشئة»، كان يسود نوعٌ من الحزنِ بدلا من ذلك الحماسِ المتوقعِ. كان الاشتراكيون يحكمون بدون أي تَمَيُّز، وأخذت المظاهرات تتضاءل. توقفنا عن المشاركة في تلك الخاصة بدعم «المهاجرين بلا أوراق الإقامة».

تحطمت طائرة الأثرياء، التي لم يكن يستقلها أي أحد من محيطنا، في بلدة «كونيس»، بعد بضعة أشهر من بداية القرن الجديد. وتلاشت بسرعة من الذاكرة لتلتحق بحقبة «ديغول». وعوض رجلٌ باردٌ قصيرُ القامة، ذو طموحات غامضة، وله اسم سهل النطق هذه المرة ـ بوتين ـ السِّكِّيرَ «يلتسين»، وتوعد بـ«قتل الشيشان حتى في المراحيض». لم تعد روسيا تنعش أي أمل ولا تثير أي خوف.. لا يقترن بها شيء آخر غير الخراب. لقد انسحبت من خيالنا، الذي احتله الامريكان رغم أنفنا، مثل شجرة ضخمة ترخي بأغصانها على وجه الكرة الأرضية. أخذوا يمعنون في إثارة غيظنا بخطابهم الأخلاقي، بأَسْهُمِهِم، بصناديق الادخار، بتلويثهم للكوكب، بتقززهم من أَجْبَانِنا. وللتأكيد على الفقر المتأصل

لتفوقهم، القائم أساسًا على الأسلحة والاقتصاد، فهم يوصفون بكلمة محددة: «العجرفة». إنهم مجرد غزاة لا مُثُلَ عُليا لهم غير البترول والدولار. لم تكن قيمهم ومبادئهم ـ عَوِّلْ على نفسك فقط ـ مبعث أمل لغيرهم.. وكنا نحلم بـ«عالم مختلف».

كان حدثًا يستحيل تصديقه ـ كما سيظهر ذلك فيما بعد في فيلم نرى فيه «جورج دبليو بوش» بلا رد فعل، مثل طفل تائه، حين همسوا له بالخبر ـ أو حتى التفكير فيه، ولا الشعور به، فقط مشاهدته على شاشة التلفزيون المرة تلو الأخرى.. مشاهدة برجي مانهاتان وهُما ينهاران الواحد تلو الآخر، في بعد ظهر ذلك اليوم من أيلول/سبتمبر ـ الذي كان صباحًا في نيويورك، ولكنه سيظل بالنسبة إلينا بعد الظهر ـ كأن الصور ستصير واقعا من فرط مشاهدتها. لم نقو على الخروج من حالة الذهول التي استبدت بنا. بل كنا نستلذ هذا الذهول مع أكبر عدد من الناس عبر الهواتف النقالة.

أخذت الخطب والتحاليل تتدفق، وتلاشى الطابع الخالص للحدث. تبرمنا من إعلان «LE MONDE»: «كلنا أمريكيون». فجأة انقلب تمثلنا للعالم رأسًا على عقب. فقد تمكن بضعة أفراد متعصبين قادمين من بلدان ظلامية، ومسلحين فقط بقواطع عادية، من سحق رموز القوة الامريكية في أقل من ساعتين. أثار هذا الإنجازُ المبهرُ الدهشةَ. أحسسنا بالذنب لاعتقادنا في استحالة قهر الولايات المتحدة. ثأرنا لأحد أوهامنا. تذكرنا ١١ أيلول/سبتمبر آخر ومقتل «ألليندي»[١]. تم دفع ثمن شيء ما.

(١) الإشارة هنا إلى الانقلاب العسكري في الشيلي بقيادة أوغوستو فينوشي، والذي جرى في ١١ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٣، وقتل فيه الرئيس الاشتراكي للشيلي، سالفدور ألليندي

وسيحين الوقت فيما بعد للتعبير عن التعاطف والتفكير في العواقب. ما كان يهم هو قول أين وكيف، عن طريق من أو ماذا علمنا بحادث الهجوم على الـ«توين تاورز». أما الأشخاص القلائل الذين لم يعلموا به في يوم وقوعه، فينتابهم إحساس بأنهم أخطأوا موعدا مع بقية العالم.

أخذ كل واحد يحاول استعادة ما كان يقوم به في اللحظة التي صدمت فيها الطائرة الأولى برج «مركز التجارة العالمية».. في اللحظة التي رمى فيها زوجان نفسيهما في الهواء يدا في يد. لم يكن هناك أي رابط بين الوضعين، اللهم إلا أن الجميع كانوا أحياء مثل الثلاثة آلاف كائن بشري الذين كانوا مقبلين على حتفهم، ويجهلون ذلك تمامًا قبل ربع ساعة من الهلاك. ونحن نتذكر (كنتُ عند طبيب الأسنان.. على الطريق.. أقرأ في بيتي) نقبضُ، في خضم هذا التزامن المذهل، على واقع تشتت الناس في الأرض، وعلى تلك الهشاشة التي تربط فيما بيننا.

وكان الجهلُ بما يجري في تلك اللحظة بمانهاتان، ونحن نتطلع إلى لوحة لـ«فان خوغ»، يعكس الجهل بلحظة موتنا. ومع ذلك، نجت هذه الساعة التي تضم، في الآن ذاته، البرجان المفجران لـ«مركز التجارة العالمية»، والموعدُ عند طبيب الأسنان أو إجراءُ الفحص التقني للسيارة، من وسط التدفقِ المبتذل للأيام.

أبعد ١١ أيلول/سبتمر كل التواريخ الأخرى التي صاحبتنا إلى ذلك الحين. وكما كنا نقول «ما بعد أوشفيتز»، صرنا نقول «ما بعد ١١ أيلول/سبتمر».. إنه يوم فريد. في هذا التاريخ بدأ شيء ما لا نعلمه بالضبط. صار الزمان بدوره مُعَوْلَمًا.

في وقت لاحق، لما سنتذكر أحداثًا نحدد، بعد لحظات تردد، زمن

وقوعها في ٢٠٠١ ـ عاصفة ضربت باريس في نهاية أسبوع منتصف آب/ أغسطس، مجزرة «صندوق الادخار» بـ«سرجي ـ بونتواز»، برنامج «LOFT»، صدور «الحياة الجنسية لكاثرين. م» ـ سنتفاجأ بضرورة وضعها في زمن سابق لـ١١ أيلول/سبتمبر، مندهشين من كونها لا تختلف في شيء عن تلك الأحداث التي وقعت بعده، في تشرين أول/ أكتوبر أو تشرين ثاني/ نوفمبر. فقد استعادت رَفْرَفَتَهَا في الماضي واستقلالَها عن حدث يجب الإقرارُ الآن أننا لم نعشه حقا.

بدون أي مهلة للتفكير، وجدنا أنفسنا في دوامة الخوف.. فهناك قوة غامضة تسللت إلى العالم، على أهبة اقتراف الأفعال الأكثر وحشية في كل بقاع الأرض.. أظرفة بها مسحوق أبيض تقتل متلقيها.. صحيفة «LE MONDE» تعنون: «الحرب مقبلة».. رئيس الولايات المتحدة، «جورج دبليو بوش»، الابن الباهت للرئيس الأسبق، والذي انتخب بطريقة سخيفة بعد إعادة حساب الأصوات مرات عديدة، يعلن حرب الحضارات، حرب الخير ضد الشر. أصبح للإرهاب اسم: القاعدة؛ ودين: الإسلام؛ وبلد: أفغانستان. لا يجب الاستسلام للنوم بعد الآن. ينبغي التحلي باليقظة إلى نهاية الزمن. تسبب إكراه الناس على تبني خوف الأمريكيين في خفوت حس التضامن والتعاطف. صرنا نسخر من عجزهم عن الإمساك بـ«بن لادن» و«الملا عمر»، الذي تبخر على متن دراجة نارية.

تغير تمثلنا للعالم الإسلامي. فهذه الكتلة المبهمة المكونة من رجال بألبسة طويلة ونساء محجبات مثل القديسات العذارى، ومربي الجِمال، والرقص الشرقي، والصوامع والمؤذنين، تحولت من وضعِ الشيء البعيد، المثير والمتخلف، إلى وضع القوة الحديثة. صار الناس يجدون

صعوبة في الجمع بين الحداثة ومناسك الحج، بين فتاة تلتحف التشادور وأطروحة دكتوراه في جامعة طهران. لم يعد تجاهل المسلمين ممكنا.. مليار ومائتا مليون نسمة.

(لم يكن المليار وثلاثة مائة مليون صيني ـ الذين لا يؤمنون بأي شيء غير الاقتصاد الذي يدور بكل قوة لصناعة منتوجات رخيصة الثمن موجهة للغرب ـ يجسدون شيئًا غير صمت قصي).

عاد الدينُ، ولكن ليس ديننا، الذي لم نعد نؤمن به، الذي لم نرغب في نقله لمن يأتون بعدنا، الذي يظل الدينَ الشرعي الوحيد، الأفضلَ إن كانت ثمة ضرورة للتصنيف. هذا الدين الذي تمثل سبحاتُه العشر وأناشيدُه وسَمَكُ الجمعة المقدسة، جزءً من متحف الطفولة.. «أنا مسيحي.. ذا هو مجدي».

لم يتزحزح ذلك التميز بين «الفرنسيين الأصليين» ـ بمعنى: في كل شيء.. شجرة النسب والأرض ـ و«الفرنسيين أبناء الهجرة». ولما يشير رئيس الجمهورية في أحد خطاباته إلى «الشعب الفرنسي»، فبلا شك كان يعني كيانًا ـ سخيًا، يتعالى عن أي شبهة بكراهية الأجانب ـ يشمل «فكتور هوغو»، السيطرة على سجن الباستيل، الفلاحين، المعلمين، القساوسة، الأب «بيير» و«ديغول»، «برنار بيفو»، «أستيريكس»، «الأم دوني» و«كوليش». لم يكن يشتمل على فاطمة، وعلي، وبوبكار، ولا على أولئك الذين يتبضعون من رفوف البضائع الحلال في الأسواق الكبرى ويصومون رمضان.. فما بالك أن يضم «شباب الأحياء» الذين كان ارتداؤهم لقبعات ستراتهم وسَيْرُهم بلامبالاة علاماتٍ أكيدةً على كسلهم وخبثهم.. مقدماتٍ أكيدةً لتصرف مشين. بشكل مبهم، صاروا من «السكان الأصليين» لمستعمرة داخلية لم تعد لنا عليها أي سلطة.

كانت اللغة تعكف على بناء الانقسام بيننا وبينهم.. كانت تحاصرهم داخل «جماعات» في «أحياء» على «أراض خارج القانون» تسود فيها تجارة المخدرات، و«الاغتصابات الجماعية».. كانت تحولُهم إلى وحوش. «الفرنسيون قلقون» تقول الصحف. وحسب استطلاعات الرأي ـ التي صارت تملي علينا المشاعر ـ فغياب الأمان هو الانشغال الرئيس للناس. كانت لغياب الأمان هذا صورة ضمنية: جماعة من الكائنات ببشرة داكنة تعيش في الظل، وعصابات سريعة في سرقة هواتف الناس الشرفاء.

كان الانتقالُ إلى الـ«يورو» تسليةً عابرةً. إذ نال الفتورُ من فضولنا بخصوص مصدر القطع النقدية، بعد أسبوع واحد. إنها عملة باردة، أوراقها المالية صغيرة الحجم ونظيفة، بلا صور أو استعارات.. اليورو هو اليورو، لا شيء آخر.. إنها عملة غير حقيقة تقريبا، بلا وزن يذكر، وخادعة، تقلص الأسعار.. عملة تمنح الانطباعَ بوجود سوق كوني في متناول جيوب الناس داخل المتاجر، والشعورَ بالفقر عند النظر إلى ورقة الأجر. بدا لنا غريبا أن نتخيل إسبانيا بدون «البسيطات» إلى جانب المقبلات و«السانكريا».. أن نتخيل إيطاليا بدون المائة ألف ليرة لليلة في الفندق. لم يكن لدينا ما يكفي من الوقت للحزن على الأشياء.

مات «بيير بورديو»، المثقف الذي يعرفه قلة من الناس. لم نكن ندري أنه مريض. لم يمنحنا أي مهلة للالتفات إليه، للتكهن بموته. سرى حزن خافت بين كل الذين أحسوا بأنهم تحرروا عند قراءته. كنا نخشى أن تتلاشى كلمته فينا كما تلاشت كلمة «سارتر» التي صارت بعيدة جدًا الآن. كنا نخشى أن ينال منا «عَالَمُ الآراء».

كانت الانتخابات الرئاسية لشهر أيار/ ماي تبعث على الإحباط.. مجرد تكرار لسابقتها في ٩٥، مع الوجوه ذاتها: «شيراك» و«جوسبان» (الذي أخذ يتبنى نهج «بلير»، ويتبرم من استعمال لفظة «الاشتراكي»، ولكنه سيكون الفائز على الأرجح). أخذنا نتذكر باستغراب توتر وصعوبة الأشهر الأولى لـ٨١. كنا، إذن، نسير في اتجاه ما، حسب ما علق بالذاكرة. حتى رئاسيات ٩٥ تبدو لنا أفضل من هذه الانتخابات المقبلة. لم نكن ندري ماذا أنهكنا حقا.. هل وسائلُ الإعلام واستطلاعاتُها ـ «في من تثقون؟» ـ وتعاليقُها المتعاليةُ أم السياسيون ووعودُهم بخفض نسب البطالة، وتدارك عجز صناديق التأمين الصحي، أم الدرج الكهربائي بالمحطة العاطلُ دائمًا، أم الطابورُ عند صناديق الأداء في متجر «CARREFOUR» وفي مكاتب البريد، أم المتسولاتُ الرومانيات؟.. باختصار كل تلك الأشياء التي صار وضع ورقة التصويت في الصندوق من أجلها فعلا عديم الجدوى مثل رمي ورقة المشاركة في مسابقة ما داخل صندوق بالمركز التجاري. حتى دُمى برنامج «LES GUIGNOLS» لم تعد تضحكنا.

بما أنه لا أحد يمثلنا حقا، لا حرج إذن من إرضاء أنفسنا. فالتصويت مسألة خصوصية، عاطفية. أخذنا ننتظر آخر نزوة.. «أرليت لاغيي»، «كريستيان طوبيرا»، أم الخُضْر؟[1]. كان يجب أن تكون العادة مستحكمة.. يجب استعادةُ ذكرى ذلك «الواجب الانتخابي» العتيق جدًا

---

(١) «أرليت لاغيي» (ARLETTE LAGUILLER) سياسة فرنسية من أقصى اليسار ترشحت عدة مرات للانتخابات الرئاسية.
«كريستيان طوبيرا» (CHRISTIANE TAUBIRA) سياسية فرنسية يسارية ترشحت للانتخابات الرئاسية ٢٠٠٢ وتولت حقيبة العدل في عهد الرئيس الاشتراكي «فرانسوا هولاند».

لتجشم عناء الانتقال إلى مركز الاقتراع يوم الأحد من نيسان/أبريل، في عز عطلة فصل الربيع.

باستثناء شمس ساطعة وجو لطيف، لن نحتفظ، يا للغرابة، بأي أثر من انشغالات ذلك الأحد من نيسان/ أبريل.. بأي أثر من الساعات التي سبقت الإعلان عن نتائج الاقتراع، اللهم انتظار أمسية مسلية.

ووقع ما وقع. فذلك الناطقُ بالفظائع العنصرية والمعادية للسامية منذ عشرين سنة.. الديماغوجيُّ صاحبُ الابتسامة المصطنعة الحاقدة الذي كان يسلي الجميع، انبثقَ بكل هدوء وسحق «جوسبان». لم يعد هناك وجود لليسار. وتلاشت الخفة السياسية للحياة. أين الخلل؟ ماذا فعلنا؟ ألم يكن من الأفضل التصويت على «جوسبان» بدل «لاغيي». أخذ الضمير يدور في كل الاتجاهات، وقد علق في تلك الفجوة الفاصلة بين براءة رمي ورقة التصويت في الصندوق، والنتيجة الجماعية لهذا الفعل. اخترنا الجنوح إلى نزوتنا القصية فكان نصيبنا العقاب. كان حدثًا مشبعًا بالإحساس بالذنب. عم خطاب العار، وأخذ مكانَ خطابِ غياب الأمان الذي كان سائدا قبل يوم واحد فقط. احتدت مطاردة المسؤولين عما حدث: النشرات التلفزيونية التي كانت تبث على مدار الساعة ملامح «الجد فْوَازْ»[1] المثيرة للشفقة بعد تعرضه للاعتداء من طرف مُجْرِمَيْن أحرقا فوق هذا مسكنَه المتواضع.. الممتنعون عن التصويت.. الذين

(١) الإشارة هنا إلى قضية «بول فواز» (PAUL VOISE)، أثارت قضية هذا الشيخ، الذي اعتدى عليه جانحان وأحرقا كوخه البسيط قبل يومين من الدور الأول للانتخابات الرئاسية الفرنسية في ٢١ نيسان/ أبريل ٢٠٢٢، سخطا عارما في فرنسا، ويقال إن هذا الحادث ساهم بشكل كبير في وصول اليميني المتطرف «جون ماري لوبين» إلى الدور الثاني.

صوتوا للإيكولوجيين، للتروتسكيين، للشيوعيين. شرعت وسائل الإعلام في «منح الكلمة» لتلك الأصوات الخرساء التي صوتت لصالح «لوبين».. وتم إخراج العمال، وعاملات صناديق الأداء بالمتاجر الكبرى، من الظل واستجوابهم بكل حرص، سعيا وراء فهمٍ فوريٍّ وزائل.

لم يكن لدينا الوقت للتفكير، إذ وجدنا أنفسنا منجرفين بشكل محموم في تعبئة عامة لإنقاذ الديمقراطية.. للدعوة إلى التصويت على شيراك (مصحوبة بإرشادات للحفاظ على نقاء الروح عند وضع ورقة الاقتراع في الصندوق: إغلاق الأنف وارتداء قفازات.. «التصويتُ النَّتِنُ أفضل من التصويت القاتل»). رمى بنا إجماع فاضل وهادر وسط حشود وشعارات فاتح أيار/ماي: «أوقفوا الفوهرر لوبين».. «لا تخافوا، التحقوا بالمقاومة»، «أنا قلق وخائف».. «١٧,٣٪ على سلم هتلر». وجد الصغار، العائدون للتو من العطلة، أن الوضع شبيه بجو كأس العالم. تحت سماء رمادية بميدان «الجمهورية» الغاص بالبشر، داهمنا الشك ونحن خلف الظهور المتراصة لموكب رهيب في غاية الغضب. داهمنا الشعور بأننا «كُمْبَرْس» نشارك في تصوير فيلم عن سنوات الثلاثينيات. كان يطفو في الجو إحساس بزيف توافقي.

استسلمنا إلى ضرورة التصويت على شيراك بدل البقاء في البيت. عند الخروج من مكتب الاقتراع خالجنا الشعور بأننا قمنا بتصرف أبله. مساء، ونحن نتابع، على شاشة التلفزيون، موجة الوجوه المتطلعة إلى شيراك وهي تصرخ «شيشي.. نحبك»، بينما تلك اليد النحيفة لمنظمة «SOS RACISME»[1] تتمايل فوق الرؤوس، قلنا مع أنفسنا: «يا لهم من مغفلين».

---

(١) منظمة فرنسية مناهضة للعنصرية وشعارها يد مبسوطة صفراء اللون

فيما بعد، لن يتبقى في الذاكرة من هذه الانتخابات الرئاسية سوى شهر ويوم الدور الأول، ٢١ نيسان/ أبريل، كأن الاقتراع القسري للدور الثاني الذي أفضى إلى فوز بـ٨٢٪ من الأصوات، لا وزن له. هل مازال التصويت، فعلا، ممكنا؟

تابعنا اليمينَ وهو يستعيد كل المواقع. أخذت الخطاباتُ عينها ـ التي تطالب بالتكيف مع السوق ومع العولمة ـ.. التوجيهاتُ ذاتها ـ بالعمل أكثر ولمدد أطول ـ تُزْهِرُ في فم وزير أول يوحي اسمُه ـ «رافاران» ـ وتقوسُ ظهره، ولطفُه المُنْهَك بمُوَثِّقٍ من الخمسينيات يطقطق بخطوه الثقيل الأرضية الخشبية لديوانه. صرنا بالكاد نعبر عن الاستنكار عند سماعه وهو يتحدث عن «فرنسا التي في الأعلى» و«فرنسا التي في الأسفل» مثل ما كان عليه الأمر في القرن التاسع عشر. أخذنا نشيح بوجهنا بعيدا. حتى «الزرق» هزموا في كأس العالم بكوريا الجنوبية. أخذنا نعود إلى ذواتنا.

كانت شمس آب/أغسطس تُلْهِبُ البَشَرَةَ. العيون مغمضة. إنها المرأة ذاتها، الرجل نفسه، على الرمال. كانت تسبح في جسدها، الجسد نفسه الذي كان لديها في الطفولة على صخور نورماندي، الذي كان لديها في العطلة القديمة بـ«الكوسطا برافا».. جسد انبعث من جديد في كفن من نور.

تفتح عينيها ونشاهد امرأة بكامل ملابسها تخطو داخل مياه البحر بسترتها وتنورتها الطويلة، وحجاب يغطي شعرها. كان يأخذ بيدها رجلٌ عاريُّ الصدر يرتدي سروالاً قصيرًا. إنه مشهد توراتي غمرها جمالُه بحزن شديد.

كانت الفضاءاتُ المعدَّةُ لعرض السلع تزداد اتساعا وجمالا وزخرفة ونظافة، كل يوم، في تناقض تام مع الحالة المزرية لمحطات الميترو ومكاتب البريد والثانويات العمومية. كانت تلك الفضاءاتُ تولد من جديد كل صباح في غمرة بذخ اليوم الأول لِجَنَّات عَدْنٍ.

لن يكفي عام كامل، بمعدل علبة واحدة كل يوم، لتذوق كل أنواع الزبادي والتحليات المشتقة من الحليب. كانت هناك مزيلات الشعر الخاصة بآباط الذكور وأخرى بآباط الإناث، حافظات الثونغ، المناديل المبللة، «وجبات مبتكرة» و«لُقَيْمَات محمصة» للقطط الأليفة، المقسمة بدورها إلى قطط كبيرة وصغيرة، وحتى مُسِنَّة، بل وقطط الشقق. لم يعد أي شيء في جسد الإنسان ووظائفه يفلت من فطنة رجال الصناعة. فالأغذية إما «خفيفة» أو «مطعمة» بمواد خفية.. فيتامينات، أوميغا ٣، ألياف. كل ما هو موجود ـ الهواء، الأشياء الساخنة والباردة، العشب والنمل، العرق والشخير... ـ يمكن أن يُوَلِّدَ سلعا إلى ما لانهاية، بل وحتى منتوجات للحفاظ على هذه السلع في تفريع متواصل للواقع وتناسل مستمر للأشياء. ليس للخيال التجاري حدود، ولتحقيق مصلحته كان يستولي على كل اللغات.. الإيكولوجية، السيكولوجية.. ويلتحف عباءة الإنسانية والعدالة الاجتماعية، ويحثنا على «النضال معًا ضد غلاء المعيشة»، ويوصينا: «استمتعوا».. «استغلوا الفرص». ويحض على الاحتفال بالمناسبات التقليدية.. أعياد الميلاد، السان فلانتيان، ويواكب رمضان. إنه منظومة أخلاقية.. فلسفة.. نمط وجودنا بلا منازع.. «الحياة.. الحقة .. AUCHAN»[١].

إنها دكتاتورية ناعمة ومطمئنة لم نكن نسعى للتمرد عليها. يجب فقط اتقاء الإفراط فيها.. تهذيب «المُسْتَهْلِك»، التعريف الأول للفرد. في نظر

(١) شعار متاجر «AUCHAN» في بداية سنوات الألفين.

الجميع، بمن فيهم المهاجرون السريون المكدسون في زوارق متجهة صوب الشواطئ الإسبانية، كانت الحرية تتجسد في مركز تجاري، وأسواق كبيرة غارقة في الوفرة. كان من الطبيعي جدًا أن تأتي السلع من كل بقاع العالم، وتتنقل بكل حرية، بينما يتم ترحيل البشر عند الحدود. لعبورها، كان بعض الأشخاص يختبئون في الشاحنات، يتحولون إلى سلع، يموتون خنقا، بعد أن ينساهم السائق في الشاحنة بأحد المرائب، تحت شمس حزيران/يونيو الحارقة ببلدة «دوفر».

وذهبت الأسواق الكبرى بعيدا في سبل العناية إلى حد أنها وضعتْ رهن إشارة الفقراء، أجنحةً خاصة بالمنتوجات المتواضعة الجودة، الخالية من أي علامة تجارية ـ لحم البقر المعلب، معجون الكبد ـ تُذَكِّر الأثرياءَ بالخصاص والتقشف اللذين كانا سائدين في بلدان شرق أوروبا سابقا.

ما كان يُتنبّأُ به في السبعينيات، في كتابات «دوبور»، و«دومون» ـ ألم تكن هناك أيضًا رواية لـ«لوكليزيو»؟[1] ـ قد حدث إذن. كيف سمحنا بكل هذا؟ على أي، لم تتحقق كل تلك النبوءات، فلم تغمرنا البثور.. لم ينسلخ عنا جلدنا كما وقع في هيروشيما، ولسنا في حاجة لأقنعة الغاز في الشارع. على العكس، صرنا أكثر جمالا، في صحة أفضل، ولم يعد

---

(١) «غي دوبور» (GUY DEBORD) كاتب فرنسي.
«فرنان دومون» (FERNAND DUMONT) عالم اجتماع وكاتب كندي.
«جون ماري ـ غوستاف لوكليزيو» (J.M.G LE CLEZIO) من أكبر الكتاب الفرنسيين في القرن العشرين.

من الملائم الموت من المرض. مازال بحوزتنا ما يسمح بمرور سنوات الألفين دون قلق.

نتذكر عتاب الوالدين: «أَلَسْتِ سعيدةً بكل ما لديك؟» أدركنا، الآن، أن كل ما لدينا لا يكفي لتحقيق السعادة. هذا ليس سببا للتخلي عن كل هذه الأشياء. وبدا أن ثمن كل من نعيشه هو حرمان ـ إقصاء ـ البعض.. التضحيةُ بكوطا من الحيوات حتى تواصل الأغلبيةُ الاستمتاعَ بتلك الأشياء.

كان أحد الإعلانات يقول: «المال، الجنس، المخدرات.. اختاروا المال».

انتقلنا إلى الـ«دي في دي».. إلى آلة التصوير الرقمية.. إلى جهاز الـ«إم بي ٣».. إلى «الخط المشترك الرقمي» (ADSL).. إلى الشاشة المسطحة. لم نعد نتوقف عن الانتقال. «عدمِ الانتقال» كان يعني القبول بالشيخوخة. كلما برز أثر السنين على البشرة، ونال بشكل ملموس من الجسد، أمعن العالم في إغراقنا بالمنتوجات الجديدة. تردي حالتنا ومسيرة العالم يسيران في اتجاهين متناقضين.

كانت القضايا التي يثيرها ظهور التكنولوجيات الجديدة يلغي بضعها بعضا في خضم الاستعمال الذي صار فعلا تلقائيا، لا يحتاج إلى تفكير. والناس الذين يجهلون استخدام الحاسوب أو استعمال المشغل الرقمي للموسيقى سينقرضون كما انقرض أولئك الذين كانوا يجهلون استخدام الهاتف أو آلة الغسيل.

في دور العجزة، تتتابع، بشكل متواصل، أمام العيون الشاحبة للعجائز إعلاناتٌ خاصة بمنتوجات وأجهزة لم يفطنَّ قط لضرورتها، ولا يملكن أي حظ للحصول عليها يومًا ما.

كان زمن الأشياء يتجاوزنا. فقد تخلخل ذلك التوازن الذي ساد لزمن طويل، بين انتظارها وظهورها، بين الحرمان منها والحصول عليها. لم يعد الجديد يثير الهجومَ اللاذع ولا الحماس، لم يعد يشغل الخيال. صار الجديدُ الإطارَ الطبيعيَّ للحياة. ولعل مفهومَ «الجديد» نفسَه سيختفي، كما هو الحال تقريبا مع مفهوم «التقدم». فقد صرنا محكومين بالعيش في الجديد. وأخذت تتراءى لنا الإمكانيات اللامحدودة في كل شيء. صارت القلوب، والأكباد، والكُلى، والعيون، وحتى البَشَرَة تنتقل من الأموات إلى الأحياء، والبويضاتُ من رحم إلى آخر، وبات في مقدور النساء الإنجابَ في الستين. وصارت عملياتُ التجميل توقف أثر الزمن على الوجوه. فمازالت «ميلين دومونجو»[1]، لما تظهر على شاشة التلفزيون، تلك الدميةَ الفاتنةَ ذاتَها التي شاهدنا في فيلم «كوني جميلة واصمتي».. سليمةً كما كانت تمامًا في ١٩٥٨.

يداهمنا الدوار عند التفكير في التناسخِ.. في الأجنةِ التي تنمو داخل رحم اصطناعي.. في زرعِ شرائح إلكترونية في الدماغ.. الـ«WEARABLES» ـ اللفظ الإنجليزي يضيف مسحة من الغرابة والهيمنة ـ.. في جنسانيةٍ تُلْغِي الاختلافات بشكل كلي. وننسى أن هذه الأشياء وهذه الأنماط من السلوك ستتعايش مع القديمة، لفترة من الزمن.

---

(١) «ميلين دومونجو» (MYLENE DEMONGEOT) ممثلة فرنسية كانت شهيرة بأدوار الإغراء في الخمسينيات والستينيات.

وعلى أي حال، مازالت سهولة كل شيء تصيبنا بذهول عابر، وتجعلنا نقول عن جهاز جديد وصل حديثًا إلى السوق: «هذا رائع!»

كنا نستشعر أن أشياء لا تصدق ستظهر في الحياة، وسيتعود عليها الناس كما كان شأنهم، وفي ظرف قصير، مع الهاتفِ النقال، الحاسوبِ، الأيباد، الـ«جي بي إس». ما كان يربكنا هو عجزنا عن تصور أسلوب الحياة بعد عشر سنوات، بل وعجزنا عن تصور إمكانية تأقلمنا مع تكنولوجيات مازالت مجهولة. (هل يمكن أن نرى في يوم ما دماغ الإنسان وقد طبعت عليه قصته كاملة.. ما قام به، وقاله، وشاهده، وسمعه؟)

صرنا نعيش في خضم الغزارة في كل شيء.. غزارة المعلومات و«الخبرات». كانت الأفكار تظهر حول الحدث فور وقوعه.. حول مختلف أنواع السلوك.. حول الجسد.. حول الأوركازم.. وحتى الموت الرحيم. كل شيء يناقش ويحلل. وأخذت الوصفات الخاصة بترجمة الحياة والعواطف إلى كلمات، تتكاثر. الاكتئاب، إدمان الكحول، البرود الجنسي، فقدان الشهية المرضي، الطفولة التعيسة.. لم نعد نعيش أي شيء سدى. وصار نقل التجارب والاستيهامات يشغل الوعي. وأخذت عمليات الاستبطان الجماعي تقترح نماذج للتعبير عن الذات ومكنوناتها. وصار وعاء المعارف الجماعية يتوسع. ازدادت حيوية العقل. صار تعلم الأشياء يتأتى باكرا، وأخذ بطء المدرسة يثير حنق اليافعين الذين يرقنون رسائلهم القصيرة على هواتفهم النقالة بسرعة محمومة.

في خضم طيف المفاهيم، أصبح من الصعوبة بما كان العثور على

جملة خاصة بالذات.. تلك الجملة التي تُعِينُنَا ـ حين نهمس بها لأنفسنا ـ على العيش.

على الإنترنيت، يكفي كتابة كلمة مفتاح لتتوالى أمامنا آلاف «المواقع» التي تعرض علينا بشكل عشوائي جملا ومقتطفات من نصوص تفضي بنا بدورها إلى أخرى في لعبة مثيرة شبيهة بلعبة الكنز.. في استكشاف لا نهائي لما لم نكن نبحث عنه. بدا لنا أنه باستطاعتنا الاستحواذ على كل المعارف.. النفاذ إلى الآراء ووجهات النظر المتعددة المرمية على صفحات البلوغات في لغة جديدة وخشنة: الاطلاع على أعراض سرطان الحنجرة، وصفة إعداد «الموساكا»، عمر «كاثرين دونوف»، أحوال الطقس في «أوساكا»، زارعة نبات الكوبية والحشيش، تأثير اليابانيين على التطور في الصين، ممارسة لعبة البوكير، تسجيل الأفلام والأغاني.. شراء كل شيء: الفئران البيضاء، المسدسات، الفياغرا، القضيب الاصطناعي.. بيع وإعادة بيع كل شيء.. الحديث مع الغرباء، الشتم، المعاكسة.. كان الآخرون بلا جسد، بلا صوت ولا رائحة، بلا حركات، ولا يمكنهم الوصول إلينا.. المهم هو ما يمكن فعله معهم.. هو قانون التبادل.. هو الاستمتاع. هكذا، صارت تتحقق تلك الرغبة العزيزة المتمثلة في التمتع بالسلطة والإفلات من العقاب. صرنا نتحرك في عالم من المفاعيل بدون فاعل. أخذ الإنترنيت يحول العالم، بشكل مبهر، إلى خطاب.

غَدَتْ النقرة الواثبة والسريعة للفأرة على الشاشة هي مقياس الزمن.

في أقل من دقيقتين تجتمع لدينا: صديقات في ثانوية «كامي ـ

جوليان»، بمدينة «بوردو»، الأولى ثانوي «C2»، الموسم الدراسي ١٩٨٠ ـ ١٩٨١.. أغنية ل» ماري جوزي نوفيل».. مقال يعود إلى ١٩٨٨ على صفحات «L'HUMANITE». كان البحث عن الزمن المفقود يجري على الويب. كانت الأرشيفات وكل تلك الأشياء القديمة التي لم نكن حتى نتخيل العثور عليها يومًا ما، تصبح في متناول أيدينا فورا. باتت الذاكرة بئرا لا ينضب، ولكن بالمقابل اندثر ذلك العمق الزمني، الذي كانت رائحةُ الورق والصفرةُ التي تعلوه، وطيُ الصفحات، وتسطيرُ الفقرات من طرف يد مجهولة تمنحنا الإحساسَ به. صرنا في حاضر سرمدي.

لا نتوقف عن محاولات «الاحتفاظ به» في سلسلة محمومة من الصور والأفلام تكون جاهزة للمشاهدة فورا.. المئات من الصور الموزعة على الجهات الأربع للصداقات، في إطار عادة اجتماعية جديدة.. صور يتم نقلها وأرشفتها في ملفات ـ نادرا ما نفتحها ـ على الحاسوب. ما يهم هو التقاط الصورة.. التقاط الحياة ومضاعفتها وتسجيلها ونحن نعيشها.. شجيرات الكرز وقد أزهرت.. غرفة في فندق ب«ستراسبورغ».. رضيع ولد للتو.. أماكن.. لقاءات.. مشاهد.. أشياء.. إنه سعي للاحتفاظ الشامل بالحياة كما هي. مع العصر الرقمي، صرنا نستنزف الواقع.

كل هذه الصور والأفلام المرتبة زمنيا، والتي كنا نستعرض على الشاشة ـ وبغض النظر عن تنوع اللقطات والمشاهد والناس ـ يغمرها ضوء زمن فريد. أخذ شكل جديد للماضي ينكتب، يتميز بالمرونة، بقلة منسوب الذكريات الحقيقية. كانت الصورُ كثيرةً جدًا ولا يمكن التوقف عند كل واحدة منها واستعادة ظروف التقاطها. كنا نعيش فيها حياة خفيفة ومنمقة. كان تناسل آثارنا يلغي الإحساس بانسياب الزمن.

يغمرنا إحساس غريب عند التفكير بأن الأجيال المقبلة ستعرف ـ بفضل الـ«دي في دي» وأجهزة أخرى ـ كل شيء عن حياتنا اليومية الأكثر حميمية.. حركاتنا.. طريقة أكلنا.. طريقة كلامنا وممارستنا للجنس.. أثاثنا.. وحتى ملابسنا الداخلية. بل إن ظلمة القرون السالفة ـ التي انحسرت تدريجيا، منذ ظهور آلة التصوير ذات الحامل الثلاثي القوائم، وصولا إلى الكاميرا الرقمية في غرفة النوم ـ ستختفي إلى الأبد. صرنا نُبْعَثُ قبل الأوان.

وأصبحت لدينا ذاكرة واسعة ومشوشة عن العالم. لم نعد نحتفظ من كل شيء تقريبا، سوى بكلمات.. بتفاصيل.. بأسماء.. كل ما يجعل المرء يقول، على منوال «جورج بريك»[١]، «أتذكر»: «البارون أومبان»، حلويات «PICORETTE»، جوارب «بيرغوفوا»[٢]، حرب «المالوين»، الإفطار بمسحوق الشكولاتة «BENCO». ولكنها لم تكن ذكريات حقيقة. فقد صرنا نطلق هذا الاسم على شيء آخر.. على علامات العصر الفارقة.

تولت وسائل الإعلام مهمة تدبير مسلسل التذكر والنسيان. فقد كانت تحيي ذكرى كل ما يمكن إحياء ذكراه.. نداء «الأب بيير».. وفاة «ميتران» و«مارغاريت دوراس».. يوم بداية الحروب ويوم انتهائها.. قدم الإنسان

---

(١) «جورج بريك» (GEORGES PEREC) كاتب فرنسي أصدر العديد من المؤلفات من بينها كتاب شذري بعنوان «أتذكر» يستعيد فيه بعضا من ذكريات طفولته وشبابه الأول، وقد صدر في ١٩٧٨.

(٢) الإشارة هنا إلى عبارة قالها «بيير جوكس»، رئيس المجلس الأعلى للحسابات» الفرنسي في بداية التسعينيات في حق «بيير بيرغوفوا»، الذي كان وزيرا أول، إذ قال في حقه «من كانت له مثل هذه الجوارب فلا يمكن أن يكون شخصا غير نزيه».

على القمر.. «تشيرنوبل».. «١١ أيلول/سبتمر». صار لكل يوم ذكراه السنوية.. يوم إقرار قانون ما.. يوم انطلاق محاكمة ما.. يوم وقوع جريمة ما. وصارتْ تُقَسِّمُ الزمن إلي سنوات الـ«يه يه».. سنوات الهيبي.. سنوات الإيدز. وتقسم الناس إلى أجيال.. جيل «ديغول».. جيل «ميتران».. جيل «٦٨».. جيل الـ«بيبي ـ بوم».. الجيل الرقمي. كنا في هذه الأجيال جميعا ولم نكن في أي منها. سنواتنا نحن لم تكن في هذا التقسيم.

كنا بصدد التَّحَوُّر. لم نكن ندركُ بعدُ شكلَنا الجديد.

حين نرفع رؤوسنا إلى السماء في الليل، نرى القمر وهو يتلألأ فوق عالم نستشعر مدى اتساعه واكتظاظه.. فوق رؤوس ملايير الأفراد. ويتمدد الوعي على كل فضاء الكوكب سائحًا نحوا مجرات أخرى. لم يعد اللانهائيُّ شيئًا خياليا. لهذا لم يعد مقبولاً القولُ إننا سنموت يومًا ما.

إذا ما حاولنا جرد الأشياء التي حدثت خارج ذواتنا، سننتبه إلى انهمار أحداث سريعة انطلاقا من ١١ أيلول/سبتمبر.. سلسلة من الهجمات والمخاوف، من الانتظارات اللانهائية والتفجيرات التي تصيبنا بالذهول الشديد أو بالأسى العميق ـ «لا شيء سيعود كما كان».. هذه هي لازمة العصر ـ ثم تختفي كلُّها، وقد نُسِيَتْ، وتُرِكَتْ بلا حل، ليتم إحياءُ ذكراها في العام الموالي، بل الشهر التالي، كأنها تنتمي إلى تاريخ بعيد. كان لدينا ٢١ نيسان/أبريل، الحرب في العراق (من دوننا لحسن الحظ)، احتضار «يوحنا بولس الثاني»، «بابا» جديد لا نتذكر اسمه فبالأحرى رقمه، محطة «أتوتشا»، المساء الاحتفالي بفوز «لا» في الاستفتاء على

الدستور الأوروبي، الليالي الملتهبة بالنيران في الضواحي، «فلورانس أوبينا»، هجمات لندن، حرب لبنان بين إسرائيل وحزب الله، التسونامي، «صدام حسين» وقد أخرج من حفرة، ثم وهو يشنق دون أن نعرف متى تم ذلك، أوبئة غامضة: السراس، إنفلونزا الطيور، الشيكونغونيا.

في ذلك الصيف الهائل الذي سيصبح معروفًا بـ«القيظ الكبير»(١)، اختلط علينا الجنود الأمريكان بالعراق العائدين جثثًا في أكياس بلاستيكية مع جثث المسنين النحيفين الذين هلكوا جراء القيظ، وقد كُدِّسَت في ثلاجات سوق «رانجيس»(٢).

كان كل شيء يبعث على الأسى. كانت الولايات المتحدة سيدة الزمان والمكان الذي يتصرفون فيه بمشيئتهم ووقف حاجاتهم ومصالحهم. في كل مكان كان الأغنياء يزدادون غنى والفقراء فقرا. كان الناس ينامون في الخيام على طول الطريق الدائري. كان الشباب يسخرون: «مرحبا بكم في عالم الخراء».. ثم ينتفضون لوقت قصير. وحدهم المتقاعدون كانوا راضين ويبحثون عن التسلية وعن كيفية صرف أموالهم.. يسافرون إلى التايلاند، ويبحرون في موقع «eBay» و«Meetic». من أين يمكن أن تأتي الثورة، إذن؟

من بين كل الأخبار اليومية، كان الخبر الأهم.. الخبر الذي يهمنا أكثر من غيره هو ذاك المتعلق بأحوال الطقس في اليوم الموالي. هذه

---

(١) الإشارة هنا إلى صيف ٢٠٠٣ الذي كان قائظا جدًا في فرنسا.

(٢) «رانجيس» (RUNGIS) بلدة تقع جنوب باريس وتضم أكبر سوق للخضر والفواكه بفرنسا والعالم.

المعرفة التوقعية التي تخول للمرء كل يوم التعبير عن الرضا أو الامتعاض.. هذا الشيءُ الثابتُ وغيرُ المتوقع، في الآن ذاته، المرتبطُ بحالة الجو الذي تُثيرُ تأثيراتُ النشاطاتِ البشرية عليه السخطَ والاستهجانَ.

أخذ خطاب بغيض يضغط بكل حرية، ويلقى قبول الجزء الأكبر من المتفرجين الذين لم يكونوا يظهرون أي تأثر عند سماعهم سعي وزير الداخلية إلى «تنظيف» الضواحي من «الحثالة» بأجهزة «KARCHER» للتنظيف بالضغط العالي. وشرع في التلويح بالقيم العتيقة.. النظام، العمل، الهوية الوطنية، وكلها تحمل تهديدات ثقيلة لأعداء تُرِكَ لـ«الناس الشرفاء» أمر تحديد طبيعتهم: العاطلون، شبابُ الضواحي، المهاجرون السريون، المهاجرون بلا إقامة، اللصوصُ والمغتصبون.. وهلم جرا. لم يسبق - ومنذ زمن طويل - أن انتشر كل هذا الإيمانُ بتلك الكلماتِ القليلة.. كلماتٌ استسلم لها الناسُ كأنهم أصيبوا بالدوار بسبب كل تلك التحاليل والأخبار، ونال منهم الاشمئزازُ من السبعة ملايين فقير، من المشردين، من إحصاءات البطالة، فجنحوا إلى التبسيط.. «٧٧٪ من المستجوبين يعتبرون أن القضاء متساهل مع المجرمين». عاد الفلاسفةُ الجددُ القدماء إلى التكرار الممل لخطاباته العتيقة على التلفزيون.. مات «الأب بيير».. دمى «LES GUIGNOLS» لم تعد تضحك أحدا.. الصحيفة الساخرة «CHARLIE HEBDO» كانت تعمل على تدبير سخطها القديم. كنا نستشعر أن لا شيء يمكنه الحؤول دون انتخاب «ساركوزي».. دون تحقيق رغبة الناس. عاد من جديد ذلك النزوع إلى الخنوع والخضوع لقائد.

صار الزمن التجاري ينتهك الرُّزْنامة. «ها هي أعياد الميلاد تلوح!» يتنهد الناس أمام تدفق الألعاب وعلب الشوكولاتة في الأسواق الكبرى غداة عيد القديسين، وهم محبطون لأنه يستحيل الإفلات، طيلة أسابيع، من حصار العيد الأهم الذي يجبر المرء على التفكير في كيانه وعزلته وقدرته الشرائية إزاء المجتمع: كأن غايةَ الحياة برمتها بلوغُ ليلة أعياد الميلاد. إنه مشهد يجعل المرء يتمنى النوم في نهاية تشرين ثاني/نوفمبر وألا يستيقظ سوى في فجر السنة المقبلة. كنا ندخل أسوأَ فترة لاشتهاء الأشياء ومقتها.. أوجَ الفعل الاستهلاكي، الذي نؤديه في خضم الحرارة والانتظار عند صناديق الأداء والشعور بالقرف، كأن الأمر يتعلق بتضحية، بفرض منذور لإله مجهول من أجل خلاص مجهول، ونحن مستسلمون لواجب «القيام بشيء ما لإحياء أعياد الميلاد».. التخطيط لتزيين شجرة أعياد الميلاد وإعداد الوليمة الخاصة بهذه المناسبة.

في منتصف هذا العقد الأول من القرن الواحد والعشرين (لا نسميها أبدًا «السنوات الصفر» لهذه الألفية) جَمَعْنَا حول المائدة الابنين اللذين يشارفان الأربعين ـ حتى وإن بدايا مراهقين بالجينز وأحذية الكونفرس ـ وأصدقائهما وخليلتيهما ـ نفس الأشخاص منذ سنوات ـ والحفدة، بالإضافة إلى حضور الرجل الذي انتقل من وضع العشيق السري المؤقت إلى وضع الرفيق الدائم، المقبولِ حضورُه في الحفلات العائلية. كان الحديثُ يفيض أولا بالأسئلة المتبادلة: حول العمل، الهش أو المُهَدَّدِ بسبب بيع المقاولة.. وسائل النقل.. أوقات العمل والعطل.. عدد السجائر في اليوم والإقلاع عن التدخين.. الهوايات.. التصوير والموسيقى.. التحميلات.. آخر المشتريات من الأجهزة المستجدة.. آخر نسخة من «الويندووز».. آخر موديل من الموبايلات.. الـ3G الاستهلاك واستعمال

الزمن. باختصار، كل ما يتيح تحيين معرفتنا ببعضنا بعض، ويخول لنا تقييم أنماط الحياة مع ترسيخ إيماننا، خلسة، بتفوق نمطنا.

يقارنون بين وجهات نظرهم في الأفلام، ويتبادلون الحديث عن الكتابات النقدية في «TELERAMA»، و«LIBERATION»، و«INROCKS»، و«TECHNIKART»، ويعبرون عن حماسهم للسِّلْسِلات الأمريكية.. «ستة أقدام تحت الأرض».. «٢٤ ساعة كرونو». ويحثوننا على مشاهدة ولو حلقة واحدة منها، وهم مقتنعون أننا لن نفعل.. يريدون تعليمنا ولا يقبلون أن نعلمهم، وهم يلمحون إلى يقينهم بأن معرفتنا بالأشياء لم تعد تتماشى مع العالم مثلما هي معرفتهم.

يصل الحديث إلى الانتخابات الرئاسية المقبلة. يزايدون على بعضهم بعض حول عبثية الحملة الانتخابية، وحول إتخامنا بالثنائي «سيغو ـ ساركو»[١]. ويسخرون من «النظام العادل» ومبدأ «رابح ـ رابح» الذي تنادي به المرشحة الاشتراكية.. ومن طريقتها الرخوة والمُتَعَالِمَة في رص الجمل الجوفاء. ويعبرون عن خوفهم من الموهبة الشعبوية لـ«ساركو» وصعوده الحتمي. ويتفقون على صعوبة الاختيار بين «بوفي» و«فواني» و«بوزانسونو»[٢]. لم نكن نرغب، في نهاية المطاف، في التصويت لأي أحد، ونحن على يقين بأن هذه الانتخابات لن تغير في حياتنا شيئًا، فقط لدينا أمل أن الوضع لن يكون أكثر سوءً مع المرشحة الاشتراكية. ثم نبلغ

---

(١) الثنائي المعني هما المرشحان لرئاسيات ٢٠٠٧ بفرنسا: «سيغولين رويال» مرشحة الحزب الاشتراكي و«نيكولا ساركوزي» مرشح اليمين الجمهوري.

(٢) «جوزي بوفي» (JOSE BOVE) و«أوليفي بوزانسونو» (OLIVIER BESANCENOT) مرشحان لأقصى اليسار و«دومنيك فواني» (DOMINIQUE VOYNET) مرشحة الخضر، لرئاسيات ٢٠٠٧.

الموضوع الكبير: وسائل الإعلام، وتلاعبها بالرأي العام، وسبل تجاوزها. على الويب، لم يكونوا يثقون سوى بـ: «يوتوب»، «ويكيبيديا»، و«ريزو نيت»، و«أكريميد». كان انتقاد وسائل الإعلام أهم من الأخبار بحد ذاتها.

كان كل شيء يجري في جو من السخرية والحتمية المرحة.. فالضواحي ستنفجر من جديد، والنزاع الإسرائيلي الفلسطيني لا علاج له، والعالم يسير توا نحو الحائط بسبب الاحتباس الحراري، وذوبان الجليد، وموت النحل. أحدهم يصيح «على فكرة»، وماذا عن إنفلونزا الطيور؟ وأرييل شارون، هل مازال في غيبوبة؟ فيطلقُ سلسلة أخرى من الأمور المنسية.. وماذا عن «السراس».. وقضية «كليستريم».. واحتجاجات العاطلين.. كل هذا ليس من باب الإقرار بفقدان الذاكرة الجماعي بل لشجب هيمنة وسائل الإعلام على خيالنا. كان التلاشي السريع للماضي الأكثر قربا منا يبعث على الذهول.

لا حضور للذاكرة حقيقة ولا للحكي. فقط تذكير بسنوات السبعينيات التي تبدو محبوبة، عندنا، نحن الذين عشناها، وعندهم، هم الذين كانوا صغارا جدًا ولا يتذكرون منها سوى بعض الأشياء، والبرامج، والقطع الموسيقية.. واقية الركب.. «كيري» البهلوان.. مشغل الأقراص.. «ترافولتا» وفيلم «حمى ليلة السبت».

في خضم مرح الأحاديث، لم يكن هناك ما يكفي من الصبر للإصغاء إلى الحكايات.

كانت تستمع، وتتدخل باستحياء، منشغلة بلعب دور مسيرة النقاش، وبالعمل على تجنب إقصاء «العناصر الوافدة»، من خلال تموقعها فوق تواطُآت الأزواج وروابط النسب، وهي حريصة على تبديد بوادر أي

خلاف، ومتساهلة مع السخرية من جهلها التكنولوجي. كانت تشعر أنها قائدة عطوف، لا عمر محدد لها، لقبيلة من المراهقين، غير قادرة على استيعاب أنها صارت جدة، كأن هذا الوصفَ منذورٌ لأجدادها هي فقط.. حقيقة لا يغير فيها رحيلُهم شيئًا.

مرة أخرى، كانت الحقيقة اللامادية لمأدبة العيد تتشكل في خضم الأجساد المتزاحمة.. تمريرِ الخبز المحمص وكبدِ الإوز من يد إلى أخرى.. صوت المضغ والنكات.. وتجنب الجدية. هذه الحقيقة التي تشعر ـ لما تنسحب منها بضع دقائق لتدخين سيجارة أو الاطمئنان على طهو الديك الرومي، ثم تعود للالتحاق بالمائدة الصاخبة وهي غريبة عن الموضوع الجديد للحديث ـ بقوتها وكثافتها. ويطفو شيء من الطفولة ليتكرر هنا.. مشهد عتيق وذهبي.. أناس جالسون، بملامحَ غير واضحة، وسط همهمة الأصوات.

بعد احتساء القهوة، يجهزون التلفزيون بلوحة التحكم الخاصة بلعبة «نينتاندو» و«WII». وينخرطون في جولات من التنس أو الملاكمة، وهم يتصارعون بالصراخ والشتائم أمام الشاشة، بينما يلعب الصغار «الغميضة» في كل الغرف تاركين هدايا الأمس مبعثرة على الأرض. يعود الجميع إلى المائدة للانتعاش بالماء المعدني أو «كوكا». تحل فترات الصمت معلنة الفراق الوشيك. يلقون نظرات على الساعة. لقد خرجنا من زمن مأدبة العيد الخالي من عقارب الساعة. يتم جمع كل اللعب، والدمى الناعمة، وكل لوازم حضانة الأطفال التي تصاحب الأسر في كل تنقلاتها. وبعد تدفق العواطف وعبارات الشكر، وحث الأطفال على معانقة وتقبيل الجدة، والسؤال المتبادل: «ألم ننسَ شيئًا؟»، تأخذ العوالم الخاصة لكل أسرة في التشكل ويلتحق كل فريق بسيارته.

يداهمنا الصمت. نُزِيلُ الطرف الإضافي في المائدة. نشغل غسالة الأواني. نجمع رداء دمية نسي تحت أحد الكراسي. يغمرنا الشعور بالغبطة المتعبة لأننا أَحْسَنَّا، مرة أخرى، وِفادة الجميع، وتجاوزنا كل مراحل هذا الطقس الذي صِرْنَا الآن أقدم أعمدته.

على هذه الصورة ـ المأخوذة من بين المئات المحفوظة داخل أغلفة أو المخزنة في ملف إلكتروني ـ تَظْهَرُ امرأةٌ متقدمة في السن، بشعر بين الأشقر والأصهب، ترتدي كنزة سوداءَ مفتوحةَ الصدر، وهي منحشرة في أريكة، وتحيط بذراعيها طفلةً صغيرةً ترتدي الجينز وكنزة لونها أخضر شاحب، تجلس على ركبتيها اللتين لا تظهر منهما سوى واحدة ملفوفة في مشد أسود. الوجهان متقاربان، وجه المرأة شاحب مع بعض الحمرة المتفرقة التي تعلو الوجوه بعد الأكل، نحيف بعض الشيء، الجبهة تعبرها بعض التجاعيد الدقيقة، الفم يفرج عن ابتسامة. وجه الطفلة باهت، بعينين واسعتين سوداوين، قسمات جادة، منهمكة في الحديث. الشبه الوحيد بين الوجهين يكمن في الشَّعْر المبعثر ذي الطولِ ذاتِه، مع خصلات تصل إلى مقدمة العنق عند الاثنتين. يدا المرأة بارزة المفاصل، معروقتان تقريبا، تبدوان، في مقدمة الصورة، ضخمتين. ابتسامتها، تركيزها على العدسة، طريقتها في احتضان الطفلة ـ تنم عن العطاء أكثر من الامتلاك ـ كلها توحي بالإرث العائلي.. بتأكيد رابطة النسب: جدة تقدم حفيدتها. في عمق الصورة، رفوف مكتبة والضوء المنعكس على الأغلفة البلاستيكية لسلسلة الـ«بلياد»[1]، يبدو منها اسمان: «بافيزي»

---

(١) الـ«بلياد» (PLEIADE) سلسلة تصدرها دار غليمار الفرنسية وتخصصها لأعمال كبار الكتاب.

و«إلفريدي يلينيك»[1]. إنه الديكور التقليدي لمثقفة تحرص، في بيتها، على الفصل بين الكتب والدعائم الثقافية الأخرى ـ الـ«دي في دي»، أشرطة الفيديو، الأقراص الصلبة ـ كأنها لا تنتمي إلى نفس العالم.. لا تتمتع بنفس الشرف. على ظهر الصورة: سيرجي، ٢٦ كانون أول/ ديسمبر ٢٠٠٦.

هي المرأةُ التي في الصورة. ويمكنها القولُ بدرجة عالية اليقين ـ ما دام الوجه الذي في الصورة والوجه الحالي لا يختلفان بشكل ملحوظ.. ولم يتبدد بعد شيء من ملامحه التي ستتلاشى فيما بعد لا محالة (متى، كيف.. تفضل عدم التفكير في الأمر) ـ «هذه أنا» = لا تظهر علي أي علامات شيخوخة إضافية. تلك العلامات التي لا تفكر فيها، مفضلة العيش في تجاهل كامل، ليس لسنها ـ ستة وستون عامًا ـ بل لما يمثله بالنسبة إلى الأصغر سنا، ولا تشعر بأنها مختلفة عن نساء الخامسة والأربعين أو الخمسين.. هذا الوهم الذي تبدده هؤلاء النسوة، بدون سوء نية، في سياق حديث ما، وهن يوحين لها بأنها لا تنتمي إلى جيلهن، وأنهن يعتبرنها كما تعتبر هي نساء الثمانين، أي: عجوزٌ. وعلى عكس فترة المراهقة حيث كانت على يقين أنها تتغير من عام لآخر، بل من شهر لآخر، بينما العالم من حولها ثابت، فهي التي تشعر الآن بأنها ساكنة في عالم راكض. وهذا على الرغم من وقوع عدد من الأحداث في حياتها، بين الصورة السابقة على شاطئ «تْرُوفِيلْ»، وهذه المتعلقة بأعياد

(١) «تشيزاي بافيزي» (CESARE PAVESE) من كبار كتاب إيطاليا في القرن العشرين.
«إلفريدي يلينيك» (ELFRIEDE JELINEK) كاتبة نمساوية فازت بجائزة نوبل للآداب في ٢٠٠٤.

الميلاد في ٢٠٠٦. وبغض النظر عن درجة الاضطراب الذي تسببت فيه ومدته، ومدى تأثير بعضها على بعض، يمكن استعراضها كالتالي:

ـ القطيعة مع ذلك الذي كانت تسميه «الشاب».. تلك القطيعة التي سعت وراءها خلسة وبروية ولكن بإصرار، والتي قررتها بشكل لا رجعة فيه في يوم سبت من أيلول/سبتمبر ٩٩، ذلك اليوم الذي تابعت فيه سمكة «التنش» التي اصطاد للتو، وهي تتخبط على العشب لدقائق طويلة قبل أن تلفظ أنفاسها.. تلك السمكة التي تناولتها معه في المساء باشمئزاز.

ـ إحالتها على التقاعد، الذي كان يجسد، ولسنوات طويلة، أقصى ما يبلغه خيالها عن المستقبل، تمامًا مثل سن اليأس، من قبل. بين ليلة وضحاها، لم تعد الدروس المهيأة والملاحظات المستخلصة من القراءات العديدة صالحة لشيء. وفي ظل غياب أي استعمال، تلاشتْ من ذاكرتها تلك اللغة العالمة المكتسبةُ لشرح النصوص. وتضطر، عندما تعجز عن استحضار اسم إحدى الصيغ الأسلوبية، إلى الإقرار، كما كانت تفعل أمها بشأن زهرة تاه اسمها عن البال، بـ: «كنت أعرفها».

ـ الغيرة من الرفيقة الجديدة الناضجة للشاب، كأنها كانت في حاجة إلى ملء الزمن الذي حرره التقاعد.. أو كانت في حاجة إلى أن تعود شابة من خلال معاناة عاطفية لم يُسَبِّبْها لها أبدًا لما كانا يعيشان معًا.. غِيرةٌ أولتها اهتمامًا كبيرًا كأنها عمل حقيقي طيلة أسابيع عديدة حتى طفح بها الكيل ولم تعد ترغب سوى في شيء واحد.. التخلص منها.

ـ سرطان يبدو أنه يصحو في أثداء كل النساء اللواتي في سنها،

والذي يبدو من الطبيعي تقريبا الإصابة به بما أن الأشياء التي تخيف المرء كثيرًا تحدث في نهاية المطاف. في الفترة ذاتها، بلغها خبر تشكل جنين في أحشاء رفيقة ابنها البكر: أنثى، حسب ما كشفه الفحص بالصدى فيما بعد. حدث هذا بينما كانت قد فقدت كل شعرها بسبب العلاج الكيماوي. أربكها كثيرًا استبدالها السريع هذا، وبدون أي مهلة.

ـ في هذه الفترة الانتقالية بين ولادة مقبلة مؤكدة وموتها المحتمل، جاء لقاء رجل أصغر منها سحرَها لطفُه وميلُه إلى كل ما يدفع إلى الحلم.. الكتب، الموسيقى، السينما ـ وهذه صدفة خارقة منحتها فرصة للانتصار على الموت بالحب وال«إيروتيزم» ـ ثم تواصلت قصتهما في علاقة يتعاقب فيها الحضور والغياب، بأماكن مختلفة.. الشكل الوحيد الملائم للصعوبة التي يواجهانها في سبيل العيش ـ أو عدم العيش ـ معا.

ـ موت القطة السوداء والبيضاء وهي في السادسة عشرة من عمرها.. تلك القطة التي أصبحت، بعد سنوات من الدهون المُتَرَهِّلة، نحيلةً كما كانت على صورة شتاء ١٩٩٢.. تلك القطة التي أهالت عليها تراب الحديقة في عز القيظ بينما كان الجيران يرتمون بصخب في مسبح بيتهم. بهذا الفعل، الذي قامت به لأول مرة، شعرت كأنها تدفن كل الموتى الذين عبروا من حياتها ـ والداها، خالتها الأخيرة، الرجل المسن الذي كان أول عشيق لها بعد الطلاق، والذي ظل صديقا لها، ومات جراء أزمة قلبية قبل صيفين ـ.. شعرت كأنها تتوقع مراسيم دفنها هي نفسها.

سواء كانت سعيدة أو تعيسة، لا يبدو لها أن كل هذه الأشياء ـ حين تقارنها بأخرى بعيدة في ماضي حياتها ـ قد غيرت من طريقة تفكيرها، وأذواقها واهتماماتها التي تشكلت وترسخت في ذاتها في حدود سنواتها

الخمسين. هنا توقفت تلك الفجوات المتوالية الفاصلة بين مختلف شخصياتها في الماضي. ما تغير فيها أكثر من غيره هو إدراكها للزمن.. لوضعها في صيرورة الزمن. انتبهت باندهاش إلى أنه لما كانت تُمْلَى عليها نصوصُ «كوليت»، كانت هذه الكاتبة مازالت على قيد الحياة.. وأن جدتها، التي كانت في الثانية عشر لما توفي «فيكتور هوغو»، استمتعت على الأرجح بيوم العطلة الممنوح بمناسبة مراسيم تشييع جنازته (كانت مضطرة إلى العمل في الحقول في تلك السن المبكرة). وبينما تتسع المسافة التي تفصلها عن فقدانها لوالديها ـ عشرون وأربعون سنة على التوالي ـ ولا شيء في نمط حياتها وتفكيرها يشبه نمطهما ـ لعلهما «يتقلبان في قبريهما» من هذا التحول ـ فإنها تشعر باقترابها منهما.

بينما يتقلص الزمن، بكل موضوعية، أمامها، فإنه يتمدد أكثر فأكثر، إلى ما قبل ولادتها وما بعد موتها، لما تستحضر أنه سيقال عنها، بعد ثلاثين أو أربعين سنة، إنها عاصرت حرب الجزائر، تمامًا مثلما كان يقال عن أجدادها إنهم «عايشوا حرب الـ١٨٧٠».

لقد فقدت إحساسها بالمستقبل، هذا العمقِ اللامحدود الذي كانت تخطط له حركاتها وأفعالها.. فقدت انتظارَ تلك الأشياء المجهولة والجميلة التي كانت تسكنها وهي تصعد شارع «لامارن» في الخريف، متجهة إلى الكلية.. وهي تطوي رواية «المثقفون»[١].. وهي، فيما بعد، تقفز داخل سيارتها الـ«ميني أوستن» بعد نهاية الدروس وتسرع لأخذ ابنيها من المدرسة.. وهي ذاهبة، فيما بعد كذلك، إثر طلاقها ووفاة والدتها، إلى الولايات المتحدة لأول مرة وفي رأسها أغنية «أمريكا» لـ«جو

---

(١) «المثقفون» (LES MANDARINS) رواية لـ«سيمون دوبوفوار» صدرت في ١٩٥٤ ونالت جائزة الـ«غونكور»، أرفع جوائز الأدب الفرنسي، العام ذاته.

داسان».. وهي ترمي، قبل ثلاث سنوات، قطعة نقدية في نافورة «تريفي» مصحوبة بأمنية العودة إلى روما مرة أخرى.

عَوَّضَهُ شعور بالاستعجال.. شعور صار يجتاحها. أخذ يداهمها خوف من تحول ذاكراتها، مع توغلها في الشيخوخة، إلى تلك الذاكرة الغائمة والصامتة التي كانت لديها في أيام طفولتها المبكرة التي لن تتذكرها أبدًا فيما بعد. بل إنها لما تحاول تذكر زملاء الثانوية الجبلية حيث درَّسَت لمدة عامين كاملين، ترى أشكالا، وجوها، في بعض الأحيان بدقة كبيرة، ولكنها عاجزة عن «وضع أسماء عليها». تصر جاهدة على استعادة الاسم الناقص.. على الجمع بين شخص واسم مثل تركيب نصفين منفصلين. ربما في يوم ما ستنفصل الأشياء عن الأسماء ولن يعود في استطاعتها تسمية الواقع.. لن يبقى أمامها سوى واقع يستحيل وصفه.

لعل هذا هو الوقت المناسب لمنحِ شكلٍ لغيابِها المقبلِ بالكتابة.. للشروع في هذا الكتاب، الذي مازال في مرحلة المسودة وآلاف الجذاذات، والذي كان محايثًا لوجودها منذ أكثر من عشرين عامًا، والذي ينبغي أن يشمل زمنًا ما فتئ يطول ويطول.

هذا الشكل القادر على احتواء حياتها، لن تستقيه من ذلك الشعور الذي يداهمها، وهي مغمضة العينين تحت الشمس على الشاطئ أو في غرفة فندق ما، ويجعلها تحس بأنها تتضاعف وتعيش جسديا في عدة أماكن من حياتها.. بأنها ترقى إلى «زمن طِرْسِي». هذا الشعور لم يفدها لحد الآن في الكتابة، ولا في معرفة أي شيء. فهو مثل الدقائق التي تلي الأوركازم، يقدح الرغبة في الكتابة، ولا شيء آخر. وهو، بشكل ما، يُنْذِر ـ من خلال محو الكلام والصور والأشياء والناس ـ إن لم يكن

بالموت، فعلى الأقل بالحالة التي ستكون عليها في يوم ما، وهي غارقة في تأمل الأشجار والأبناء والحفدة، بشكل أكثر أو أقل ضبابية بسبب «الضمور البُقَعِي المرتبط بالعمر»، وقد سُلِبت منها كل معرفة وكل تاريخ.. تاريخها وتاريخ العالم، أو يُنْذِرُ بإصابتها بألزهايمر لتصير غير مدركة في أي يوم أو شهر أو فصل هي.

والحال أن ما يهم بالنسبة إليها، هو القبض على هذا الامتدادِ الزمني الذي يشكله مرورُها على الأرض في حقبة معينة.. القبض على هذا الزمن الذي عبرها، على هذا العالم الذي سجلت في دواخلها فقط من خلال العيش فيه. وقد حدست شكل كتابها انطلاقا من شعور آخر.. ذلك الشعور الذي يغمرها وهي تحس أمام صورة ثابتة لإحدى الذكريات ـ وهي على سرير المستشفى مع أطفال آخرين خضعوا لعملية اللوزتين بعد الحرب، أو على متن حافلة تعبر باريس في تموز/يوليو ٦٨ ـ أنها تنصهر في كُلِّيَّة مبهمة، تفلح، بفضل وعي نقدي، في أن تنتزع منها العناصر التي تُشَكِّلها، وحدا بعد الآخر.. الملابس، الأفعال، الكلام، إلخ. هكذا، تكبر تلك اللحظة الضئيلة من الماضي، وتفضي إلى أفق متحول وذي نبرة متجانسة في الآن نفسه.. أفق يشمل سنة أو العديد من السنوات. فتستعيد، برضا عميق يلامس الانبهار ـ لا تمنحه لها صورة الذكرى الشخصية لوحدها ـ نوعا من الشعور الجماعي الرحب الفسيحِ يكون وعيُها، بل كل كيانها، عالقا في ثناياه. تمامًا مثلما تشعر بنفسها، وهي وحيدة في سيارتها على الطريق السيار، عالقة في الكلية المبهمة لعالم الحاضر.

إذن، لا يمكن لشكل كتابها إلا أن ينبثق من غوصٍ عميق في صور

ذاكرتها للوقوف على العلامات المميزة للحقبة، للسنة ـ المضبوطة إلى هذا الحد أو ذاك ـ التي تنتمي إليها، وربطها بأخرى قريبة منها، والسعي جاهدة إلى سماع كلام الناس من جديد، سماع التعاليق حول الأحداث والأشياء، المأخوذة من كتلة الكلام الذي يطفو إلى السطح من جديد.. هذا اللغط الذي يحمل معه بلا كلل الصيغ المعبرة عما نحن عليه وما يجب أن نكون عليه، ونفكر فيه، ونؤمن به، ونهابه، ونأمل فيه. سوف توظف ما طَبَعَهُ هذا العالم في كيانها وفي كيانات معاصريها، من أجل إعادة تركيب زمن جماعي.. الزمن الذي انساب منذ فترة طويلة إلى اليوم.. من أجل ترجمة الحجم المعاش من التاريخ، من خلال استعادة ذاكرة الذاكرة الجماعية في ذاكرة فردية.

لن يكون عملا لاسترجاع الذكريات، بالمعنى المتعارف عليه، يروم تحويل حياة إلى حكاية.. يروم نوعا من تفسير الذات. لن تغوص في دواخلها إلا لاستعادة العالم.. لاستعادة ذاكرة وخيال الأيام الخوالي للعالم.. للقبض على تَغَيُّر الأفكار والمعتقدات والحس العام.. للقبض على تحولات الذات والأشخاص الذين عَرَفَتْ والذين يعتبرون «لا شيء»، على الأرجح، عند أولئك الذين ستعرفهم حفيدتُها وكل الناس الأحياء في ٢٠٧٠.. لِتَعَقُّبِ الأحاسيس التي تخالجها منذ مدة، والتي مازالت بلا اسم، مثل هذا الشعور الذي يدفعها إلى الكتابة.

سيكون سردا منسابا، في صيغة ماض ناقص متواصل، خالص، يلتهم الحاضر شيئًا فيشيئًا إلى آخر صورة في الحياة. ولكن هذا التدفق ستقطعه، على فترات منتظمة، صورٌ ومشاهد من أفلام للقبض على أشكال جسدها وعلى الأوضاع الاجتماعية المتوالية لكيانها.. صورٌ

ومشاهد ستشكل وقفاتٍ للذاكرة، وفي الوقت ذاته تقاريرَ عن تطور وجودها، وما جعله فريدا، ليس من خلال طبيعة عناصر حياتها الخارجية (المسار الاجتماعي، المهنة) أو الداخلية (أفكارها وتطلعاتها، الرغبة في الكتابة)، ولكن من خلال المزج بينها جميعا.. هذا المزج الفريد في ثنايا كل واحد.

هذه «الأخرى الدائمة» في الصور ستقابلُها ـ مثل صورتها المنعكسة في المرأة ـ «هي» الكتابةِ.

لا وجود لـ«أنا» في ما تعتبره نوعا من «السيرة الذاتية غير الشخصية» ـ بل «هم» و«نحن» ـ كأنها، بدورها، تحكي قصة الأيام الماضية.

في الماضي، لما كانت ترغب في الكتابة وهي في غرفتها الطلابية، كانت تتطلع إلى ابتداع لغة غير مألوفة قادرة على كشف الأشياء الغامضة، تمامًا كما تفعل العرافة. كانت كذلك تتخيل كتابها، بعد الانتهاء منه، كَشْفًا لكيانها العميق أمام الآخرين.. إنجازًا عاليًا رفيعًا.. مجدًا. كم كانت تصبو أن تصبح «كاتبة»، تمامًا مثلما كانت تتمنى وهي طفلة أن تنام وتصحو لتجد نفسها قد تحولت إلى «سكارليت أوهارا»[(١)]. فيما بعد، وهي في أقسام فظة تضم أربعين تلميذة، وهي خلف عربتها في السوق الكبير، وهي على مقاعد الحديقة العمومية بجانبها عربة أطفال، غاضت عنها هذه الأحلام. فلا وجود لعالم خارق ينبثق، بحركة سحرية، من كلمات مُلهِمَة، ولن تكتب أبدًا سوى داخل لغتِها، لغةِ كل الناس.. الأداة الوحيدة التي تعتزم توظيفها ضد كل ما يثير غيظها. إذن،

---

(١) «سكارليت أوهارا» (SCARLETT O'HARA): الشخصية الرئيسية في رواية «ذهب مع الريح» لـ«مارغريت ميتشل».

هذا الكتاب المأمول يعتبر وسيلة للنضال. هي لم تتخل عن هذا الطموح، ولكنها الآن تنشد، أكثر من أي شيء آخر، القبض على الضوء الذي يغمرُ وجوها اختفت الآن.. يغمرُ أغطيةً ملطخةً بالطعام تلاشت الآن.. ذلك الضوء الذي كان حاضرا في حكايات آحاد الطفولة، ولم يتوقف عن الانهمار على الأشياء فور عيشها..

تنشد إنقاذ:

ـ حلبة الحفلات الصغيرة ببلدة «بَزُوشْ-سُور- وِين» حيث تدور السيارات الاصطدامية

ـ غرفة الفندق في شارع «بُوفْوَازِين»، بمدينة «روان»، غير بعيد عن مكتبة «لُوبُوزِي»، حيث صور «كَيَاتْ»[1] مشهدا من فليم «الموت حبا»

ـ آلة توزيع النبيذ بمتجر «كارفور» بشارع «بارمولان»، مدينة «أنيسي»

ـ «اتكأت على جمال الكون
وحملت عبق الفصول بين راحتي»[2]

ـ لعبة الخيول الخشبية بالمنتجع الصحي «سَانْتْ-أُونُورِي- لِي- بَانْ»

---

(١) «أندري كيات» (ANDRE CAYATTE) مخرج فرنسي.
(٢) بيتان من قصيدة «قربان إلى الطبيعة» للشاعرة الفرنسية ذي الأصول الرومانية اليونانية «آنا دو نوييه» (ANNA DE NOAILLES).

ـ المرأة الشابة ذات المعطف الأحمر التي ترافق ذلك الرجل المترنح على الطوار، والذي جاءت لتصطحبه من مقهى «لو دوكوكلان» ببلدة «لاَرُوشْ-بُوسِي» في فصل الشتاء.

ـ فيلم «أناس بلا أهمية»

ـ الملصق الممزق لخدمة المحادثات الإباحية «3615 ULLA»، أسفل بلدة «فْلُورِي-سُورْ-أَنْدِيلْ».

ـ حانة، وصندوق الموسيقى الذي كانت تنبعث منه أغنية «APACHE» بـ«تِيلِي أُو كُورْنُرْ» بمنطقة «فينشلي»، لندن

ـ بيت وسط حديقة، بـ٣٦ شارع «إدموند روستان»، بلدة «فِيلْيِيه-لُو-بِيلْ»

ـ نظرة القطة السوداء والبيضاء وهي تستسلم للنوم بعد الحقنة

ـ الرجل الذي يرتدي البيجامة وينتعل الشبشب كل الأيام بعد الظهر في صالة دار العجزة بمدينة «بُونْتْوَاز»، والذي يبكي متوسلا إلى الزائرين الاتصال بابنه، وهو يمد إليهم قصاصة متسخة من الورق عليها رقم هاتف.

ـ المرأة التي في صورة مجزرة بلدة «بنطلحة» بالجزائر للمصور «حسين»، والتي تشبه «لا بيتا»[1]

ـ الشمس الساطعة على جدران «سان ميشيل»، ونحن ننظر إليها من ظل الـ«فوندامنتا نويفي»[2]

... إنقاذ شيء من براثين الزمن الذي سنختفي منه إلى الأبد.



(١) «لا بييتا» (la pieta) تمثال من الرخام نحته الفنان الإيطالي الشهير «مايكل إنجلو» ما بين ١٤٩٨ و١٤٩٩، ويجسد مريم العذراء المكلومة وهي تحمل جسد المسيح بعد صلبه. وهو معروض في كنسية «القديس بيير» بالفاتيكان.

(٢) FONDAMENTA NUOVE اسم يطلق على الرصيف الشمالي لمدينة البندقية.

هذا الكتاب

ما يهم بالنسبة إليها، هو القبض على هذا الامتدادِ الزمني الذي يشكله مرورُها على الأرض في حقبة معينة.. القبض على هذا الزمن الذي عبرها، على هذا العالم الذي سجلت في دواخلها فقط من خلال العيش فيه. وقد حدست شكل كتابها انطلاقا من شعور آخر.. ذلك الشعور الذي يغمرها وهي تحس أمام صورة ثابتة لإحدى الذكريات ـ وهي على سرير المستشفى مع أطفال آخرين خضعوا لعملية اللوزتين بعد الحرب، أو على متن حافلة تعبر باريس في تموز/يوليو ٦٨ ـ أنها تنصهر في كُلِّيَّة مبهمة، تفلح، بفضل وعي نقدي، في أن تنتزع منها العناصر التي تُشَكِّلها، وحدا بعد الآخر.. الملابس، الأفعال، الكلام، إلخ. هكذا، تكبر تلك اللحظة الضئيلة من الماضي، وتفضي إلى أفق متحول وذي نبرة متجانسة في الآن نفسه.. أفق يشمل سنة أو العديد من السنوات. فتستعيد، برضا عميق يلامس الانبهار ـ لا تمنحه لها صورة الذكرى الشخصية لوحدها ـ نوعا من الشعور الجماعي الرحب الفسيحِ يكون وعيُها، بل كل كيانها، عالقا في ثناياه. تمامًا مثلما تشعر بنفسها، وهي وحيدة في سيارتها على الطريق السيار، عالقة في الكلية المبهمة لعالم الحاضر.

الغلاف : سكينة صلوّن



